جامعة القاهرة
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

نشأة الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط
(موريتانيا)

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب

عبد الله حسن بن حميدة

إشراف

الأستاذ الدكتور / عبد المحسن طه بدر

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

مقدمة الرسالة

١٤٤
الوجيز والفيلي ٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

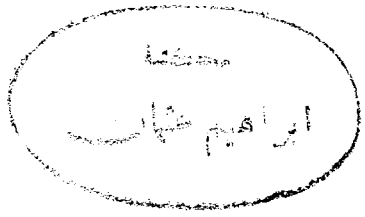

إهـــداء

إلى من لاعـبنى سـبعًا وأدبـنى عشـرًا وصـاحبنى عشرًا

إلى من أدى تجـاهى حقوق الولد على الوالد كاملة

إلى روح والدى حسـن بن احـميدا ..

تغـمده الله بوافـر رحمتـه

ان الأدب الشنقيطى حلقة مفقودة من حلقات الأدب العربى التى لايكاد يعرف عنها شىء ،فلأسباب موضوعية تاريخية انزوى هذا القطر على الحافة الجنوبية الغربية للوطن العربى ، وبانزوائه هذا لم يصل الى المثقف العربى فى المشرق من أدبه أوعنه أدبه شىء يذكر ، والمكتبة العربية - فى هذا المضمار - خلو من أى دراسة مرجعية علمية ، وان حوت ضمن ماحوت شتاتا متباينا من موءلفات الشناقطة المدارة غالبا حول مسائل فقهية ، لاتمت بصلة الى الأدب عامة أو الشعر تحديدا ، وقد لانعجب ان علمنا أن أدب القوم غير ميسر لذويه ، مطمور لايزال يستصرخ من يستنطقه .

وينقسم الذين عنوا به ، أو درسوا نتفا منه - اذا ما استثنينا بعض الدراسات الجامعية الحديثة - قسمين :

أحدهما: نفر من الوطنيين أنفسهم ،درسوه ووعيهم الفكرى لايخولهم تجاوز الانتمائية الضيقة للقبيلة والتعصب لها الى رحاب الموضوعية ، كما درسوه فى غياب كامل من المنهجية أو الحس النقدى الواعى فلم تعد - بالتالى - جهودهم ذكر مناسبة ، أو شرح مفردات ، وقد حكمت اختياراتهم اعتبارات ذاتية يخفت معها الى حد التناهى الاحساس بالذات الجمعية للبلاد .

وأما ثانى القسمين فنفر من الأجانب - الفرنسيين خاصة - عنوا أساسا بالجانب الاخبارى من أدب القوم فاتخذوه سبيلا ومعينا على دراساتهم الانثروبولوجية والتاريخية حول المنطقة ، الموظفة لخدمة (الأغراض العليا) للاستعمار ، والاستعمار الجديد . وقد عاب نظراتهم هذه بعدهم عن روح الجماعة التى أبدعت هذا الأدب ، ثم لون آخر من التعصب يسعى القائلون به الى خلق تعارض وهمى بين ثقافة المجتمع الشنقيطى (البربرى) القديم وبين الثقافة العربية (الغازية) وكأنما يريدون القول : ان

الثقافة الفرنسية نبت طبيعى يجب ان ينمو فى مثل هذا المحيط ويترعرع فى كنف الاسلام وديباره جنبا الى جنب مع اللغة العربية .

ولانرى ضرورة لعرض الاسباب التى جعلت البحث العربى لايتوجه ، ولو قليلا الى انتاجات هذا البلد فى شتى ميادين الثقافة العربية الاسلامية ، على الرغم من أن مامن شنقيطى حل ضيفا بقطر من اقطار المشرق العربى الا خلف ذكرا وتراثا ، ولابد ان هذه الاسباب غير خفية فمنها العام المتصل بأوضاع الوطن العربى بأسره ومؤسساته الثقافية ومدى قيامها بالدور المنوط بها ومنها الذاتى الخاص بأبناء القطر نفسه ، وتطوره الحديث والملابسات التاريخية التى اكتنفت مسار هذا التطور .

وقد رأينا من هذا المنظور ان نضيف الى مكتبة الدراسات الادبية العربية اضافة ، ربما كانت عددية ولكنها على كل حال جديدة فى موضوعها غير مسبوقة فى مجالها ، وركبنا الصعب ،وقررنا ان نخوض فى مجهول المجهول وأن نبدأ البداية الصحيحة فاخترنا ان نكشف عن النشأة الاولى للشعر الشنقيطى العربى الفصيح غطاءها التاريخى السميك .

وكان منبع اختيارنا الدفين والدافع اليه احساس متفاقم وربما مرضى بضرورة تأصيل الذات الوطنية ، اعنى ثقافتها على الاقل ، فى بعدها التاريخى وتأطير مسار نهضتها الاخذة فى التخلق على مهل كيلا تسير على غير هدى ضاربة بالايجابى من قيم تراثها جانبا ، اضف الى ذلك قناعة لا تريم بأن لكل بيئة خصوصية حضارية تميزها تبعا لظروفها التاريخية ، ولمحيطها الطبيعى وظروفه الايكولوجية ، وان اقدر الناس على استبيان كنه هذا التفرد ومظاهر تجليه فى الادب هم اصحابه ، فلا مناص اذن لادب كل قطر من أن يلقى العناية والدرس الكافيين من ذويه اولا ، والادب الموريتانى ليس بدعا بين آداب الاقطار العربية .

ان مجال هذا البحث يتحدد فى المكان بحدود بلاد شنقيط[1]. وهذه تبعا لحركة المد والجزر بينها وبين جيرانها ، تتسع مساحتها لتشمل جنوبا وشرقا مناطق شاسعة فى افريقيا الغربية ودولها ، ولتحوى شمالا جل المغرب الأقصى كما فى عهد الدولة اللمتونية المرابطية ، وتتقلص

---

١) ان من أقدم ما أطلق على هذه البلاد من التسميات ما أطلقه الرحالة العرب كابن حوقل ، والبكرى ، وأشهره: بلاد صنهاجة الجنوب أو صنهاجة الرمال وصحراء الملثمين ، وقد عرفت أثناء قيام دولة المرابطين ببلاد لمتونة ، وعرفت بعد أفولها ضمن بلاد التكرور ، وشاعت التسمية ببلاد شنقيط ابتداء من القرن التاسع عشر الميلادى مع تزايد قوافل الحجاج القادمة من مختلف أنحاء أفريقيا الغربية والتى كانت تتجمع فى مدينة شنقيط الحالية، وعرفت أيضا فى هذا القرن والذى يليه على أيدى أقطاب العلماء والمشايخ المحليين بتسميات مختلفة ، فالشيخ سيدى محمد الكنتى وميلود بن المختار ومحنض بابه بن عبيد والشيخ ماء العينين ومحمد المامى يطلقون عليها البلاد السائبة أو بلاد الفترة (أى فى فترة من حكم مركزى يدبر أمرها)، ويطلق عليها بابا بن الشيخ سيديا أرض البيضان نسبة الى غالبية سكانها وفى مقابل السودان وأما التسمية " موريتانيا " فقد أطلقت فى العهد الرومانى على القسم الشمالى الغربى من القارة الافريقية والذى قسم بدوره الى مناطق ثلاث : المغرب الأدنى (افريقية) المغرب الأوسط (نوميديا) والمغرب الأقصى (موريتانيا) وقسمت موريتانيا الى ولايتين : موريتانيا القيصرية وموريتانيا الطنجية ، وعنت كلمة: (Moors, Moros, Maures) فى هذا العهد سكان الشمال الافريقى ،فلما أسست الدولة الأموية بالأندلس عنت عربها فلما اندثرت هاجرت الكلمة مع من هاجر الى جنوب بلاد المغرب والصحراء الغربية فلما جاء الاستعمار الفرنسى وجد أن التسمية الوطنية " بلاد شنقيط " لاتفى بغرضه فأعاد اللفظ الرومانى " موريتانيا " الذى كان قد مات منذ زمن سحيق، وبعث من مرقده على عهده أول مرة فى قرار وزارى فرنسى صادر بتاريخ ١٨٩٩/١٢/٢٧ كان قد اتخذ على أثر تقرير عن المنطقة قدمه الضابط Xavier Coppolani تحت عنوان :

" Plan d'ensemble d'organisation des tribus maures"

حينا آخر لتقتطع دول مالى المتعاقبة منطقة الحوض الشرقى كله ، ويصل نفوذ سلاطين المغرب الى قلب موريتانيا الحالية .

وفى التاريخ الحديث ترك الاستعمار الفرنسى حدودا واضحة لجمهورية موريتانيا الاسلامية الا أنه لم يأخذ فى الاعتبار ، عن قصد وبينة ، حين اختطاطها الوحدة البشرية التاريخية للبيضان سكانها ، فاقتطع مرة منطقة آزواد وسكانها العرب لجمهورية مالى الحالية وتنازل مرة عن الصحراء الغربية لصالح أسبانيا وذلك قبل تدويل قضيتها .

فهل على الباحث - والحالة هذه - أن يأخذ فى الاعتبار حدود المنطقة وفقا للمرحلة التى يبحث فيها ؟ ، وسيجد حينها أن حدود المنطقة غير ثابتة ، اذ تتسع مرة وتضيق أخرى . أم أن عليه أن يعتد فقط بالحدود التى اختطها الاستعمار فى التاريخ الحديث والمعترف بها دوليا ، وعندئذ سيجد نفسه مضطرا لأن يبتر البحث فى أدب جماعة واحدة على أساس من اعتبار سياسى لاحق على واقع الجماعة الذى شهد نشوء الظاهرة الأدبية التى نؤرخ لها ؟ أم أن على الباحث أن يعتد فقط بالوحدة الطبيعية والبشرية ويضرب عرض الحائط بملابسات التاريخ السياسى ومنطقه ؟ .

لمن يؤثر السلامة ويلتزم التقية أن يسد عنه الذرائع فيحد مجال البحث مكانيا بحدود موريتانيا الرسمية ، وله أن يطمئن من جهة الأدب أن شعر القوم (البيضان) لم يخرج عن هذه الحدود الا فى حالات نادرة ولكنها موجودة ، أما نحن فلا نقصر الوطن الذى نؤرخ لثقافته وحياة الشعر الأولى فيه على الحدود الصورية التى رسمها المستعمر وانما نمده - مادام البحث فى الأدب لا السياسة - الى حيث تنتهى الحدود البشرية للبيضان بذاتيتهم الخاصة ، ذلك أننا نرى - وفى الذهن محاذير السياسة - أن أى بحث فى الثقافة الموريتانية لايأخذ فى الاعتبار مسألة الانتشار

التاريخي لقبائل البيضان ، التي استقر بعضها على أثره ومن جراء عوامل شتى خارج نطاق الدولة الموريتانية الحالية وحدودها الرسمية ، سيظل من وجهة نظرنا بحثا موتورا مبتورا .

ولست بالمستعرض لما واجه من الصعاب فهي محسوسة من نبض الرسالة ، معروفة لكل من راد البحث في موضوع بكر ولو في بيئة أوفر امكانات من تلك التي بحثت فيها . وأكتفي بالاشارة الى أن المنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج الفني التاريخي التطوري الذي يؤمن بأن الأدب مرتبط في نشأته وتطور مضامينه وطرائق تعبيره بظروف تاريخية اقتصادية واجتماعية محددة ، فيرصد الظاهرة في تكونها ويتابع مراحل تطورها والعوامل المؤثرة فيها معتدا أساسا بأبرز ممثلي الاتجاه وأكثر سمات فنهم اطرادا وتواترا.

وفي الختام أرى لزاما على أن أشكر للمشرف الأستاذ الدكتور عبد المحسن طه بدر مابذل من جهد لتقويم ما اعوج ولان عوده من هذه الرسالة وأن أنوه صادقا بحده الصارم وصدقه الملتزم ، والتزامه الصادق وحرصه أيما حرص على الطالب ، وان أشكر لأستاذي الجليلين الدكتور حسين محمد نصار ، والدكتور الطاهر أحمد مكي تفضلهما بتعقب هذه الرسالة كلمة كلمة.

***

الفصل الأول

الأصول التاريخية للثقافة العربية الإسلامية في بلاد شنقيط

(I)

من الراجح لدى الذين يعنون بالآثار أن استيطان منطقة الصحراء الغربية وموريتانيا الحالية بدأ منذ الفترة الأخيرة من العصر الحجرى وأن أول من استوطنها شعب زنجى بدائى يعيش على الصيد وجنى الثمار ، لم يلبث أن انزاح تدريجيا الى الجنوب من مواطنه الأصلية بدافع من جفاف الصحراء وهجرة شعوب من شمالى القارة الى الجنوب ، عرفت تارة باسم النيميد أو الجيتل وتارة أخرى باسم المور (Maures) ويجمعها اسم الليبيين - البربر[١] Lybico-berberes

ويختلف الباحثون اختلافا بينا حول نسب البربر[٢]، غير أنهم درجوا على تقسيمهم قسمين رئيسيين هما البتر والبرانس . وينضوى تحت لواء البرانس قبائل شتى تنتهى الى السبعين[٣] من أهمها صنهاجة التى انتشرت بطون منها باقليم الجزائر مابين المسيلة وتترى وميلة مسيطرة على الطريق الموصل بين موريطانيا السطيفية وموريطانيا القيصرية ، كما ضربت بطون أخرى مضاربها بمنطقة الأطلس الوسطى من تازا الى اقليم بنى هلال محتلة منحدرات الأطلس الكبرى الجنوبية ومتوغلة جنوبا حتى الواحات الواقعة على أطراف الصحراء الى أن تنزل بآزموره وماحولها .[٤]

وتنقسم صنهاجة فرعين كبيرين هما صنهاجة الشمال فى المغرب الأدنى والأوسط والتى خلفت الدولة الفاطمية فى حكم المغرب بعد انتقالها الى مصر فى القرن الرابع الهجرى ، وارتبط اسمها بالدولة الزيرية نسبة الى زيرى بن مناد ،

---

١) R.Vernet:" La prehistoire de la Mauritanie" in Introduction à la Mauritanie, ouvrage collectif, ed. CNRS, 1979 p.41.

٢) انظر حول هذا الخلاف : ابن خلدون : العبر ، ط. بولاق القاهرة ١٢٨٤ هـ ج ٦ ، ص ١٧٥ ، وكذلك عبد الرحمن بن عبد الله (ابن عبد الحكم) : فتوح افريقية والأندلس تحقيق عبد الله أنيس الطباع بيروت ١٩٦٤ دار الكتاب اللبنانى ص ٢٧-٢٨ ، وانظر كذلك أبا العباس أحمد بن يحيى البلاذرى : فتوح البلدان ليدن ١٨٦٦ ص ٢٢٦ ، وياقوت الحموى ، معجم البلدان ليبزج ١٨٦٦ ج ١ ص ٥٤١.

٣) أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق وتعليق ولدى المؤلف جعفر ومحمد ،د. دار الكتاب ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ج ٢ ص ٤ .

٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٣٦-٣٧ .

أما صنهاجة الجنوب - الفرع الثانى - فهى موءسسة الدولة المرابطية فى الصحراء والمغرب والأندلس .

وثمة تسميات أخرى لهذين الفرعين يطلق بموجبها على صنهاجة الشمال صنهاجة الظل وعلى صنهاجة الجنوب صنهاجة القبلة ، أو صنهاجة العز فى مقابل صنهاجة البز للشمالية التى توءدى الأعشار لسلاطين المغرب ويسميها بعضهم صنهاجة الذل .(١)

وتعتبر قبائل الفرع الشمالى مدرية قارة تقطن فى قرى ومداشر أما قبائل صنهاجة الجنوب - أهل اللثام(٢)- فبدو رحل ، أهل نجعة يشيمون الأنواء ويرتادون - على ظهور المهارى - مظان العشب والكلأ، " لم يروا قط حاضرة ولا عرفوا غير الباديه العازبة (...) يقيمون بقلب البر على مياه غير طائلة لايعرفون البر ولا الشعير ولا الدقيق ومنهم من لم يسمع بهما الا بالمثل واقواتهم الألبان وفى بعض الأوقات اللحم ".(٣)

وتتكون صنهاجة - اللثام من قبائل شتى أهمها لمتونة ، جدالة ومسوفة . وكما اختلفت الآراء حول أصل البربر اختلفت حول نسب صنهاجة وتضاربت حين تطرقت لحميرية لمتونة(٤).

وليس يعنينا تحقيق أصل صنهاجة ولا نسبة لمتونة ، فادعاء النسب العربى ظاهرة قديمة ، مفسرة تاريخيا ، شاعت ، فى تفاوت ، بين مختلف الشعوب التى حمل اليها العرب الفاتحون بشائر الدين الاسلامى .

ويمتد المجال الحيوى العام لقبائل الملثمين على اختلافها ،منذ أمد بعيد

---

١) عبدالعزيز بن عبدالله : الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية - معلمة الصحراء ، ملحق مطبوعات وزارة الأوقاف والشوءون الاسلامية فى المملكة المغربية عام ١٩٧٦ ص ٤ .

٢) راجع حول هذه التسمية ومقيل فى أسبابها الناصرى : الاستقصاء ج٢ ص ٤ .

٣) ابن حوقل النصيبى : صورة الأرض ، ط الثانية ، ليدن بمطبعة بريل ١٩٣٨ ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

٤) ابن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ١٧٥-١٧٨ .

من " غدامس جنوب طرابلس الى المحيط الأطلسى فى المناطق الصحراوية التى تلى سلسلة الجبال المعروفة بجبال درن ومن هذه شمالا حتى مصب نهر السينغال (جنوبا) بل ويمتد هذا المجال حتى منحنى نهر النيجر ويتجاوزه بمراحل عديدة حتى تصل مضارب هذه القبائل الى تادمكة فى قلب الصحراء الكبرى "(١). وعلى مدى أرض مساحتها نحو سبعة أشهر طولا فى أربعة عرضا(٢) تعيش قبائل لمتونة ، جدالة ومسوفة التى أعمرت موريتانيا ،فى مواطن خاصة بكل منها وفى مدارات يحاذى بعضها بعضا وتصاقب حافة السودان الغربى الآهلة بالزنج ، ففى حين تجوس لمتونة خلال المسافات الفاصلة بين وادى نون على المحيط الأطلسى حتى رأس بوجادور والى الشرق منه حتى آدرار - التمر(٣) فتكانت ، وتوغل مسوفة فى ترحالها شرقا حتى تصل الى تادمكة مستخلصة لنفسها - فى حلها - منطقة الحوض الشرقى ومايليها ، تقع ديار جدالة الى الجنوب الغربى من مرابع لمتونة ، محاذية لساحل البحر حتى تشرف مراتعها على مصاب نهر السينغال .

لقد أتاحت هذه المواقع المتميزة لهذه القبائل أن تحكم سيطرتها على مدارات تجوالها وانتجاعها فوصلت لمتونة فى جيوبة ثلثى المسافة بين سجلماسة وثنية النيجر بينما استخلصت جدالة لنفسها الطريق الساحلى الموازى للبحر و سيطرت على النهايات الجنوبية للطرق التجارية ، ولم تستكن مسوفة شرقا ولم تستسلم لجدب موقعها فقد ذكر الرحالة العربى ابن حوقل الذى زار المنطقة عام ٣٣١ هـ أن لها " لوازم على المجتازين عليهم بالتجارة من كل جمل وحمل ومن الراجعين بالتبر من بلد السودان ،وبذلك قوام بعض شؤونهم"(٤). ومن بعد ابن حوقل أكد ابن بطوطة حيوية دور مسوفة فقال انهم " كانوا يعملون

---

١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٤ .
٢) الناصرى : الاستقصاء ج ٢ ص ٤ .
٣) تمييزا له عن أدرار الهجار.
٤) ابن حوقل النصيبى : صورة الأرض ص ١٠٢ .

كأدلاء للقوافل وأن عبيدهم يعملون بالملح ومبادلته بالتمور أو بلحم الجمال " .(١)

ان المصادر التاريخية التى تناولت تفصيلا أصول وفروع صنهاجة الجنوب ونمط عيشها تجمل دوما عند الحديث عن معتقداتها ، فلا تزيد على أنها كانت على دين المجوسية (٢) ولاتذكر صلات لها بالديانات السماوية السابقة على الاسلام مع أن " النصرانية انتشرت فى المغرب الأقصى ، كما انتشرت اليهودية فى توات وتافلالت ووادى درعة ووادى نون وظلت باقية هناك حتى القرن الخامس الهجرى" (٣)، ولابد أن هذه القبائل سمعت عن هذه الديانات ووعت عنها الشئ اليسير ، فالصحراء - على عكس ماقد يتبادر الى الذهن - كانت باستمرار جسرا حيويا رابطا بين بلاد المغرب العربى وبلاد السودان الغربى مرورا ببلاد صنهاجة الرمال ومنذ أن بدأ استخدام الجمل فى شمال افريقيا عبدت الصحراء فجمعت أكثر مما فرقت . وقد حفظ التاريخ لنا مسارات الطرق الرئيسية التى سلكتها القوافل جيئة وذهابا محملة بالتجارة وحاملة للتوحيد المنير لدياجير الوثنية ، ولعل من أهم هذه الطرق التى سلكتها القوافل مخترقة صحراء الملثمين ، الطريق الذى يبدأ من سجلماسة وينتهى بأودغست مرورا بمواقع ودان فشنقيط الحالية ، ثم الطريق الثانى الذى يبدأ من توات وينتهى بتنبكتو مرورا بتغازة وتاودنى وولاته ، ثم الطريق الساحلى الذى يبدأ من ماسه ووادى نون لينتهى عند سان لويس بالسينغال مرورا بمنازل لمتونة فجدالة ، هذا اذا ما نحينا جانبا الطرق الشهيرة التى ربطت بين شمالى القارة وجنوبيها كطريق غات الذى كان يمتد من مالى وينتهى عند أهرام الجيزة وكدرب الأربعين.(٤)

---

١) ابن بطوطة : الرحلة المسماة " تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٦٤ ، ج ٢ ص ١٩٢ .

٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، المطبعة الأميرية بالقاهرة عام ١٣٣١ هـ ج ٥ ص ١٨٨ والناصرى : الاستقصاء ج ٢ ص ٤ .

٣) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٥٧ .

٤) حول طرق القوافل التى ربطت شمال القارة بجنوبها ،راجع د. جمال زكريا قاسم : " الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية - القاهرة ١٩٧٥ ، معهد البحوث والدراسات العربية ص ١٥٩-١٦٠ ، وسيلرى (انتونى): الجغرافية الاجتماعية لافريقيا " ترجمة د. ابراهيم أحمد رزقانه ومحمد جمال الدين رزقانه القاهرة ١٩٦٧، ص ٤٧ .

وكذلك: Bovill, E.W.: The golden trade of the Moors, London 1958, p.52.

وليس من اليسير أن نحدد على وجه الدقة متى تسرب الاسلام عبر هذه الطرق الى ربوع ديار الملثمين فى موريتانيا ، وان كنا نرجح أن دخوله وانتشاره مر بمراحل أربع متفاوتة المدد والأهمية .

المرحلة الأولى : مرحلة الاتصال غير المباشر : وتستمر حتى تاريخ تولية موسى بن نصير على المغرب عام ٨٥ هـ ، وفيها نفترض أن ظهور الاسلام وما أحدثته الفتوحات فى الشرق والغرب من دوى عالمى لابد سرى منه ركز خافت وقر مبكرا فى آذان صنهاجة الجنوب فمهد الطريق ، سلما ، لتسرب الدين وانسيابه عبر طرق القوافل على يد التجار المسلمين والدعاة الفرادى، والسائحين الضاربين فى مهامه الأرض ، خاصة أن الصلات لم تنقطع يوما بين فرعى صنهاجة فى الشمال والجنوب .

وتذكر بعض المراجع أن عقبة بن نافع ، ابان ولايته الأولى ، افتتح " موافع من بلاد السودان وودان من حيز برقة فى سنة ٤٣ هـ "(١) ويذهب البعض الى أنه اتخذ طريقا وسط الصحراء الوسطى الى السودان وأنه وصل غربا الى ودان بموريتانيا (٢)، غير أن الدكتور حسن أحمد محمود يشكك فى صحة هذه الرواية وغلو رواتها أو سوء تقديرهم على الأقل(٣)، ومهما يكن فاننا - بصدد اسلام قبائل صنهاجة الجنوب - لانعول على هذه الرواية كبير معول ، فمن المقبول أن تكون غزوة عقبة الثانية - لا الأولى - والتى تمت عام ٦٢ هـ بعد توليه افريقية للمرة الثانية ،أقرب الى الحقيقة التاريخية وأكثر أهمية فى هذا المضمار وان لم تكن حاسمة بدورها وفيها يقول ابن خلدون : " لما استقل يزيد بن معاوية بالخلافة ، رجع عقبة بن نافع الى أفريقية سنة ٦٢ هـ ،

---

١) حول حملة عقبة الأولى : انظر ابن الأثير (على بن أحمد بن أبى المكرم) الكامل فى التاريخ ، بولاق ١٢٩٠ هـ ص ٢١٢ وابن عذارى (أبا العباس أحمد): البيان المغرب فى أخبار المغرب تحقيق ليفى بروفنسال وكولان ليدن ١٩٤٨ ، ج ١ ص ١٥ .

٢) محمد الغربى : الساقية الحمراء ووادى الذهب ، دار الكتاب بالدار البيضاء د. ت . ج ١ ص ١٩٣ .

٣) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٦١-٦٢ .

وقد نشأت الردة فى البرابرة فزحف اليهم وجعل مقدمته زهير بن قيس البلوى (...) فسار عقبة وفتح وغنم وسبى واثخن فيهم وانتهى الى السوس ، وقاتل مسوفة من أهل اللثام[1] وراء السوس ووقف على البحر المحيط وقفل راجعا " ويبدو أن توجه عقبة الى ديار الملثمين لفتحها لم يقف عند هذه الجولة فى أطراف المغرب الشاسعة بعد أن أتم فتحه ، فقد " بث سراياه الى نواحى البلاد وأطرافها حتى بلغت لمتونة وجدالة ومسوفة وغيرهم ".[2] وبغض النظر عن مدى حظ كل هذه الروايات من الصحة فان عقبة بجيشه وسراياه هو أول من قيل انه ارتاد هذه الديار النائية مبشرا برسالات ربه وداعيا الى الاسلام، الا أن صنهاجة الرمال لم تسلم على عهده وان جد عليها نذير اسلام .

المرحلة الثانية : مرحلة الصدام المباشر : وهى التى شهدت تكثيف الحملات المباشرة ونشاط الدولة الادريسية وانتهت بظهور أول دولة صنهاجية مسلمة فى المنطقة .

ولى موسى بن نصير عام ٨٥ هـ وأراد اكمال مابدأه عقبة بن نافع منذ عشرين عاما من نشر للعقيدة الاسلامية فى ربوع المغرب الكبير فدك حصون البربر فى السوس الأدنى والأقصى وأراد التوجه الى بلاد السودان لكن الأندلس أخذت باهتمامه فعدل عن مشروعه وقفل راجعا بعد أن خلف ابنه مروان عام ٨٧ هـ على الجهات الجنوبية المفتوحة . ولما ولى هشام بن عبدالملك عبدالله بن الحبحاب افريقية عام ١١٤ هـ لم يول صحراء الملثمين التى هى طريق السودان الغربى أهمية فاستعمل عليها وعلى السوس الأقصى ابنه اسماعيل وامده بجيش صغير من العرب وبرديف من البربر الذين اسلموا ، ولما شق عليه بربر السوس عصا الطاعة - لأخذه اياهم بالشدة - سير اليهم حملة بقيادة حبيب بن أبى

---

١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط دار الكتاب اللبنانى عام ١٩٨١ القسم الأول (٧) من المجلد الرابع ص ٣٩٩ وكذلك الناصرى : الاستقصاء ج ١ ص ٧٣ - ٧٤ .

٢) محمد الامام بن الشيخ ماء العينين : الجأش الربيط فى النضال عن مغربية شنقيط وعربية المغاربة من مركب وبسيط مطبوعات دار العلم - الدار البيضاء ١٩٥٧ ص ١٥ .

عبيدة بن عقبة بن نافع تجاوزت السوس الأقصى وبلغت بلاد لمتونة ومسوفة وجدالة بل انتهت الى تخوم السودان عام ١١٦ هـ / ٧٣٤ م وأصابت من الذهب والفضة ماقدر لها أن تصيب (١) ورسخت من تعاليم الاسلام ما امكن ترسيخه عن طريق الصدام المباشر والاحتكاك بالسكان بربرا وزنوجا .

وقد درج بعض الباحثين على اعتبار هذه الحملة بداية لدخول الاسلام الى موريتانيا ونحن لانختلف معهم فى هذا التقدير الا من حيث الشدة أو الدرجة فهذه الحملة نعتبرها نهاية بداية لم تلبث ان بلغت مدى نضجها حين استطاع عبدالرحمن بن حبيب - بعد ثلث قرن من الزمن بعيد هذه الحملة - فى حكمة بالغة وحزم موفق أن ييسر عبور الصحراء بحفره لسلسلة من الآبار التى وصلت مابين السوس الأقصى وأودغست .(٢)

ان المراجع التى بين أيدينا لاتحدد لنا طبيعة الدور الذى قامت به الدولة الأدريسية (١٧٢ هـ / ٣٧٥هـ فى نشر الاسلام وتوطيد أركانه فى المنطقة قيد البحث وان اشارت الى أنها عملت على نشره باللين والمهادنة تارة وبالشدة حينا آخر والى أن نفوذها تخطى جبال درن ووصل منذ القرن الثالث الهجرى النواحى الشمالية من ديار الملثمين ووسطها (٣) ولكننا نرجح أنه بالكاد وصل وان لم يكن له وجود مباشر فعال اذ أن المنطقة عرفت فى هذه الفترة زعامات محلية سنية غير شيعية ، برزت لأول مرة من بين قبائل صنهاجة الجنوب .

المرحلة الثالثة : مرحلة التولد الداخلى للدعوة الاسلامية : ونعنى بها أن نشر الاسلام أضحى فى سيره يرتكز - عن قناعة - على القيادات

---

١) ابن خلدون : العبر ، القسم الاول (٧) من المجلد ٤ ص ٤٠٤ .
٢) البكرى : " المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا والمغرب " ط عام ٩١٣ ص ٢٩٦-٢٩٨ .
٣) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ط ٤ عام ١٩٨٣، النهضة المصرية ،ج ٦ ص ٥٠٥ .

الصنهاجية المحلية والتى أخذت نفسها - دون قسر خارجى - بالعمل على اذاعته فى حدود مجتمعها ومن حوله .

ان هذه المرحلة من أطول المراحلزمنيا وأهمها من حيث المحصلة النهائية فهى تبدأ مزامنة لعهد الدولة الادريسية فى المغرب ابتداء من القرن الثالث الهجرى وتنتهى مع ظهور قبائل المعقل العربية بالشمال الموريتانى ابتداء من القرن الثامن الهجرى وتنقسم الى فترات ثلاث :

الفترة الأولى : بروز أول دولة ببلاد صنهاجة الجنوب :

شهدت هذه الفترة تعاقب نفر من الملوك - رؤساء القبائل ، المسلمين الذين دانت لهم الصحراء أو" مسيرة ثلاثة أشهر فى ثلاثة " [1] منها فعملوا على تدعيم الاسلام بها وحملوا الجهاد فى صورته المبكرة الى الممالك الزنجية المجاورة لهم . ويعتبر يتلوتان بن تلاكاكين اللمتونى المتوفى عام ٢٢٢ هـ ، أول ملوك هذه الدولة ، قال ابن أبى زرع " ان أول من ملك الصحراء من لمتونه يتلوتان وكان يركب فى ألف نجيب وتوفى سنة ٢٢٢ هـ ،وملك بعده يلتان فقام بأمرهم وتوفى سنة ٢٨٧ هـ / وقام بأمرهم بعده ابنه تميم الى سنة ٣٠٦ هـ" [2] ثم افترق جمعهم قرنا من الزمن أو يزيد وعجلت بتمزيق وحدتهم المبكرة عصبيتهم القبلية التالدة ثم نجم زنوج غانا الطالع وحيويتهم التى مكنتهم منذ منتصف القرن الرابع الهجرى من السيطرة على أودغست واستخلاص بعض المناطق الشرقية من موريتانيا الحالية .

ولاتشير الروايات المختلفة - فيما نعلم - الى صلة بين هؤلاء الملوك وبين الدولة الادريسية التى عاصرتهم : غير أنها تذكر قيام زعيم جديد فيهم بدء من عام ٤١١ هـ يعرف بأبى عبدالله بن نيفاوت الشهير تارة بتادشت

---

١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٩ .
٢) نقلا عن نفس المرجع السابق والصفحة .

اللمتونى وتارة بتارسينا أو تارشنا - أول من أدى فريضة الحج من ملـــوك لمتونة - الذى عمل على توحيد جبهتهم الداخلية وتماسكها فأعاد للثلاثـــى لمتونة وجدالة ومسوفة حيوية الدور المنوط به فى المنطقة تاريخيا فرسم لـه خطة للجهاد ضد الوثنية الزنجية المجاورة ، غير أن المنية عاجلته بعـــد أعوام ثلاثة من تسنمه السلطة عام ٤١٤ هـ وهو فى احدى غزواته لتوسيع رقعـة الاسلام ، وخلفه صهره يحيى بن ابراهيم الجدالى الذى استخلف بدوره عـــام ٤٢٧ هـ ابنه ابراهيم ويمم البلاد المقدسة برسم الحج .(١)

الفترة الثانية : قيادم دولة المرابطين :

مر يحيى بن ابراهيم الجدالى حين أوبته من الحرمين الشريفيـــن بالقيروان وأناخ بحضرة الشيخ الفقيه أبى عمران موسى بن عيسى بن الحـــاج الغفجومى الفاسى وسمع منه وحضر مجالس وعظه ويقال انه أعلمه بسعة بلاده وما فيها من كثرة الخلق الذين غلب عليهم الجهل وليس لهم كبير علم وقيل انـه اختبره فى فروض دينه فلم يجده يعرف منها شيئا فسأله " مايمنعك من تعلـم العلم ؟" فقال يحيى بن ابراهيم " ياسيدى عدم وجود عالم بأرض وليس فـى بلادى من يقرأ القرآن فضلا عن العلم ".(٢) ونحن لانزعم أن جمهور صنهاجة اللثام قبل رحلة يحى بن ابراهيم كان عليما بحيثيات الدين الاسلامى وقواعد فروضـه غير أنا نرجح أن الارستقراطية الصنهاجية لابد ألمت بشى ء من ذلك والا لمـا تنازل يحى نفسه لابنه عن الرياسة ويمم الحج كما يممه من قبله تارشنا ، ولابد أن القرآن فى منازلهم كان يتلى على نحو من الانحاء وان كان ذلك لاينفى سيـر حياة عامتهم وفق العادات الوثنية الموروثة المجافية لروح الاسلام والمناقضة له ، والتى نجد لها ذكرا بعد أفول الدولة المرابطية بثلاثة قرون من الزمـن فى الرسالة التى أرسل بها العالم محمد بن محمد بن على اللمتونى فى شـــوال عام ٨٩٨هـ الى الامام السيوطى(٣) ، وكذلك فى رحلة ابن بطوطة حين حديثه عـن

---

١) الناصرى : الاستقصاء ج ٢ ص ٦ .
٢) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .
٣) جلال الدين السيوطى : الحاوى للفتاوى ط الثانية ١٩٧٥ م دار الكتـــب العلمية بيروت لبنان ج ١ ص ٢٨٥-٢٨٧ .

نظام التوريث فى ولاته .(١)

ندب شيخ المالكية بالقيروان أبوعمران الفاسى تلامذته الى مرافقة يحى بن ابراهيم الى بلاد لمتونة ليعلموهم ويفقهوهم فى أمر دينهم فتقاعسوا لبعد الشقة بين بلادهم وبلاده فأحاله الى تلميذه أبى محمد وجاج بن زلو اللمطى الذى كان قد صدر عنه من قبل واستقل فى السوس بزاوية موقوفة على تعلم العلم واقراء القرآن الكريم اشتهرت دارها بدار المرابطين ، فندب فقيه السوس تلميذه الصنهاجى الجزولى عبدالله بن يس لهذه المهمة ، وسار الركب صوب الصحراء .

أقبلت صنهاجة اللثام على أميرها العائد من رحلة الحج واحتفوا بصاحبه وآنسوا به واستعدوا للاخذ عنه فجلس معلما فرائض الدين ومرشدا الى الحق ناهيا عن المنكر ثم لم يلبث أن عمد الى تقويم سلوكهم(٢) فضاقوا به وبتعاليمه ذرعا فقالوا له " أما ماذكرت من الصلاة والزكاة فصحيح قريب أما قولك من قتل يقتل ،ومن سرق يقطع ، ومن زنى يجلد ،أو يرجم ،فأمر لانلتزمه ، اذهب الى غيرنا "(٣) ويبدو أن عبدالله تأثر لاعراض لمتونة وجدالة المتزايد عنه واعتزالهم له فهم بالرحيل قافلا الى السوس وفى رواية ميمما مواطن الزنج من السودان الغربى (٤) الا أن يحيى بن ابراهيم أصر على بقائه قائلا " انما أتيت بك لأنتفع بعلمك فى خاصة نفسى ودينى فما على فيمن ضل من قومى "(٥). واستقر رأى الرجلين على أن يعتزلا الناس فرارا بدينهم واستقر

---

١) ابن بطوطة : تحفة النظار ص ٢٩٩ .

٢) ذكر البكرى أن عبدالله بن يسن كان اذا تاب على يديه أحد رجال صنهاجة الجنوب يطهره عما سلف من ذنوبه فى شبابه فيضربه مائة سوط حد الزانى وثمانين سوطا حد المفترى وثمانين سوطا حد الشارب ، ومن تخلف عن الصلاة ضربه عشرين سوطا والركعة الفائتة بخمسة أسواط ، ومن رفع صوته فى المصلى ضرب على قدر مايراه صلاحا له ، راجع البكرى : المغرب فى ذكر أفريقيه والمغرب ، تحقيق Le Bon De Slane الجزائر ، ١٩١١ ص ١٦٩-١٧٠ .

٣) د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ط الثانية نهضة مصر عام ١٩٨٢ ج ٤ ص ٢٨٤ .

٤) Marçais, George: La berberie musulmane et l'orient au moyen âge Paris 1946 , p.239.

٥) د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ٢٨٤ .

بهما المقام فى " جزيرة يحيط بها بحر النيل من جهاتها يكون ضحضاحا فى المصيف يخاض بالأقدام وغمرا فى الشتاء يعبر بالزوارق وفيها الحلال المحض من شجر البرية وصيد البر والبحر " .(١) ولاندرى تحديدا كم كانوا حين انتبذوا مكانهم ذاك ولاكم من الزمن مكثوا بجزيرتهم هذه وان قيل ان نفرا من جدالة صحبهما وانهم أقاموا فى خلوتهم طيلة أشهر ثلاثة قبل أن يتسامع بهم ويتوافد الناس عليهم فى رباطهم .

ومهما تكن مدة مكثهم فى الرباط فان أسس الأيديولوجية السياسية للمرابطين والخطة العسكرية المبلورة لها مرحليا على المستوى الداخلى وضحت فى ذهن الزعيمين عبدالله بن يس ويحيى بن ابراهيم اذ ما ان بلغ عدد شيعتهما قرابة الألف حتى خطب عبدالله فيهم قائلا : " اخرجوا على بركة الله وانذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وابلغوهم حجتهم فان تابوا ورجعوا الى الحق واقلعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم وان أبوا ذلك وتمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا " (٢) واعرض الملثمون عن رسل ابن يس بل لجوا فى غيهم وازدادوا تجبرا على تكبر فخرج المرابطون من رباطهم فى ثلاثة آلاف نجيب وغزوا جدالة التى انهزمت أمامهم عام ٤٣٤ هـ ونكلوا بها حتى الزموها حدود الله وفرائض دينه ثم يمموا لمتونة فى ديارها فبايعت على الكتاب والسنة وجاءت مسوفة منصاعة مذعنة منيبة الى الحق(٣) ورسخ الاسلام ووقر من يومها فى أركان بلاد صنهاجة الجنوب .

وحتى لانوءرخ للدولة المرابطية نكتفى بالاشارة الى أن حركة المرابطين

---

١) ابن خلدون : العبر، القاهرة ١٢٧٤ هـ ج ٧ ص ١٨٣ ، موقع هذه الجزيرة محل خلاف بين الباحثين والراجح أنها احدى جزر التيدره شمالى رأس تيمريس (Cap Timeris) على بعد ٣٠ كم الى الشمال من أنواكشوط عاصمة موريتانيا الاسلامية .

٢) ابن أبى زرع (أبو الحسن على) الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس ، الرباط ١٩٣٦ ص ١٤-١٧ .

٣) الناصرى : الاستقصاء ج ٢ ص ١٠ .

توزعت الى فترتين رئيسيتين جنوبية تصارع الوثنية وعبادة الاصنام وتنشر الاسلام فى ممالك الزنج المجاورة وهى التى تمكن روادها مبكرا من فتح أودغست عام ٤٤٦ هـ ومن دخول كمبى صالح عاصمة غانة القديمة عام ٤٦٩ هـ .

وأما الفترة الثانية الشمالية فأمرها اشهر وأطول من أن نقف عنده بالتفصيل ، فمن المعلوم أن يحيى بن ابراهيم توفى عام ٤٤٠ هـ فعين خلفا له يحى بن عمر اللمتونى الذى استشهد بدوره فى معركة فتح مدينة أودغست عام ٤٤٦ هـ و لم يلبث عبدالله بن يس زعيم الحركة الروحى والسياسى أن قتل عام ٤٥١ هـ فى احدى معاركه مع البرغواطيين شمالا ، فجمع من بعده أبوبكر بن عمر القيادة العسكرية الى الامامة والتوجيه السياسى للحركة التى استمرت فى زحفها المظفر الى أن عادت هيف الى دينها وجد نذير القلاقل والمشاحنات القبلية فى بلاد صنهاجة الجنوب ، العمق الاستراتيجى والمخزون البشرى الرافد للحركة الضامن لاستمرارها والتى فى وحدة جبهتها الداخلية وتماسكها مايطمئن اليه مقاتلو الحركة ويسل السخائم التليدة القابعة فى العقل الباطن لكل منهم على الرغم من المبدأ الاسلامى الذى يجاهدون تحت رايته .

ولعل خوف الزعيم أبى بكر من أن تنعكس عوامل فرقة الجبهة الداخلية على الجبهة العسكرية فتجهض فى وقت حرج مشروع الحركة الذى بدأت معالمه تتحدد هو الذى حدا به الى أن يقفل راجعا الى الصحراء ليخمد نار الفتن المتأججة فيوكل موقتا أمر القيادة لابن عمه وساعده الايمن يوسف بن تاشفين الذى استبد بها وحبسها عنه بعد اوبته الى المغرب ، الا أنه كان أهلا لها ولم يفرط فيها حتى عده كثير من الدارسين المؤسس الفعلى للدولة المرابطية .

ويتفانى أبوبكر فى نكران الذات ويعود - للمرة الثانية - الى الصحراء صونا للمبدأ الاسلامى وحفاظا على وحدة الحركة وخوفا من أن يسن سنة سيئة وعملا بوصية شيخه وزعيم الحركة عبدالله بن يس الذى قال للمرابطين المقربين اليه حين أحس بدنو أجله : " يامعشر المرابطين ، انى ميت من يومى هذا

لامحالة وانكم فى بلاد عدوكم فاياكم أن تجبنوا أو تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وكونوا اعوانا على الحق واخوانا فى ذات الله واياكم والتحاسد على الرياسة فان الله يوءتى ملكه من يشاء من خلقه وسيخلف فى أرضه من أراد من عباده ".(١) ويذهب الموءرخون مذاهب شتى فىتفسير ملابسات حبس ابن تاشفين للحكم عن صاحبه الشرعى ابى بكر بن عمر وتتعدد الروايات فى تفسير الدوافع الكامنة وراءه الا أن الأهم من ذلك لما نحن بصدده من انتشار الاسلام بين ربوع صنهاجة ألجنوب هو اصطحاب أبى بكر هذه السرة الى الصحراء لنفر من العلماء سيكون لتواجدهم فى المنطقة أثر بالغ الأهمية فيما بعد .

الفترة الثالثة : فترة حملة العلم الأول :

وينقسم هوءلاء المعلمون ـ حسب تسلسل مقدمهم الى البلاد قسمين :

القسم الأول :

قفل أبوبكر بن عمر راجعا الى الصحراء فى رفقة من أهل الفضل تقول الرواية ان من بينها بعضا من ذرية عقبة بن نافع ومر فى طريقه باغمات وريكة فاصطحب معه بالاضافة الى ما أمده به يوسف بن تاشفين من المال والعتاد ، عالمين جليلين من علمائها هما الامام الحضرمى وابراهيم الأموى وربما اصطحب غيرهم من الفقهاء الذين أكملوا ما بدأه المعلم الأول بلا منازع عبدالله بن يس فأصلوا العلوم الدينية بأرض صنهاجة القفر، فمن هم هوءلاء حقيقة وماذا نعرف عنهم ؟ .

تفن علينا المراجع وتبخل بخلا مابعده بخل بخصوص ثانيهما ابراهيم الأموى ، فما نعرفه عنه رواية شفاهية متواترة عن الثقات من أهل العلم فى البلاد(٢) وعنهم تناقلتها المراجع الحديثة ، ملخصها أن ابراهيم ثانى اثنين قدما البلاد مع أبى بكر بن عمر لما آب نهائيا الى الصحراء عام

---

١) عن د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ٢٨٩ .

٢) راجع بابا ولد الشيخ سيديا ، تأليف فى أخبار البياضين تحت رقم ٢٧٦٥/تاريخ معهد البحث العلمى الموريتانى ص ٢٣ .

٤٦٣ هـ وان مهمته الموكلة اليه هى تعليم الدين الاسلامى والقضاء فى مجلس الأمير ثم تضيف الرواية أن الرجل جد للقبيلة الموريتانية الشهيرة بالعلم " المدلش "(١) ، واذن نحن لاندرى شيئا عن نشأة الرجل الأولى أو أصل نسبته الأموية ولا نعلم ان كان قد خلف تراثا أم لا ؟ كما لاندرى شيئا عن شيوخه ولا عمن صدر عنه مباشرة بعد أن جلس للاقراء فى المنطقة ، ولعل فى الرجوع الى شجرة " المدلش " نفسها ومايصدر عنهم من روايات مختلفة ماقد يلقى عليه مستقبلا بمزيد من الضوء .

وليس الأمر على هذا النحو من الغموض بالنسبة للامام الحضرمى فقد ذكره ابن بشكوال فى كتابه الصلة (٢) مخصصا له فقرة ، كما ذكره القاضى أبو الفضل عياض فى كتابه الغنيه (٣) والمراكشى فى كتابه الاعلام بمن حل بأغمات ومراكش من الاعلام (٤) والمقرى فى أزهار الرياض (٥) وكذلك تناوله عرضا التادلى فى كتابه التشوف الى رجال التصوف (٦) وفى اطار الدراسات الحديثة تناوله رضوان السيد فى تحقيقه وتقديمه لكتاب" الاشارة الى أدب الامارة " للامام الحضرمى نفسه كما خصص له الباحث الموريتانى عبدالودود ولد الشيخ والفرنسى برنارد ريزون بحثا قيما.(٧)

وبمقابلة المعلومات الوارادة عنه فى هذه المصادر والمراجع نتبين أن الرجل هو أبوبكر محمد بن الحسن المرادى نسبا القيروانى مهجرا الصحراوى

---

١) يقال ان كلمة مدلش هى تحريف لكلمة " مجلس" أى مجلس العلم .
٢) الصلة ط ١٩٥٥ ج ٢ ص ص ٥٧٢ .
٣) نقلا عن رضوان السيد فى تحقيقه لكتاب الاشارة الى أدب الامارة للمرادى ط بيروت دار الطليعة للطباعة والنشر عام ١٩٨١ ص ١٥ .
٤) ط . فاس ١٩٣٦ ج ٢ ص ٣١٢ .
٥) أزهار الرياض فى أخبار عياض القاهرة ١٩٤٢ ج ٣ ص ١٦١ .
٦) ط الرباط ١٩٥٨ ص ٨٣-٨٤ .
٧) O.Cheikh, A.W.et B. Saison: Vie (s) et mort (s) d'El IMAM Al Hadrami, IMRS, Nktt , 1983.

مقاما ومستقرا ، الحضرمي أصلا ، العالم الفقيه الأصولي المتكلم المالكي مذهبا الأشعري معتقدا ، قال ابن بشكوال " ان أبا العباس الكتاني قال انه دخل قرطبة في سنة ٤٨٧ هـ رجل من القرويين اسمه محمد بن الحسن الحضرمي يكنى أبابكر ويشتهر بالمرادي له نهوض في علم الاعتقادات والاصول (...) اختلف الى أبي مروان بن سراج في سماع التبصرة لمكي [١]، حدثني مشافهة بكتاب فقه اللغة لأبي منصور الثعالبي عن أبي القاسم عبدالرحمن بن عمر بن محمد التميمي القصديري عن أبي بكر محمد بن علي بن الحسن بن (عبد) البر التميمي عن أبي محمد اسماعيل بن محمد بن محمد بن عبدوس النيسابوري عن الثعالبي ،وكتب الي القاضي أبو الفضل بخطه يذكر أنه توفي بمدينة أزكد [٢] بصحراء المغرب وهو قاض بها سنة ٤٨٩ هـ [٣].

ان الرواية الشفاهية لاتذكر شيئا عن رحلة للمرادي الى الاندلس بعد أن دخل الى الصحراء مع أبي بكر لكن ابن الأبار يذكر أن ابنه عليا قطن قرناطة واختلف فيها الى مجلس أبي علي الصدفي [٤] فهل توزع الامام الحضرمي بين عائلته وموطنه الأصلي بالمغرب والاندلس وبين طموحات ذاتية كان يؤمل أن تتحقق على يد الأمير أبي بكر ؟ هذا ما يؤكده ابن بسام حين يقول " انه أراد أن يسلك في عمل دولة المرابطين مسلك عبدالله بن ياسين ولم يدر أنها أقدار محتومة وخطوط مقسومة " [٥] غير أنه لم يشرح لنا لم لم يتوجه المرادي - ان كانت هذه نزعته - الى يوسف بن تاشفين ذي النجم الصاعد والملك الأوسع عهدئذ؟.

وعن ثقافة الامام الحضرمي وتواليفه يقول ابن بشكوال " روى عنه

---

١) مكي بن أبي طالب القيسي .

٢) حول اسم هذه المدينة وصور رسمه المختلفة راجع : الهامش رقم ١٧ ص ٣٢ من O.Cheikh,A.W; et B.SAISON:Vie(s)et mort (s) d'El IMAM AL HADRAMI.

٣) ابن بشكوال : كتاب الصلة ج ٢ ص ٥٧٢ .

٤) رضوان السيد : الاشارة الى أدب الامارة ص ١٦ .

٥) رضوان السيد : نفس المرجع السابق ص ١٥ .

أبو الحسن المقرىء وقال كان رجلا نبيها عالما بالفقه واماما فى أصول الدين وله فى ذلك تواليف حسان مفيدة وكان مع ذلك ذا حظ وافر من البلاغة والفصاحة "[1] غير أن هذه التواليف المفيدة لم يصلنا منها سوى كتاب الاشارة ولم نقف لها على خبر سوى ماذكره القاضى عياض من أن أبا الحجاج تلميذه روى عنه جميع تواليفه ورواياته وذكر له أرجوزتين : صغرى فى الاعتقادات وكبرى ثم كتابه التجريد [2] هذا ماحفظته لنا الكتب من معلومات عن الرجل وحياته وهى كلها سابقة على دخوله الى الصحراء .

ومن يوم ان دخل الامام الحضرمى الى آزوكى مدينة الكلاب التى تبعد اليوم حوالى ١٥ كم من مدينة أطار عاصمة اقليم آدرار ، لم نعد نعلم عن الرجل وعن حياته الا ماشاء لنا الخيال الشعبى أن نعرف ، فقد تحول بقدرة قادر الى شريف هاشمى ، مشهود له بالكرامات والخوارق فقد هشت الكلاب لمقدمه وبشت ، وتحولت - فى الرواية - الى جند له وانقلبت ضد مالكيها من البافور ساكنى المدينة ، ولما شاء الله له أن يموت عام ٤٨٩ هـ مات شهيدا بسهم مسموم أطلقه عجوز أعمى تقوده من يده ابنته الشابة ، فصعدت دماؤه عمودا من نور الى عنان السماء .

ويطول بنا الحديث لو أخذنا فى تفصيل جوانب شخصية الرجل كما يصورها القص الشعبى ونكتفى بالقول بأن المكانة الخاصة التى احتفظ بها الشعب لهذا المعلم عبر هذه القرون ان عنت شيئا ، انما تعنى - ضمن ماقد تعنى - ان الرجل لعب دورا حيويا روحيا بالغ الأثر فى حياة الناس وان لم نظفر حتى الساعة بوثائق تبلوره للعيان .

مات الأمير أبوبكر بن عمر عام ٤٨٠ هـ فخمد من بعد فقده ذكر الدولة المرابطية الجنوبية وأفل نجمها وتشتت شمل قبائلها وافترقت كلمتها وعادت

---

١) ابن بشكوال : كتاب الصلة ص ٥٧٢ .
٢) عن رضوان السيد فى تحقيقه لكتاب الاشارة للمرادى ص ١٢ .

سيرتها الأولى وسعد نجم ممالك الزنج المجاورة وتوسعت اقليميا وبشريا على حساب الدولة المرابطية وقسمها الجنوبى الذى خفت صلاته بالقسم الشمالى الذى لم يكن أحسن حالا ولا أكثر اغراء فقد كال له نصارى أسبانيا الضربة تلو الضربة وتكتلت ممالكهم ضد الأندلس الذى لم يفزع الى نصرة المرابطين الذين استبد بهم صراعهم الأزلى بعيد موت تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين عام ٥٣٩ هـ ، وماشاع عنهم من تواكل داخلى وتباغض وتدخل للنساء فى شوءون دولتهم (١)، وانسياق للفقهاء المنساقين بدورهم الى التقليد قدر ابتعادهم عن الاجتهاد، حدث كل هذا فى وقت حرج بدت فيه دعوة المهدى بن تومرت مقلقة وثوراته لاتقاوم .

وينقضى عهد اسحاق بن على بن يوسف بن تاشفين عام ٥٤١ هـ وتزول دولة المرابطين بعد أن دامت قرابة قرن من الزمان تمكنت خلاله من أن تمد للاسلام فى الأندلس حياة على حياته وان تعيد للمغربين الأدنى والأوسط بعضا من تماسكهما وللمغرب الاقصى توازنه وان توءصل اسلام صنهاجة اللثام فى الصحراء وان تمكن للاسلام فى القارة السوداء تمكينا لارجعة فيه .

القسم الثانى :

استتب الأمر للموحدين فى المغرب نهائيا فقاموا بتعقب الدولة المرابطية تعقبا لاهوادة فيه واستأصلوا شأفة انصارها البارزين وأخذوا القبائل التى لم تلن لهم بالقوة حينا وبالحيلة حينا آخر وضربوا على أيدى فقهاء المالكية " المجسمين " الذين كانت لهم اليد الطولى على عهد المرابطين ، وفى هذه الفترة شهدت المنطقة وفادة مجموعة ثانية من علماء المالكية الذين أضافوا الى البناء لبنة لاينقضى أثرها . فمن هم هوءلاء؟.

انهم :

(١) الشريف عبد الموءمن موءسس مدينة تشيت على آخر القرن السادس الهجرى فى المتواتر من خبرها وجد المجموعة المعروفة باسم شرفاء تشيت .

---

١) ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ترجمة الدكتور عبد العزيز سالم وآخرين ، نهضة مصر ١٩٥٦ ص ٢٥١-٢٥٢ .

(٢) الحاج عثمان جد قبيل من " ادو الحاج " وأحد مؤسس قرية ودان التى شيدت يوم عرفة !! عام ٧٣٠هـ[١] على يد ركب حسيب نسيب رفيع المستوى العلمى قدم المنطقة من توات [٢].

وعلى افتراض صحة تأسيس الرجلين للمدينتين (تشيت ، ودان) وصحة تاريخ تأسيسهما لها فان قرنا من الزمن على الاقل يفصل بينهما فى حين أن الرواية المتداولة تقول انهما تلميذان للقاضى عياض اليحصبى المتوفى عام ٥٤٤هـ ولابد اذن ان ثمة خلطا اما فى تاريخ التأسيس واما فى صحة التلمذة المباشرة على ابى الفضل عياض ، ولانستطيع - لانعدام الدليل القطعى - وفى بحث ادبى ان نرفع الغموض او التعارضات الاولية الناجمة عن التداخل بين الروايات وتقاطعاتها .

(٣) يحى الكامل تنمر جد قبيلة المحاجيب الذى قدم الى البلاد فى رفقة لاتحدد الرواية اسم أحد منها ولاتاريخا معينا لمقدمها وان كان من الراجح انها جاءت على آخر القرن الخامس الهجرى أو مطلع السادس الهجرى فمن الشائع ان يحى الكامل معاصر للشيخ عبد القادر الجيلانى المتوفى عام ٥٦٢ هـ وانه من أول العرب المسلمين الذين استوطنوا ولاتة التى أنشأت " على يد المسلمين الجافلين من اهل غانة على اثر هجوم الصوصو عليهم عام ٦٠٠ هـ[٣] وكانت قبل ذلك عريشا قديما تقطنه خادم عجوز تسمى بيرو تستودعها القوافل جيئة وذهابا ماأثقل حملها ولم يكن ذا غناء ، وهى التى زارها ابن بطوطة عام ٧٥٣ هـ وتحدث عنها تحت اسم " ايولاتن " وهى كذلك التى لجأ اليها علماء تنبكتو عام ٨٧٣ هـ هربا من بطش سنو على[٤].

---

١) تختلف الروايات اختلافا بينا حول تاريخ بنائها وتجعله أحيانا قبل هذه الفترة بنصف قرن على الاقل .

٢) Ismael Hamet: Villes Sahariennes, in Revue du monde musulman Vol. XIX, année 1912 ed. Maison Ernest Leroux, Paris, P. 227.

٣) ابراهيم على طرخان : امبراطورية غانة الاسلامية الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ١٩٧٠ ، ص ١٦ .

٤) القاضى الفقيه محمود كعت : تاريخ الفتاش فى اخبار البلدان والجيوش ، وأكابر الناس ط. السيد هوداس والسيد / د لاقوس باريس ١٩٨١ ، ص ٤٨ ، من النص الفرنسى .

(٤) محمد قللـــــى :

أسست مدينة شنقيط على فترتين الأولى عام ١٦٠ هـ فى موضع يقال لـــه آبير ثم اندثرت وأعيد تعميرها عام ٦٦٠ هـ فى مكانها الحالى الذى يبعـــد ميلين عن الأولى أو انقص قليلا .

وقد قيل ان رجلا صالحا متبتلا يقوم الليل ويصوم النهار ، يرجع فى نسبه الى الصديق أبى بكر رضى الله عنه ويدعى محمد قللى بن ابراهيم بن محمد بن بيجو ، جاء من مكان ما واتخذ له مقاما على ظاهر ربوة تعرف باسم " قيط " تصحبه زوج له صالحة رزق منها بولدين هما محمد ومالك وببنات ثلاث هـــن آمنة ، عائشة وخديجة وتعرف " بتامر زاجت " وبينما هو فى خلوته وانقطاعه الى الله طرق بابه طارق يدعى يحى بن بلحسن بن أبيج بن جبجابه قال انه من مدينة الى الشرق من مكانهم هذا وانه أخرج منها - على مكانته فيها - حقنا لدماء أهلها اذ يقضى عرفهم بأن يعدم القاتل مهما تكن ملابســـات جرمه ، وقد شاء له حظه العاثر أن يقتل رجلا أتى فعلة مشينة على مرأى منه .

أقام يحى فى ضيافة محمد قللى حينا من الدهر واتفقا على أن يضعـــا أساس مدينة فى المنطقة المسماة " شن " بأعلى الرابية المعروفة بـ (قيط) (١) لتكون لهم أمنا ومستقرا، ولتدعيم الأواصر بينهما تزوج يحى من تامر زاجت . وعن لهما أن يستعينا على مشروعهما بأعمر و(الديجر) اللذين كانا يهيمان فى الوادى المحاذى للتل وتقاسموا المهام فيما بينهم فاحتفظوا لمحمد قللـــى بالوظيفة الدينية - التعليمية واحتكر يحى لنفسه السلطة السياســـة والعسكرية وكلف أعمر بالبناء والتجهيز الضرورى لقيام المدينة وجعلـــوا للديجر مهمة الزراعة والتشجير ، وفى زمن قياسى شادوا شنقيط التى أعمرهـا عابرو السبيل والنازحون بسبب الحروب من المناطق المجاورة بزعامة "الاقلال" خلف محمد قللى ، و" ادوعل " خلف يحى ،و" آمكاريج" خلف اعمر وأهـــل المولود بن أحمد ذرية اديجر ومنذ ذلك التاريخ ومدينة شنقيط باسقة السهم

---

١) ثمة رأى آخر يرى أن " محمد قللى " هو الذى تزوج احدى بنات يحـــى المهاجرة معه من آبير وهو الشائع فى شنقيط .

فى نشر الاسلام ثرة العطاء جنبا الى جنب مع غيرها من المراكز الاسلامية فى أرض صنهاجة الرمال .

ان تاريخ الثقافة الدينية فى المنطقة بدأ يتشكل ابتداء من أواخر القرن الخامس الهجرى وتبلور على مدى القرنين السادس والسابع الهجريين ، فلما تدافعت قبائل المعقل الى الصحراء على أول عهد الدولة المرينية وجدت أمامها مراكز حضرية قارة ذات تقاليد دينية علمية مطردة النمو ارستها قبائل صنهاجة الجنوب وصانتها مستعينة بأفراد عرب مسلمين تقاطروا اليها فرادى واستقروا بينها فى هدأة من الزمن فألفوها وألفتهم ومع ذلك فان تعميم الاسلام الصافى الخالى من الشوائب الطوطمية على المستوى الشعبى مازال بعيد المنال ، فنظرة سريعة الى الرسالة التى بعث بها محمد بن محمد بن على اللمتونى الى الامام السيوطى عام ٨٩٨ هـ كفيلة بالقاء الضوء على درجة اسلام القوم فقد ورد فيها مانصه : " نسأل عن قوم منهم من لايورث وما تركه بعده لأبناء اخوته وأهل القوة والجاه (...) ومنهم من لايعطى المرأة صداقها أصلا وكان ذلك عادة ومنهم من حرفته القمار والميسر (...) ومنهم من يعبد الاصنام ويذبح لها ولاتصوم نساؤهم ولايصلين الا اذا كبرن (...) وعندهم طلسمات للنكاح والبيع والشراء والرهج والحرب والمحبة (...) ومنهم من صلاته بالتيمم أبدا فلا يتوضأون الا نادرا ولايغتسلون عن الجنابة الا نادرا وتوحيدهم بالفم ، ومايعرفون حقيقة التوحيد ، زكاتهم يجلبون بها مصالح دنياهم أو يدفعون بها مضارهم وحجهم بالأموال المحرمة (...)ومنهم قوم لايعدون الطلاق فليس له عندهم حد ومنهم من يعد الطلاق فاذا وصلوا ثلاثا أعطى شيئا ثم يعيدها بغير محلل ومنهم من لايعتد المرأة فتنكح من أرادت فى العدة .."[1] واذا كان هذا حال اسلام القوم - جمهورهم على

---

١) جلال الدين السيوطى : الحاوى للفتاوى ص ٢٨٥-٢٨٧ .

الأقل فى القرن التاسع الهجرى - فلابد أنه لم يكن نميرا خاليا من شوائب العادة فى القرنين السابع والثامن الهجريين .

المرحلة الرابعة : تعميم الاسلام : (وتمتد من القرن الثامن الهجرى حتى الثانى عشر الهجرى)

لقد مهد احتكاك صنهاجة الجنوب المسلمة بقبائل المعقل العربية النازحة السبيل أمام تعميم الاسلام وتعميقه الا أن هذا الاحتكاك لم يكن العامل الحاسم فى اسلام البلاد ، ونحن لانعول عليه لا فى درجة حسن اسلام صنهاجة الجنوب ولا فى مدى انتشاره بينهم ولافى تمسكهم به أو عملهم من بعد ذلك على نشره فى غربى القارة وذلك لاعتبارات : منها ماقررناه سلفا من درجة اسلام صنهاجة الجنوب وتثبيت دعائم موءسساتها العلمية الدينية قبل مقدم العرب ومنها أن عرب المعقل حين نزحت الى الصحراء الغربية وانتشرت فى ربوع المنطقة لم يكن دافعها ولاحاديها الى المجىء الدعوة الى الاسلام بل تحكمت فى هجرتها أسباب ودوافع أخرى سنفصلها لاحقا ومنها أن تاريخ المنطقة لم يذكر - فى جانبه الشفاهى أو المكتوب - نشاطا لهم استهدف نشر الاسلام أو العمل على بثه وان كنا سنرى أيضا أسباب هذا التعتيم .

ان رفد الاسلام الأساسى ، المغذى لمده ، المعمم له على المستوى الشعبى - بعد أن استقر رسميا - تمثل فى وفود الطرق الصوفية وامتداد نشاط الدولة السعدية الى البلاد ثم قيام حركة ناصر الدين الاصلاحية .

دخلت الصوفية الاندلس مبكرا على يد ابن مسرة منذ القرن الرابع الهجرى ومنه انتقلت الى المغرب ولم يكتمل نموها فى حرية لقيام الدولة المرابطية التى كبحت جماحها وجماح أهلها مما جعلها تضطلع بدور هام فى زوال نفوذ المرابطين ، الشىء الذى مكنها من أن تزدهر أثناء الدولة الموحدية خصيمة المرابطين فقد كثر علماء التصوف وزوايا الصوفية فى القرن السابع الهجرى فى منطقة المغرب العربى بأسرها ويبدو أن اقبال السكان على الطرق الصوفية

وزواياها كان سريعا ربما لزهد دعاتها وانقطاعهم الى الله ، وربما احتماء بها من الصراعات الممضة لواقعهم اذ ذاك .

وقد كان لمنطقة الصحراء الغربية السهم الأوفر فى الاقبال على مشايخ الطرق وزواياها مبكرا حتى عرفت بدءا من القرن التاسع الهجرى بأرض الأولياء والصالحين ولم تنج بلاد شنقيط بطبيعة الحال ، فقد تسربت اليها الطرق هى الأخرى ولعبت دورا فعالا فى تعميم الاسلام وترسيخه لافيها فحسب وانما فى كل أفريقيا الغربية من بعدها .

وقد راجت بها طرق ثلاث هى :

(١) الشاذلية :

وتنسب الى الامام أبى الحسن الشاذلى (٥٩٣ هـ / ٦٥٦ هـ) الذى أسسها فى المغرب مع مطالع القرن السابع وتعتبر الشاذلية من أقدم الطرق الثلاث دخولا الى البلاد وأقلها انتشارا فى الوقت نفسه ، فقد انحسرت الأفرع المتشعبة عنها[١] ولم يشع منها فى البيئة الشنقيطية سوى الفرع الناصرى نسبة الى الشيخ محمد بن ناصر وولده أحمد بن محمد بن ناصر ، ونحن لاندرى على وجه التحقيق سببا موضوعيا لانحسار هذه الطريقة فى المنطقة بدلا من أن تستمر فى الانتشار المطرد كما هى الحال بالنسبة للقادرية والتيجانية الا أن يكون اعتداد الناصرية بالممارسة العملية كتعليم عامة الناس ووعظهم فى الأسواق والأماكن العامة وتبيان مبادىء الدين واحكام الشرع وما الى ذلك من أوجه البر دون شعار مميز أو تعصب يقصرها على " الاحباب " هو الذى جعلها تنتشر دونما بريق يسمها أو يميزها فظن الناس بها الانحسار وهى تنتشر .

ولانستطيع تحديد تاريخ معين لدخولها الى البلاد وان كنا نرجح أنها عبرت

---

١) تصل فروع الشاذلية فى المغرب وحده قرابة ثلاثين فرعا من أهمها الزروقية ، الناصرية ، الدرقاوية ، الجزولية ، الدرعية ، الدباغية ، الفرضارية ، الفاسية ، المكناسية الخ / عن على سالم عمار : أبو الحسن الشاذلى عصره ، " تاريخه ، علومه ، وتصوفه ، ط الأولى ١٩٦٢ ج ٢ ص ٢٣ .

مبكرا الى الصحراء الغربية بواسطة تلاميذ الشريف عبدالسلام بن مشيش - جد قبائل الرقيبات - الذين التقوا بأبى الحسن الشاذلى عنده ، الا أن الثابت عند المهتمين بها طريقة وبحثا أن اسنادها يتسلسل داخل البلاد على النحو التالى:

وأخذها اشفغا الخطاط (ت ١١٩٦ هـ) عن سيدى أحمد التواتى (ت ١١٣٨هـ) عن سيدى أحمد بن عبدالقادر عن سيدى محمد بن ناصر الدرعى .

وأخذها " نختارو " بن المصطفى الشمشوى وسيدى محمد بن سيدى عثمان بن اعمر الولى المحجوبى الولاتى (ت ١١٣٢ هـ) وسيدى أحمد التمكلاوى الديمانى وسيدى عبدالله بن سيدى بوبكر التنواجيوى (ت ١١٤٥ هـ) جميعهم عن سيدى أحمد الحبيب السجلماسى .

وأخذها عبدالله الركانى الولاتى عن سيدى محمد بن عبدالرحمن بن أبى زيان عن سيدى مبارك العنبرى الفزوانى عن سيدى محمد بن ناصر الدرعى .

وأخذها الطالب أحمد بن طوير الجنة الحاجى (ت ١٢٦٥ هـ) عن الشيخ أبى عبدالله محمد بن عبدالله التورينى عن ابن عبدالله التورينى عن سيدى أحمد ابن محمد بن ناصر [1] ويتضح من المواطن الاصلية لرجال هذا السند أن الشاذلية جاءت من مناطق المغرب العربى المتفرقة كدرعة وسجلماسة واتوات وأن المناطق الموريتانية المختلفة أخذت بها يستوى فى ذلك الشرق والجنوب والشمال .

(٢) التيجانية :

وهى فرع عن الخلوتية وتنسب الى أبى العباس أحمد بن محمد بن المختار بن سالم التجانى المولود عام ١١٥٠ هـ بعين ماضى بالجزائر، وقد اضطلعت التيجانية تاريخيا بدور فعال فى مناهضة التبشير المسيحى فى أفريقيا الغربية وبث الاسلام بها ، ومايهمنا من أمرها فى هذا المقام يسير للغاية وذلك لحداثتها النسبية فى المنطقة قيد البحث . وتنقسم الى فرعين محليين حافظية نسبة الى الشيخ

---

١) المختار حامد : حياة موريتانيا، كتاب مرقون، الجزء الخاص بالثقافة ص ٨٠ .

محمد الحافظ بن المختار بن حبيب العلوى المولود فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى (ت ١٢٣٦هـ) والذى تتلمذ فى مبدأ أمره على والده ومن بعده على العالم الجليل الاديب حرمة بن عبد الجليل ، ثم سافر برسم الحج عام ١١٩٧هـ واستقر به المقام فى مدينة فاس حيث تتلمذ مباشرة على الشيخ أحمد التيجانى الذى أجازه كمقدم للطريقة التيجانية وكلفه بنشرها جنوب الصحراء وقد فعل " فمولود فال " أحد من صدروا عن الشيخ محمد الحافظ هو الذى أدخل التيجانية الى السينغال وأعطى وردها للحاج عمر تال (١) الذى استمر فى بث تعاليمها واذاعتها حتى انتشرت فى غرب أفريقيا .

وأما الفرع الثانى من التيجانية فى بلاد شنقيط فيعرف بالتيجانية الحموية نسبة الى الشيخ حماه الله بن محمد بن سيدنا عمر بن حماه الله بن الشريف أحمد التشيتى (١٣٠٠هـ - ١٣٦٣ هـ) ويبدو أن الفرق بين الاتجاهيين - فى مبدأه على الأقل - يسير فالفرع الحافظى يقول بتلاوة " جوهرة الكمال "(٢) اثنتى عشرة مرة بينما يقول الفرع الحموى بتلاوتها احدى عشرة مرة عقب كل صلاة لازمة .

القادرية :

وتنسب الى موءسسها فى القرن السادس الهجرى فى بلاد العراق سيدى عبد القادر الجيلانى وتعد أهم الطرق الثلاث من حيث الدور الذى قامت به فى تعميم الاسلام وتوسيع رقعة نشاطه .

ولانستطيع - لانعدام الدليل - أن نقول بأن ليحى الكامل دورا فى ادخالها الى البلاد وان ربطت احدى الروايات بينه وبين موءسسها بصلة قربى وتلمذة والراجح أنها جاءت من الأتوات عن طريق تينبكتو من بلاد السودان على يد الشيخ سيدى محمد بن عبد الكريم المغيلى الجزائرى المتوفى عام ٩١٠ هـ وعنه

---

(١) Trimingham : Islam in West Africa Oxford 1976 p,97,

(٢) ونصها : اللهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية والياقوتة المتحققة الحائطة بمركز الفهوم والمعانى ونور الاكوان المتكونة الأدمى صاحب الحق الربانى البرق الاسطع بمزون الارياح المالئة لكل متعرض من البحور والاوانى ونورك اللامع الذى ملأت به كونك الحائط بأمكنة المكان ، اللهم صل وسلم على على عين الحق التى تتجلى منها عروش الحقائق عين المعارف الاقوم صراطك التام الاسقم اللهم صل وسلم على طلعة الحق بالحق الكنز الأعظم افاضتك منك اليك احاطة النور المطلسم صلى الله عليه وعلى آله صلاة تعرفنا بها اياه .

تلقفتها قبيلة كنته [1] - فرع أهل الطالب مختار خاصة - ومن يوم ان تسلمتها لم تآل جهدا فى نشرها فى جميع بلاد الغرب الأفريقى حتى غدا فرع منها يعرف بالقادرية الكنتية ، فالشيخ سيدى المختار الكنتى (ت ١٢٢٦ هـ) صدر عن الشيخ سيدى على بن النجيب (ت ١١٧٠ هـ) عن الشيخ سيدى الأمين أبى النقاب الرقادى عن أخيه الشيخ سيدى أحمد الخليفة عن عمه سيدى على عن أبيه سيدى أحمد عن أبيه الشيخ سيدى محمد الرقاد عن أبيه الشيخ سيدى أحمد الفيرم عن أبيه سيدى اعمر الشيخ عن سيدى محمد بن عبدالكريم المغيلى الجزائرى [2] وقد صدر عن الشيخ سيدى المختار الكنتى رجال كالشيخ الايجيجبى (ت ١٢٢٠ هـ) وآخرون على شاكلة الشيخ سيديا الكبير (ت ١٢٨٥ هـ) جمعوا الى المشيخة الدينية والعلمية الزعامة السياسية فى زمنهم فازدهرت بهم وعلى أيامهم القادرية أيما ازدهار .

وللقادرية فى موريتانيا فرع آخر راسخ القدم فى الصحراء الغربية والمنطقة الشمالية والجنوبية ومابعد النهر بفضل رجال من طراز الشيخ ماء العينين الفذ (ت ١٣٢٨ هـ) والشيخ سعد أبيه (ت ١٣٣٥ هـ) اللذين ينتميان مباشرة الى الشيخ محمد فاضل الشريف القلقمى (ت ١٢٨٦ هـ) الذى به يعرف الفرع القادرى الثانى المسمى بالفاضلية .

ان أبرز مامين نشاط هذه الطرق حين تعميمها للاسلام والدعوة اليه هو شعبيتها ونعنى بها عظيم اقبال جميع الفئات الاجتماعية على مراكز استقرارها فقد نبت دعاتها وشيوخها ومقدموها فى يسر وطبيعية بين الناس كل الناس فالتفت من حولهم الحلقات وبنوا أينما حلوا زوايا وحضرات للذكر واستظهار القرآن وتعليم الضرورى من علوم الدين وشاركوا الناس آلامهم وآمالهم فجمعوا غالبا الى قدوتهم الدينية زعامة فى أمور الحياة فحملوا عمليا الدين الاسلامى الى آفاق اجتماعية أكثر رحابة .

---

١) راجع عن هذه القبيلة ذات النشاط الفعال فى نشر الاسلام وتعميمه فى أفريقيا
Paul,, Marty: Les Kounta de l'est R.M.M. 1918 -1919 Vol,XXXVII.

٢) المختار حامد : حياة موريتانيا ج الثقافة ص ٨١ .

شهدت منطقة الشمال الافريقى مع مطلع القرن العاشر الهجرى حركة انبعاث اسلامى أذكت جذوته هجمة أوروبا المسيحية وخطرها الداهم بعد استيلاء الملك كاستيى على قرطبة عام ٨٩٨هـ وبعد أن آصبحت حشود البرتغال والاسبان على مشارف الدولة السعدية فى المغرب الأقصى واضحى المغرب الاوسط تحت رحمة الترك .

ومن المعلوم تاريخيا أن الدولة السعدية تمكنت - مرحليا على الأقل - من التصدى الايجابى للاخطار الخارجية والداخلية التى تهددتها حين ألهبت حماس الناس وجمعتهم من حول شعار " الاسلام فى خطر " فتعددت على أيامها الرباطات والزوايا المناضلة والمراكز الثقافية الداعية الى حمل رايات الجهاد ومناضلة الفساد ونصرة الاسلام فى كل بلاد الاسلام وتمكنت فى هذا الاطار وبحنكة بالغة أن تخترق حزام الصحراء وان تتغلغل عبرها حتى تصل الى ربوع بلاد الملثمين من صنهاجة ومابعدها من بلاد السودان ، مرة بفضل دعوتها الى الجهاد والاصلاح والتعبئة النشطة التى قام بها المرشدون والصلاح ومرة حين أنفذت حملة الى قلب السودان الغربى - مرورا بالصحراء - للسيطرة على مناجم الذهب والملح ولاحتكار منافذ التجارة الدولية . ومهما قيل عن هذه الحملة من فشل فى تحقيق أهدافها الاقتصادية والسياسية فان أثرها وأثر نشاط الدولة السعدية عموما على بلاد شنقيط والسودان الغربى من الناحية الثقافية ليس بالاثر الهين ، ويحتاج الى دراسة موضوعية تاريخية تتبعية دقيقة ، تخرج تفصيلا عن مجال بحثنا وان متت اليه بصلة وثيقة .

ان الحركة الدينية التى قامت فى القرن العاشر الهجرى فى الصحراء الغربية وماحولها من بلاد شنقيط على أكتاف الأولياء والصالحين ، كانت فى واقع أمرها من حيث مهادها التاريخى صدى لما يجرى فى بلاد المغرب شمالا وتجاوبا - من حيث سياقها التاريخى - مع واقع المنطقة الخاص ومتطلباته التى أفرزت الدعوات الى الجهاد والاصلاح والتى بلغت مداها ، محليا ، فى حركة ناصر الدين، أشهر هذه الحركات وابعدها أثرا فى تعميم الاسلام ببلاد شنقيط وأرض التكرور ، وماحولها من وراء النهر ودونه ، فماهى حقيقة هذه الحركة ؟ .

انها حركة سياسية تأصيلية سلفية وريثة الاسلام السنى المرابطى الصحراوى ، قامت فى المنطقة الجنوبية الغربية - القبلة - من البلاد ونمت فى احضان حلف قبلى يعرف " بتشمشه " بزعامة أحد أبنائه المؤهلين للزعامة الامام ناصر الدين أوبك .

وقد ظهرت بوادرها بعد هجرة واستقرار القبائل العربية فى القبلة بقرن من الزمن أو يزيد تمكن ابانه بنو حسان من احكام سيطرتهم على البلاد الا قليلا فاثخنوا فيها وعاثوا فسادا .

وقد رمت هذه الحركة الى اقامة سلطة مركزية ثيوقراطية - فى بلاد تشكوا الفوضى المطلقة ، والى السيطرة على الانتاج الرعوى ووسائله واحتكار التجارة بين بلاد السودان والبحر الأبيض المتوسط وبالتالى انتزاع السلطة الزمنية من أيدى بنى حسان الذين استبدوا بها .

وتوسل زعماء الحركة الى أهدافهم بالدين كسلاح أيديولوجى ماض فنادوا بالرجوع الى الاسلام فى منابعه الصافية كما عرفه السلف الصالح وأقامه ، وافلحت دعوتهم فى تأصيل اسلام صنهاجة وتعميقه وتعميمه على مساحة أوسع (١) وكادت تبلغ أهدافها السياسية لولا أن قبائل حسان أدركت تعارض هذه الدعوة مع مصالحها وأحس كشافة الغرب الرابضين على السواحل (٢) بتهديدها لسياساتهم واحتمال أن تنسف الجسور التى استطاعوا اقامتها بشق الأنفس مع زعماء بنى حسان . ولم يلبث الصراع بين الطرفين المتنافسين أن انفجر فيما عرف محليا بحرب " شربة " (٣) التى اندلعت شرارتها الاولى على اثر منع أحد

---

١) يقال ان السنين الثلاث التى جلس فيها ناصر الدين لوعظ الناس سميت بسنين التوبة لفرط ما اقبل عليه الناس وآمنوا بدعوته .

٢) عن تاريخ التواجد الاوروبى على سواحل المنطقة واسباب هذا التواجد وعلاقاته بسكان المنطقة والسياسات التى اتبع راجع :
- C.Vanacker: La Mauritanie Jusqu'au XX^eS in introduction a la Mauritanie pp,59-61.
و
- Alfred G. Gerteiny: Mauritania pall Mall Press n London 1967 pp, 36-45.

٣) لمزيد من المعلومات عن هذه الحرب راجع بحث محمد المختار بن السعد القيم: نظرة تاريخية الى شربه . نواكشوط ١٩٨٠ .

الغارمين اخراج الزكاة وصرفها لجامعها مندوب حركة ناصر الدين الاصلاحية .

وقد انتهت الحرب عقب اندلاعها بعقد من الزمن بهزيمة ناصر الدين وجنده من صنهاجة وغيرهم فى المعركة الشهيرة بـ " تنيفظاظ " حيث الزمت قبائل حسان الغالبة صنهاجة المغلوبة باطراح السلاح نهائيا وعدم حمله مستقبلا وبتخصيص ثلث الماء الممتوح من آبارها وعلى ظهور جمالها وبأيديها للحسانى واستضافته مجانا ثلاثة أيام وتوصيله لأقرب حى من صنهاجة ليوصله الى الذى يليه والى أن يبلغ مأمنه .

ان من أهم ماترتب على هذه الحرب بالاضافة الى آثارها المدمرة اقتصاديا توطيد سلطة بنى حسان نهائيا وتكريسها بقيام الامارات الحسانية ثم وهذا الأهم ، " تخصص الفئات الاجتماعية حيث تفرغ بنو حسان للحرب وفنونها وانكب الزوايا (١) على تعلم العلم والعبادة كنوع من التعويض بالقلم عن السيف "(٢) مما سيؤدى الى مزيد من تعميم الدين والتعمق فيه ابتداء من هذا التاريخ أو قريبا منه .

يرى فرانسيس دى شاسيه Francis de Chassey أن السبب الجوهرى الكامن وراء انتشار الاسلام بين الأوساط الأرستقراطية من صنهاجة الجنوب ، انما يعود بالدرجة الأولى لحاجة الاقتصاد العربى عهدئذ بل والأوروبى الماسة - تحت طائلة الاختناق - الى السيطرة على انتاجية مناجم الذهب فى السودان الغربى، كما يرى أن الفضل فى تثبيت دعائمه يعود لا الى طبيعة الاسلام الايديولوجية ولا الى فروسية البدو المتعصبين الذين حملوا راية الجهاد وانما الى طبيعة التبادل اللامتكافىء مابين التجار العرب والارستقراطيات البربرية والسودانية الوسيطة .(٣)

---

١) " الزوايا " فى اللهجة الحسانية جمع لكلمة " زاوى " وهو القيم على الزاوية بمفهومها العلمى - الدينى كما شاعت فى التراث العربى الاسلامى وبعد حرب شربيه أضحت تدل على الفئة المختصة بالوظيفة الثقافية من بنى صنهاجة الجنوب .

٢) محمد المختار بن السعد : نظرة تاريخية ص ٧١ .

٣) Francis De Chassey : L'etrier, La houe et le livre p.27,

ولاجدال أن جل الانجازات التاريخية التى تمت فى المنطقة جنوب الصحراء أيا كانت صبغتها ، كانت وباستمرار من ناتج تفاعل العلاقات مابين منطقة البحر الأبيض المتوسط وبلاد الزنج الحافة لنطاق الصحراء جنوبا وقد بات هذا الأمر جليا طيلة الفترة التى كانت فيها بلاد البحر الأبيض المتوسط فى أمس الحاجة الى مخزون السودان الغربى من المعادن النفيسة واليد العاملة الرخيصة، غير أن هذا كله لا يتنافى أو يتعارض مع وجود عوامل آخرى مصاحبة سهلت فى مجموعها نشر الرسالة المحمدية فى ربوع بلاد صنهاجة الجنوب . ولعل من أهمها اضافة الى طبيعة الاسلام :

(١) ان التواصل بين جزئى صنهاجة لم ينقطع منذ آن استقر كل منهما فى مداره قبل مجىء الاسلام نظرا للرابطة العصبية بينهما وللمصالح المتبادلة والتى ساعد على تكثيفها تعدد طرق القوافل ودخول الجمل الى المنطقة مبكرا .

(٢) عدم وجود لديانات توحيدية منافسة فلا المسيحية ولا اليهودية استطاعت أن تستقر لها قدم فى المنطقة لافى القديم قبل الاسلام ولابعد أن نشطت الحركات التبشيرية فى ظل الاستعمار ، حديثا .

(٣) ان اقبال أمراء صنهاجة الجنوب ورؤساء مشيخاتها القبلية ومن دار فى فلكهم على الدين الاسلامى دون عسف أو اجبار خارجى قد سهل مهمة الدعوة والدعاة .

(٤) ان البلاد أفادت من مجاورتها لمراكز الاشعاع الحضارى ومن تلك الأركاب الجائبة لأكناف الصحراء حاملة للحجيج تارة وأخرى لرجال شدوا الرحال على مهل فتنقلوا بين حواضر العالم الاسلامى ماتركوا منها زاوية ولا حضرة الا سمعوا بها حديث شيخ أو استنسخوا كتابا أو فازوا باجازة مكنتهم من بلورة ماغم على ذويهم من أمر دينهم .

لقد افترضنا ان مبدأ الاسلام فى المنطقة كان خبرا غائما تناقلته صنهاجة الجنوب بلسان اعجمى ثم صدى خافتا لفتوحات المسلمين وقر مبكرا فى آذانها وقلنا ان صنهاجة لم تلبث ان تبينت على يد التجار المسلمين والدعاة ومن شاكلهم من اهل السياحة الروحية والسير فى مناكب الارض ، صحة النبأ وتابعنا خطوات انتشاره حتى ساد سيادة مطلقة تحدد على اثرها محليا فانطلق جنوبا وشمالا مجاهدا مصلحا وموحدا ومقيما انى حل مؤسساته الثقافية الان مسارات انتشار اللغة العربية ومراحله :

وبدءا تقول بألا اولوية او اسبقية للغة العربية فى بلاد صنهاجة الجنوب قبل الاسلام الذى مهد على مدى تاريخ انتشاره التربة الصنهاجية واستصلحها وضمنها بذورا عربية طيبة استغرقت عملية اخصابها - تعريب المجتمع الصنهاجى حينا من الدهر مذكورا بلغ دون ادت استظهار قرابة عشرة قرون من الزمن.

ان تاريخ انتشار اللغة العربية فى المنطقة يرتد من تلقاء نفسه الى مرحلتين :

أولى تنتهى - دون تحديد صارم - مع نهاية القرن السابع الهجرى ومطلع الثامن اى انها استغرقت قرابة قرون انتشار الاسلام السبعة الاولى وتطابقت معها نطلق عليها مرحلة التعرب على المستوى الرسمى ،وأما الثانية فتبدأ من مطلع القرن الثامن الهجرى - تاريخ وفود قبائل المعقل العربية - وتنتهى بتأسيس الامارات الحسانية بدءا من آخر القرن الحادى عشر الهجرى اى انها استغرقت قرون تعميم الاسلام ونطلق عليها مرحلة التعريف على المستوى الشعبى.

ونبين من الان اننا نهدف من وراء اختيارنا لمصطلحى " التعرب الرسمى والتعريب الشعبى " الى ابراز امرين :

أولهما : ان الفاعلية فى التعرب الرسمى ترتد الى صنهاجة الجنوب ولادخل فيها يذكر لقوة اخرى واما فى التعريب الشعبى فالفاعلية تعود اساسا الى القبائل العربية الوافدة .

وأما الثانيه : فمحدودية الانتشار فى المصطلح الاول وتوسيع مجاله فى المصطلح الثانى حتى يستوعب كافة الطبقات الشعبية عهدئذ .

أولا : التعرب الرسمى :

ونعنى به شيوع اللغة العربية الفصحى - قراءة وكتابة وتخاطبا محدودا بين أوساط الأرستقراطية الصنهاجية أولا ثم امتدادها لاحقا بين أطرافها والدائرين مباشرة فى فلكها ممن يأتون ما أتت ويتركون ماتركت .

وتتبدى أهمية هذه الحقبة فى أن اللغة العربية واجهت فيها بمفردها - دون دعامة بشرية عربية تسندها - زعزعة لغة صنهاجة من مكانتها وهى التى على بساطتها تفى قطعا بحاجات أهلها التعبيرية اذ ذاك ، كما تتبدى فى أن مرحلة التعريب اللاحقة ماكانت لتعطى نتائجها على نحو ماحصل تاريخيا من العمق النسبى لولا هذه الفترة التمهيدية الأولى التى لم تتوقف بدخولنا فى مرحلة التعريب ، بل ظلت مسايرة ومدعمة للهجرة العربية كفاعلية جديدة .

ان من قام على أكتافهم وبمجهودهم نشر اللغة العربية فى هذا الطور من أطوار انتشارها هم نفسهم - بحكم العلاقة الجدلية بين الاسلام والعربية - من قاموا بنشر الدين وقد علمنا من قبل أن التجار المسلمين والدعاة والسائحين الضاربين فى الأرض هربا من آذى يلاحقهم أو بحثا عن رزق قد ربطوا مابين بلاد السودان والمغرب العربى ومر بنا كذلك دور الأرستقراطية الصنهاجية وكيف عملت جاهدة على نشر الاسلام داخل وخارج حدودها كما رأينا كيف أسس حملة العلم الأول مراكز ربت فيها ومن حولها زوايا لتعليم الدين الاسلامى بلسان عربى مبين ، صحيح " ان البلاد لم تنقلب بهم (المعلمين الأول) عن آدابها القديمة ولغتها الأصلية بل هم الذين انسحب عليهم حكم البلاد ولبسوا صبغتها لأنهم لم يدخلوها على وجه عصبية وتغلب بل دخلوها تحت راية أمير من جملة حاشيته ورعيته "[1] ومع ذلك فقد تأسس بفضل هؤلاء للعربية معقل ستتهاوى على أثر توسعه مستقبلا حصون الصنهاجية الواحد تلو الآخر.

---

١) محمد الامام بن الشيخ ماء العينين : الجأش الربيط ص ٢٧ .

ونتمثل موءقتا - ربثما تمحى الصنهاجية امحاء شبه كلى - أطوار العلاقة التاريخية مابينها وبين العربية ابان مرحلة التعرب الرسمى .

ونفضل استعمال مصطلح " العلاقة التاريخية " لتصوير الصلة بين اللغتين بدلا من مصطلح الصراع الذى يراودنا وذلك باعتبار ان الصراع بين اللغتين مرهص منذ البداية غير متكافىء فالعربية لغة فتية مكتوبة لها قدرة ذاتية على الانتشار جاءت الى بلاد صنهاجة فى عنفوان شبابها لغة النبى العربى وحاملة لكتاب الله العزيز .واما الصنهاجية فأمرها غير خفى .

ونقر ، من الآن ، بأننا لانملك نصوصا تاريخية توضح مانحن بصدده ولادراسات سابقة نستعين بها عليه وبالتالى فتمثلنا للعلاقة بين اللغتين سيقوم على أساس من افتراض تأويلى عقلى يوءسس هذه العلاقة بترتيبها على مراحل انتشار الاسلام الأربع الأساسية التى مرت بنا وذلك على النحو التالى : حين كانت بلاد صنهاجة الجنوب تمر بمرحلة التواصل غير المباشر مع الاسلام كانت الصنهاجية لاهية لاتخاف على غدها من اشعاعات تصلها خافتة من العربية التى أخذت تحبو فى اتجاهها قادمة من الشمال سالكة طرق الصحراء الوعرة ومسار بها المختلفة ، محققة على آخر هذه الفترة الوجيزة قدرا يسيرا جدا من الحضور على حساب الصنهاجية التى فقدت بنفس المقدار بعضا من قوتها وان ظلت - على توجسها - مطمئنة على مكانتها .

وحين دخل الاسلام فى صدام مباشر مع صنهاجة الجنوب ، كشفت نتائج الصدام عن العربية غطاءها فاذا عودها صلب مذاقه حلو وجلالها مهيب فأقبلت عليها خاصة الخاصة من أرستقراطية صنهاجة ، فانقبضت لذلك - بمقدار معلوم - الصنهاجية نفسها واستشعرت ريبة أقلقتها حتى اذا بدأت المرحلة الثالثة من نشر الاسلام أو مرحلة التولد الداخلى للدعوة اختل ميزان القوى لصالح اللغة العربية وأصبحت لغة الثقافة والتعليم فزاد الاقبال عليها وتوسعت دائرتها بتوسع نشاط الدراسات الاسلامية والقائمين عليها ولكنها لما تنبت بعد فى الأوساط الشعبية التى احتكرتها الصنهاجية ولاذت بها ، خاصة فى المناطق

البعيدة نسبيا عن مراكز الاشعاع الثقافى .

ان التعرب الرسمى - فى تصورنا - كان أعمق بين لمتونة وأسرع الى اكتساح ديارها فى الشمال والوسط وديار مسوفة فى مدارها الشرقى ، منه الى مرابع جدالة فى الجنوب والجنوب الغربى (١) وذلك على الرغم من أن رباط ابن ياسين - أيا كان موقعه المختلف عليه- يقع فى مجال تجوال جدالة وارضها ، الا أن دوره فى مجال التعرب يسير ، صحيح ان الفترة الثالثة من مرحلة التعرب الرسمى بدأت به الا أن الفاعلية الحقيقية - عربيا - لاتعود اليه وانما الى حملة العلم الأول وما أسسوه من مراكز حضرية والى ماقام فى هذه ومن حولها من نشاط علمى مكن مبكرا للعربية.وتقع هذه المراكز أساسا فى مجال لمتونة (آزوجى ، ودان ، آبير ، شنقيط ، تنيجى) أو بأرض مسوفة فى الشرق (تيشيت ، ولاته ، تمبكتو) يضاف الى ذلك ما للمتونة من أهمية سياسية وعسكرية واقتصادية فضلا عما شاع عنها من اقبال على الدين واستعداد لنشره خارج حدودها ومن تقبل للعربية والعرب . ولايعنى هذا بحال من الأحوال التقليل مما لقبيلة جدالة من أهمية فى السياق التاريخى للمنطقة فهى وفيرة المال وذات بأس وشوكة ولها صولات مع لمتونة ومنافسات على الزعامة ، تجاور الزنج وتسيطر على نهايات الطرق جنوبا وعلى الطريق الساحلى البحرى بأسره غير أن من شأن موقعها الجغرافى المحشور الى الداخل الخالى من المراكز الحضرية القارة ، البعيد عن اشعاع المراكز الثقافية الحافة للبلاد شرقا وشمالا أن يسوغ شيوع العربية بنسبة أقل فى وسطها قياسا على الوسط اللمتونى أو المسوفى وذلك طيلة الفترة الثالثة من مرحلة التعرب الرسمى وماقبلهما كما أن من شأن هذا الموقع أن يسفر لنا موءقتا ظاهرة بقاء جيوب من الصنهاجية القديمة فى منطقة القبلة - مدار جدالة التاريخى - حتى يومنا هذا .

---

١) لانحتاج الى القول بأن مدارات هذه القبائل لم تكن لتمنع اختلاطها فى المجال الواحد بل نوءكد على أن مجال كل قبيلة يتحدد فقط على ضوء كثرة تواجدها فيه ودرجة سيطرتها عليه .

ثانيا : التعريب الشعبى :

ان تغريبة بنى هلال الشهيرة وهجرة قبائل المعقل وبنى سليم وجشم الى أفريقية والمغرب تعود كاجراء سياسى الى منتصف القرن الخامس الهجرى (٤٤٢ هـ) لما اقطع المستنصر الفاطمى هذه القبائل - على يد وزيره الاروزى - المغرب وأغراهم وشجعهم على الاجتياز اليه تفاديا لشغبهم من ناحية وتأديبا من ناحية ثانية للمعز بن باديس عامل القيروان الذى تجرأ على نقض بيعة القاهرة واعتنق المذهب السنى المالكى وهدم صوامع الشيعة الاسماعيلية ثم توشح السواد واعتلى المنابر فخطب باسم الخليفة العباسى القائم بالله أبى جعفر بن القادر .(١)

واجتازت قبائل العرب التى ضاقت بها جزيرتها وفاض بها صعيد مصر واستمر استقرارها فى أفريقية والمغرب قرابة قرن من الزمن توزعت خلاله فى المجالات الحيوية التالية : سارت بنو هلال الى الغرب مابين بونه وقسطنطينية الى البحر واستقرت رياح فى حوض سبوولوكوس واتخذت جشم ديارها مابين سلا ومراكش (٢) وأما بنو سليم فقد " أقاموا ببرقة وجهات طرابلس ثم صاروا الى أفريقية "(٣) بينما حلت المعقل " بقفار المغرب الأقصى مجاورة لبنى عامر من زغبة فى مواطنهم بقبلة تلمسان وتنتهى الى البحر المحيط من جانب الغرب "(٤) ويذكر ابن خلدون أن قبيل المعقل - على وفرته على أيامه - دخل الى بلاد المغرب محدود التعداد لكنه نما بصحارى المغرب الأقصى وعفا " بمن اجتمع اليهم من القبائل من غير نسبهم فان فيهم من فوارة واشجع احياء كبيرة وفيهم الشظة من كرفة والمهاية من عياض والشعراء من حصين والصياح من الأخضر ومن بنى سليم وغيرهم ".(٥)

---

١) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٤٩ م ص٦ - ٥٤٣ .
٢) محمد العربى : الساقية الحمراء ووادى الذهب ج ص١١٠ - ١١١ .
٣) عمر رضا كحالة : معجم القبائل العربية ج ٢ ص٥٤٣ .
٤) ابن خلدون : العبر دار الكتاب اللبنانى ١٩٨١ القسم الأول (٧) من المجلد الرابع ص ١١٨ - ١١٩ .
٥) ابن خلدون : العبر القسم الاول (٧) من المجلد الرابع ص ١٢٠ .

ويقسم المؤرخون والنسابون[١] المعقل الى بطون رئيسية أربعة هى :

(١) ذووعبيد الله نسبة الى عبيد الله بن سحير بن عاقل بن معقل وهم الذين يجاورون بنى عامر مابين تلمسان وتاوريرت الى بلاد درعة و " يستولون على ملوية كلها الى سجلماسة وعلى درعةومايحاذيها من التل مثل تازى وغاسنة ومكناسة وفاس وبلاد تادلا والمقدر ". [٢]

(٢) الثعالب نسبة الى ثعلب بن سحير بن عاقل بن معقل وهم الذين ينزلون ببسيط متيجة من نواحى الجزائر .

(٣) ذوو منصور : نسبة الى منصور بن محمد - الأخ الثانى لسحير - بن عاقل ابن معقل.

ولمنصور من الأخوة جلال وسالم وعثمان ومختار الذى أعقب من الولد شبانة واليه ينسب بطن الشابانات ، وحسان بن مختار بن محمد بن عاقل بن معقل وهو الذى ينسب اليه بطن بنى حسان الذى اليه يرجع الفضل فى تعريب اللسان الشعبى فى بلاد شنقيط .

وتقع ديار ذوو منصور فىنواحى ملوية ويغربون حتى تقارب منازلهم منطقة الصحراء الغربية ، بينما تمتد مساكن بنى حسان - البطن الرابع - فى مبدأ أمرها من " درعة الى البحر المحيط وينزل شيوخها فى بلد نول قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما اليه وينتجعون كلهم فى الرمال الى مواطن الملثمين من جدالة ومسوفة ولمتونة " [٣] ويذكر عمر رضا كحالة ان رياسة بنى حسان كانت فى أولاد أبى الخليل بن عمر بن عفير بن حسن بن موسى بن حامد بن سعيد بن حسان[٤] بن مختار بن محمد بن عاقل بن معقل .

---

١) حول نسبهم والخلاف حوله راجع ابن خلدون : العبر القسم الأول (٧) من المجلد ٤ ص ١٢٠ - ١٢١ . والناصرى : الاستقصاء ج ٢ من ص ١٧٧ - ١٨٠ وعمر رضا كحالة : المعجم ص ١١٢٣ من ج ٣ وكذلك محمد الامام بن الشيخ ماء العينين : الجأش الربيط ص ٢٨ .
٢) ابن خلدون : العبر القسم الأول (٧) من المجلد الرابع ص ١١٩ .
٣) ابن خلدون : العبر القسم الأول (٧) من المجلد الرابع ص ١١٩ .
٤) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ج ١ ص ٢٧١ .

وتبدأ الصلة المباشرة لبطون المعقل بالسوس الأقصى والصحراء الغربية في عهد الدولة الموحدية منذ القرن السادس فقد استعان بهم أبو يوسف يعقوب ابن أبي يعقوب يوسف في حملاته المختلفة التي سيرها الى الجهات التي كانت تخز من وقت لآخر بانتفاضاتها وتمردها شاكلة دولته في أفريقية والاندلس كما كان يستميلهم ليكفوه شر ماقد يلم على حين غرة من الصحراء معقل صنهاجة المرابطية . ولم تسلم له هذه السياسة اذا اضطر الى مجابهة ذوى منصور وذوى حسان الذين اتصل بهم على بن يدر واستقدمهم الى جنوب درعة ليستعين بهم في ثورته .(١)

ولما استتب الأمر نهائيا لبني مرين في القرن السابع الهجري وتوثقت الصلات بينهم وبين بني حسان الذين أمدوهم بسواعد رجالهم المحاربين لمكافحة الاعداء وتأمين الثغور لم تلبث الدولة المرينية ان أوكلت اليهم ادارة الأمن في مواطن استقرارهم جنوبا وبجباية الأعشار لصالح " المخزن " الا أنهم رأوا أن يستأثروا بها لأنفسهم واوغلوا في الصحراء التي ألفوها محدودة السكان لاتصلها الا لماما يد السلطة المركزية التي يرى العالم الجليل سيدى عبدالله بن الحاج ابراهيم الشنقيطي أنها هي التي اجلتهم الى تخوم الصحراء من جراء ماعاثوه من فساد في أرض السوس وبعد معارك ضارية بينها وبينهم .(٢)

وسواء أكان دخولهم الى شمال بلاد صنهاجة الجنوب على اثر جلاء بني مرين لهم قسرا أم كان هربا من السلطة وعزوفا عن الحياة تحت يد المخزن أو لدفع لمطة وجزولة لهم الى الجنوب شيئا فشيئا أو لأن سبل العيش ضاقت بهم بعد أن تضخم عددهم وتجاوزت حاجاتهم طاقة انتاجهم أو أيا كان السبب فان موسم هجرتهم الى أرض صنهاجة الجنوب حان مع بزوغ القرن الثامن الهجري

---

١) محمد العربي : الساقية الحمراء ووادى الذهب ص ١١١ - ١١٢ .
٢) عن محمد الامام بن الشيخ ماء العينين : الجأش الربيط ص ٢٩ - ٣٠ .

فتدفقوا فى موجات بشرية متلاحقة متماسكة التقت - على الأرجح - أول ما التقت بأحياء لمتونة المتناثرة فى المنطقة الشمالية بواحاتها ومراكزها الحضرية ، ولابد أنها أحسنت وفادتهم وتوسمت فيهم وفى مقدمهم خيرا ولابد أن بنى حسان - أولهم على الأقل - دخل الى البلاد فى هدوء مهادن [1] اذ لم تخلف لنا مصادر تاريخ المنطقة ، ولا الرواية الشفاهية - فيما نعلم - ذكرا لصراعات ، أو حروب طويلة المدى أو الاثر بين العنصرين فى هذا التاريخ المبكر .

ونحن ان كنا لانملك فى هذا المستوى من البحث وثائق تصف أو توءرخ لبداية التواصل بين الفريقين ومراحله فان ذلك لن يثنينا عن أن نفترض أشكال الاتصال والتواصل الممكنة عقلا بينهما فكلا الفريقين يعتمد العصبية القبلية نظاما اجتماعيا والبداوة نمطا لحياته يتوسل اليه بالاقتصاد الطبيعى القائم على الرعى وتربية المواشى واستخلاص منتجاتها الأولية من لبن ووبر وجلود ، وتحتاج الماشية لتفى بحاجات ملاكها ويطرد نموها الى مصادر للمياه مضمونة ومرابع ترتع فيها وتسرح ، والمرابع يفضل بعضها بعضا فى المناخ وفى مدى قربها أو بعدها من منازل الحى وفى المساحة ونوع الغطاء النباتى وكثافته وفى مدى خلوه من الأمراض المتوطنة وصلاحيته لنوع الماشية تبعا لفصول السنة ، ويفرق البدوى (الصنهاجى والعربى) جيدا بين مصادر المياه ويفاضل بينها فى معادلات دقيقة تأخذ بعين الاعتبار مدى المخزون المائى وتكلفة متحه ودرجة عذوبته أو ملوحته وموقعها فى حال السلم والحرب . ومن حول الآبار والأضيات تتعدد معاطن الابل ومناهلها ومرابط الخيل والبقر وعلى أطراف المسارح والمراتع تضرب الخيام وتسامت الاحياء بعضها بعضا فيخضع ساكنوها لحاجات مشتركة تضطرهم وطأتها بالضرورة الى الدخول فى علاقات مباشرة وصلات ينشأ على أثرها تبادل للموءثرات المادية والمعنوية ، ومن هذا المنطلق جاز لنا أن نعد معترك الزحام من حول منابع المياه ومادار فى المسارح والمراتع من احتكاك وصدام وتبادل وضيافة واختلاط وربما مصاهرات وحروب ومصالحات وتحالفات مبكرة

---

١) المثل الشعبى الموريتانى يقول ان بنى حسان تدخل فى لين مخاتل وتخرج فى عنف لايلوى على شىء .

حجر الزاوية فى صهر العنصرين بعضهما فى بعض وتعريب لسان صنهاجة الشعبى، ولنا أن نعد كذلك - ولكن بدرجة ربما أقل - ماقام فى المراكز الحضرية وفى الواحات واستراحات القوافل والطرق المسلوكة من صلات دعت المصلحة المتبادلة الى توطيدها وتنميتها عبر وسيط لغوى مشترك ماكان ليكون لاعتبارات موضوعية بحتة غير اللغة العربية .

ونضرب صفحا عن تتبع دقائق الحياة السياسية الاقتصادية والعسكرية لقبائل بنى حسان وتاريخ علاقتها بصنهاجة فذلك من شأن التاريخ البحت ونشير الى أن تعداد هذه القبائل المهاجرة ، الذى لانعلم له رقما محددا ، ظل طيلة القرن الثامن الهجرى فى ازدياد مطرد ترفده هجرات من خلط قبائل العرب المختلفة والاعراب الذين استقر بهم المقام بين ربوع صنهاجة المعدة سلفا لتقبلهم ، فألفوا الأرض سائبة خلوا من أى سلطة مركزية تحد من نشاطهم، أو تقيد طموحاتهم ، وامتلأ منهم صحن الصحراء الغربية ففاض بهم فحملوا ماخف من متاعهم الخفيف وتوغلوا داخل البلاد فى خط سير رئيسى من الشمال الى الجنوب تفرعت منه مسالك جانبية الى الشرق والغرب (١) حتى اذا بلغت رحلتهم منتهاها جنوبا الى أرض القبلة وماحولها وصبت شرقا فى آزواد ، استداروا على أنفسهم فوطدوا أركان مادرس من وجودهم فى تجانت وآدرار .

وقد استغرقت دورة بنى حسان قرنين من الزمن أو يزيد تمكنوا خلالهما على الصعيد السياسى والعسكرى من اخضاع قبائل صنهاجة التى تهيبت - على مايبدو - مقاومتهم وصراعهم بشكل فعال ربما لفقدها الزعامة وربما لتشتت قبائلها وانهاك قواها وتناقص رجالها اثر فتوحات السودان الغربى والاندلس وقتال برابرة التل وربما فتت فى عضدهم عوامل أخرى كحرمة قتال المسلم للمسلم (٢) وحرمة الانسان العربى فى نظرهم خاصة ان من بين بنى حسان من ينمى نفسه لآل جعفر بن أبى طالب .

---

١) الخط التاريخى لهجرة سكان الصحراء الغربية وموريتانيا كان دائما من الشمال الى الجنوب اى من الصحراء المتزايدة الجفاف الى الشريط الممطر ذى الوفرة النسبية فى المياه والغطاء النباتى وان لم يمنعهم ذلك حين الاصطدام بمانع مائى أو اجتماعى من التوجه شرقا وغربا فى تفريعات رئيسية فى الشرق، ثانوية فى الغرب من حيث التعداد والاهمية .

٢) يقال ان صنهاجة الجنوب خسرت حربها مع بنى حسان الشهيرة بشربه من جراء نقاشاتها لتحديد ما اذا كانت حسان مسلمة ،عاصية أم كافرة .

ولم تآل القبائل الحسانية جهدا ولم ترع الا ولاذمة أو أخوة فى الدين ولم تدخر سبيلا يضمن تفوقها ويكرس سلطتها أو تحتكر بموجبه الثروة ووسائل الانتاج، فأشعلتها عوانا لاهوادة فيها على بنى صنهاجة والزمت الناس المغارم(١). والخوف والذل فدانت لها الرقاب طوعا وكرها وان لم تخلص لها النوايا لكن الثابت هذه المرة أن البلاد انقلبت ببنى حسان من حال الى حال لأنهم " دخلوها على كيفية عصبية وتغلب يرحلون ويقيمون بأحيائهم وظعنهم متحافظين على زيهم وعوائدهم ولغتهم "(٢) أى الحسانية التى استمرت فى دحر الصنهاجية التى أخذت تضمحل على آخر القرن التاسع اضمحلالا جعل المجتمع الصنهاجى يعيش ابتداء من القرن العاشر أول ازدواجية فى تاريخه لامتكافئة، فلما انقضى القرن الحادى عشر حلت العربية محل الصنهاجية باعتبارها هذه المرة لغة مشتركة للتخاطب كما كانت الفصحى لغة الثقافة والتعليم فى مرحلة التعرب الرسمى .

ولايعنى امحاء الصنهاجية وحلول الحسانية مكانها لغة مشتركة للتخاطب أن الأولى قد تلاشت تماما دون أن تترك أثرا بل الأسلم أن نقول انها انحصرت تماما فى وسط النساء أكثر من غيره وفى جيوب صغيرة أو جزر لاتزال قائمة حتى يومنا هذا .

وقد تركت الصنهاجية بصماتها واضحة على الحسانية فأسماء الأماكن والآبار والنباتات واسماء بعض القبائل والاعلام فضلا عن بعض الصيغ التعبيرية أغلبها صنهاجى أصلا ومبنى والى اليوم ، ولعل هذا البقاء الصورى للصنهاجية يرتد فى أصله - فى رأينا - الى التفاوت فى مدى عمق انتشار اللغة العربية من منطقة الى أخرى تبعا لطبيعتها الديمغرافية والتيبوقرافية ولمدى فاعلية النشاط الاسلامى والتعرب الرسمى المصاحب له ، ولانريد أن ندخل فى مقارنات

---

١) تعددت الضرائب التى الزمت بها حسان مختلف فئات المجتمع الموريتانى ومنها على سبيل المثال " الحرمة " وتوءخذ على الغارم الدائر فى فلك الامير الحسانى ، " الغفر " ويدفعه الصنهاجى الزاوى مقابل حمايته ضد تعديات طرف حسانى آخر " المعونة " أو " الزعامة " ضريبة لاوقت لها ولاحد وتكون فى حال الحرب أو الضائقة ، " أباخ " ضريبة خاصة بمنطقة شمامه الزراعية وتوءخذ على الفلاح المزارع من محصول زرعه " وجه الملح" وتوءخذ مقابل استغلال الملح الخ .

٢) محمد الامام بن الشيخ ماء العينين : الجأش الربيط ص ٢٧ .

ومفاضلات بين المناطق اللغوية للبلاد لاتسندها دراسة ميدانية أو وصفية تتبعية الا أننا نعيد الى الاذهان اننا المحنا فيما مضى من صفحات الى أن الاسلام والتعرب والتعريب كانوا اسبق الى ديار لمتونة والى قلوبهم والسنتهم منهم الى منازل وعقول مسوفة وجدالة ونقول الآن ان منازل جدالة القديمة - القبلة اليوم ومادار فى فلكها - ورثت أكثر من غيرها العربية الفصحى وماترسب فى قاع الأرض من رواسب الصنهاجية .

ان أهم العوامل التى ساعدت على نشر اللغة العربية وفى الاسراع باحلالها محل الصنهاجية مايلى :

العامل اللغوى الذاتى :

ان من شأن التشابه بين الصنهاجية والعربية المتمثل فى بعض المظاهر الصوتية واللفظية ان يمكن فى يسر للعربية ، خاصة أن الصنهاجية لغة شفاهية عتيقة تنازعتها لهجات قبلية وبيئات مختلفة وينحصر استعمالها فى بعدها التواصلى وربما فى آدابها الشعبية بينما العربية لغة فتية مكتوبة تجر خلفها آدابها الرفيعة والشعبية وقد أثبتت قدرتها الذاتية على الانتشار فى بيئات غير بيئتها الأصلية قبل أن تصل الى بلاد صنهاجة القفر .

العامل الحضارى :

ونعنى به أن الأساس الحضارى الذى يسند اللغة_أية لغة_من شأنه أن يكون حاسما اذا ما التقت لغتان وكانت احداهما ذات ثراء وتراث حضارى مدنى متفوق على مخزون الثانية . ولانحتاج الى عقد مقارنات للتدليل على أن الصنهاجية أقل تجربة واحتكاكا بالعالم الخارجى وافقر واقعا من العربية ذات التراث الراسخ الجذور والتى تمثلت العالم القديم ومافتح على يدها من البلاد قبل أن تنشر ملاءتها على ربوع بلاد شنقيط .

العامل الاقتصادى - السياسى :

لما تغلبت قبائل العرب على بلاد صنهاجة الرمال واعادت توزيع الثروة

الطبيعية بحد السيف تحت طائلة السلب والغرامة واستخلصت لنفسها السلطتين السياسية والعسكرية من يد صنهاجة ، أصبح تعلم العربية واتقانها سلما للتمايز يرتقى والاقبال عليها يجلب خيربنى حسان أو يدرأ شرهم موءقتا فمن تعلم لغة قوم أمن بأسهم ، والمغلوب دوما مولع بتقليد واحتذاء الغالب .

العامل الدينى :

من المعلوم اليوم بداهة والمدرك استقراء أن العربية تنتشر حيثما انتشر الاسلام يساعدها فى ذلك - علاوة على أن الاسلام دين توحيد جاء بكتاب نزل بلسان عربى مبين على قلب رجل عربى - عدم جواز القراءة بغير القرآن حين أداء الصلاة فضلا عن كراهية ترجمته أو كتابته بغير العربية ثم ان العربية بعد هذا لغة أهل الجنة ولغة الملائكة وسوءال القبر بها يتم لا بالصنهاجية .

العامل الديمغرافى :

ان فى تأييد اللغة العربية بالعنصر البشرى العربى الذى قدم الى البلاد على فترتين أولى محدودة جدا وثانية فى شكل هجرات متوالية وفى اعداد كبيرة مايشد من أزرها ومابه ينقلب ميزان القوى البشرى فى المنطقة لصالحها ويعصف بالصنهاجية ويفت فى عضدها .

ولا تشير المصادر التاريخية ولا المراجع التى استطعنا الاطلاع عليها الى نسب عددية لبنى حسان حين هاجرت أو للسكان الأصليين يومئذ ، نستطيع من خلالها أن نتبين تحديدا أو تقريبا مدى الفاعلية - فى التعريب الشعبى - المنوطة بعنصر التعداد الكمى للعرب المهاجرة ، ولانريد أن ننزلق فنستخلص من الاحصاءات الراهنة (١) نسبا تقريبية لتعداد القبائل العربية حين قدمت الى المنطقة .

---

١) تبعا لاحصاء SEDES لعام ٦٥/٦٤ فان " الزوايا " أى قبائل صنهاجة المسلمة تصل الى ٣٦ ٪ بينما تصل نسبة حسان الى ١٥ ٪ من مجموع تعداد السكان .

العامل الجغرافي :

واعتدادنا به كعامل فعال فى نشر اللغة العربية قائم على اعتبارين أحدهما موقع المنطقة كقنطرة تربط فى توسط وقابلية للاستقرار بين قطبين تبادلا طيلة التاريخ المصالح والموءثرات الحضارية وثانيهما طبيعة الأرض ، فالبلاد فى مجملها أرض سهلية تخلو من النتوءات الجبلية الا فيما ندر وخلا تاريخيا من السكان اذا ما استثنينا سلسلة جبال آدرار وتكانت الآهلة وغير المنيعة .

العامل الاجتماعى :

لقد ترتب على وحدة العقيدة والنمط المعيشى والنظام القبلى لدى العرب الوافدين والسكان الاصليين يسر فى التمازج بينهما والانصهار اللذين من شأنهما أن يتيحا السيادة فى الأوساط العامة للغة العربية .

هذه باختصار هى العوامل المساعدة التى بموجبها طفت العامية الحسانية على لغة صنهاجة الجنوب واحتلت مكانتها فأسدت للعربية الفصحى خدمات جليلة أدناها انها طوعت السنة الناس على نطق مايستعصى على الاعجمى عادة من أصوات [1] ،وحملت معها مفاهيم وقيم وعادات سلوكية جديدة .

وثمة ظاهرة بارزة تستحق منا أن نقف حيالها لما لها من أهمية فى مضمار الثقافة الموريتانية وتتمثل فيما صاحب سيطرة بنى حسان على البلاد ومابرز عقب تعريب لسان صنهاجة وهزيمتها التاريخية فى حرب شريبه ، من مثاقفة استعلائية دفاعية قام بها المغلوب - صنهاجة - تجاه الغالب - بنى حسان - وارتكزت على أساسين أحدهما تجذير التيار الدينى السنى الصارم والانغماس فيه احتماء به من تسلط بنى حسان - فالناس اما تحت حماية ركاب ، أو فى ظل كتاب -[2] وربما على مدى أطول اخضاع الغالب لسلاح الدين

---

١) يقول محمد سعيد اليدالى " ان الحسانية هى القنطرة لأهل هذا العهد الى العربية " كتاب الجيم مخطوط ص ١ .

٢) مثل موريتانى نرجح أنه وليد هذه الفترة أو قريب منها ونصه : " الناس الا تحت اركاب ول تحت اكتاب " .

كأيديولوجية بغرض استرداد بعض من هيبة - لئلا أقول سلطة - أهدرت بالقوة واستحال ارجاعها بقوة مثيلة .

وأما ثانيهما فتعريب كل مايمت بصلة ومن شأنه أن يذكر صنهاجة بصنهاجة وعهدها البائد القريب . ومن هنا لانعجب ان علمنا أن جميع شجرات انساب قبائل المنطقة تعود فى أصولها اما الى النبى العربى صلى الله عليه وسلم بطريق من الطرق أو الى أحد صحابته أو تابعيهم واما - وهذا فى أدنى حالاتها - الى العرب اليمانية مرورا بجميع فروع الشمالية من أقام منها فى موطنه الأصلى لم يبرحه ومن هاجر منه أو ناصر لافرق ! " مارأينا منهم من يقر على نفسه بأن أصله من سكان تلك البلاد "[1] فجميع سكان الاقليم الشرقى على سبيل المثال لا الحصر موزعون فى انسابهم " مابين شريف وادريسى وحسانى هاشمى وقرشى وانصارى ولمتونى حميرى "[2] .

وقد ترتب على رغبتهم المستميتة فى الانتماء بأى صورة الى العرب ، ان انتخبوا من التراث مايستجيب لنزعتهم ويروى غلتهم كعلوم النسب وسيرة العرب وايامها الأولى واشعارها وقد صحب هذا الانتخاب انغماس منقطع النظير واقبال على العربية وعلومها اذ وجدوا ان أنجع سبيل لأن تكون عربيا أن تجيد اللسان وتبز أهله[3] .

وتنامى مع الزمن سلطان الزوايا الذين اهتبلوا على حين غفلة من الزمن مقتلا من حسان لما لاحظوا أن سابقتهم فى الاسلام ضعيفة وان حرابتهم تطغى على توجههم الدينى وطموحاتهم السياسية على اهتماماتهم الثقافية العلمية ،

---

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط طبعة الخانجى ص ٤٦٢ / ٦١

٢) سيدى عبدالله بن الحاج ابراهيم : رسالة بعنوان الروض فى انساب أهل الحوض - مخطوط ص ٤ .

٣) يقول ابن عينينا :

انا بنو حسن دلت فصاحتنا ... أنا الى العرب الاقحاح ننتسب
ان لم تقم بينات اننا عرب ... ففى اللسان بيان اننا عرب

ويقول محمد بن السالم :

مصداق انى كريم العيص منتسب ... الى قريش بيوت العز والجدل
نظمى القريض واحكامى قوافيه ... ولا اميز بين العطف والبدل

فعملوا جاهدين على تجهيلهم وتغييب وعيهم حتى اذا ما استدار الزمان كهيئته غدت قبائل بنى حسان أسيرة لفاعلية العلم والدين المحتكرين من " صنهاجة العربية" فعرفنا من حسان من بات يبحث عن الخلاص على يد شيخ من صنهاجة تولاه واشترط عليه حسن السيرة والسلوك .(١)

وحذار من أن نفهم أن فئة بنى حسان فقدت مكانتها الاجتماعية بموجب المثاقفة الدفاعية فكل مانعنيه هو أن صنهاجة المهزومة قد انتزعت لنفسها موقعا تحت الشمس فردت اعتبارها أو بعضا منه ووطدت مركزها الاجتماعى فاضحت هى الفئة القيمة على الدين والثقافة فاستطاعت بعد فترة اجترار طويلة فى اطار من خصوصية واقعها وتطوره أن تصوغ نمطها الفكرى والثقافى ضمن اطار الثقافة الاسلامية العربية .

(IV)

ان تصنيف الثقافة الموريتانية يستقيم لنا بتقسيمها الى أربع مراحل أساسية هى على التوالى مرحلة الاستيعاب ، مرحلة الكمون الايجابى ومرحلة النهوض ثم مرحلة الجمود .

ونتناول فيما يلى المرحلة الأولى والثانية اذ تخرج المرحلتان الاخيرتان عن حدود موضوعنا زمنيا .

أولا : مرحلة الاستيعاب :

وتنتهى بانقضاء القرن الثامن الهجرى أى أنها تستغرق اسلاميا فترات انتشار الاسلام الثلاث الاولى وتوافق عربيا مرحلة التعرب الرسمى .

ونعنى بها استيعاب أرستقراطية صنهاجة وحاشيتها المباشرة تدريجيا لتعاليم الاسلام وعلومه الضرورية وهضم الأساسى من مفاهيمه وقيمه .

---

١) يطلق على من تاب من بنى حسان وتخلق بأخلاق الزوايا ونبذ وراء ظهره سيرته الأولى مصطلح " التياب ".

ويميز هذه المرحلة من جهة مضامينها كونها دينية محضة لاتشوبها شائبة اللهم الا شائبة المعتقدات الوثنية المتخلفة عن المجوسية الاولى .

ويدمغها من منظور آخر طابع التلقى والاستقبال الاحادى الجانب الذى لاعطاء فيه من ناحية المجتمع الصنهاجى الجنوبى اللهم الا حمله مبكرا لما وعى مما وصله - فى اطار فتوحاته الجنوبية - الى آفاق اخرى .

ان استيعاب صنهاجة الجنوب لثقافة الاسلام أمر لم يتأت - فى ظل ظروفة التاريخية - بين عشية وضحاها .

ونحن نفترض انه تم على فترات ثلاث تتقابل كل منها مع مرحلة عن مراحل انتشار الاسلام الثلاث الاولى وتترتب عليها : ففى مرحلة التواصل غير المباشر مع الاسلام كانت قيادات فردية من بين الارستقراطية الصنهاجية تمر بفترة التهجى المحدودة الاثر علميا وثقافيا لضعف الاشعاع الاسلامى الواصل الى أرض القوم من ناحية ولتمكن الوثنية والمجوسية فى الوسط الصنهاجى النافر بطبيعة حياته وبيئته من فعل المؤثرات الخارجية .

وفى مرحلة الصدام المباشر مع الاسلام برزت فترة ثانية وسيطة متقدمة على التهجى اشبه ماتكون بالتعرف العام على المنهاج الاولى الضرورى للمسلم .

ونختم على آخر مرحلة التولد الداخلى للدعوة ذات الطول والخصوبية النسبية الفترة الثالثة من هضم واستيعاب النخبة الصنهاجية للثقافة الاسلامية ، وهى الفترة التى شهدت استقرار المذهب المالكى .

وفد المذهب المالكى الى القيروان ولم تثبت له بها قدم حتى قيض الله له أسد بن الفرات الذى سمع من ابى القاسم امام المالكية بالديار المصرية وصاحب " الاسدية " وعبد السلام بن سعيد التنوخى المشهور بسحنون وبالمدونة ذات الاثر البالغ فى تدعيم المذهب المالكى فى سائر بلاد المغرب والاندلس

الذى ظهرت به المالكية أول ماظهرت على يد الفقيه زياد بن عبدالرحمن المعروف بشبطون وقرعوس بن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بن هند على عهد هشام بن عبدالرحمن الداخل .(١)

وقد تأرجح المغرب الأقصى قبل الأخذ بالمذهب المالكى بين مذاهب أبى حنيفة والشافعى والاوزاعى وبعض الاتجاهات الخارجية والرافضية ، وقد تم الأخذ به نهائيا على عهد الدولة الادريسية من يوم أن أسند المولى ادريس الأكبر منصب القضاء لمحمد بن سعيد القيسى تلميذ الامام مالك وسفيان الثورى.(٢)

وتعود صلة البلاد الفعلية بهذا المذهب الى مرحلة الاستيعاب هذه وفى القرن الخامس الهجرى تحديدا لما وفد اليها عبدالله بن يس تلميذ وجاج بن زلو اللمطى الذى تخرج بدوره فى مدرسة أبى عمران الفاسى الذى أخذه عن أبى زيد القيروانى .

ومن المعلوم أن الدولة المرابطية أخذت منذ تأسيسها فى الصحراء بالاسلام السنى الصارم ودانت بالمالكية ووطدت أركانها وعممتها فى جميع أنحاء البلاد التى حلت بها حتى تحول دفاعها عنها الى حرب شعواء على ماسواها من المذاهب أو الطرق والاتجاهات ، قال المراكشى " لم يكن يقرب من أمير المؤمنين (على بن يوسف بن تاشفين) ويحظى عنده الا من علم علم الفروع أعنى فروع مذهب مالك فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ماسواها وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى به كل الاعتناء . ودان أهل ذلك الزمان بتكفير من ظهر منه الخوض فى شئ من علوم الكلام وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه منه شئ وانه بدعة فى الدين وربما أدى أكثره الى اختلال

---

١) الناصرى : الاستقصاء ج ٢ ص ١٢٤-١٢٥ .
٢) ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ص ٢٤٩ .

فى العقائد واشباه لهذه الاقوال حتى استحكم فى نفسه بغض علم الكلام واهله فكان يكتب عنه فى كل وقت الى البلاد فى التشديد فى نبذ الخوض فى شئ منه وتوعد من وجد عنده شئ من كتبه ".(١) ولابد أن هذه النزعة المرابطية المتعقبة لعلم الكلام والفلسفة الذائدة فى عنف عن حوض المالكية والملاحقة لغيرها من المذاهب كانت ذات أثر بالغ وفعال فى ترسيخ المذهب المالكى فى بلاد شنقيط الموطن الأصلى الذى شهد ظهور وانطلاق حركة المرابطين .

وقد كان الامام الحضرمى المرادى مالكى المذهب كما كان الشريف عبدالموءمن موءسس مدينة تشيت والحاج عثمان أحد موءسسى مدينة ودان - بموجب الرواية المتواترة - تلميذين لأبى الفضل القاضى عياض اليحصبى الذى يقول فى تفضيله لمذهب الامام مالك وفى سر الاقبال عليه " لم نر مذهبا من المذاهب غيره أسلم منه فان فيها الجهمية والرافضة والخوارج والمرجئة والشيعة الا مذهب مالك رحمه الله تعالى فانا ماسمعنا أن أحدا ممن تقلد مذهبه قال بشئ من هذه البدع فالاستمساك به نجاة ان شاء الله ".(٢)

ولئن كان المذهب المالكى فى صفائه وبساطته واعتماده على المسائل وتشدده فى أمور الدين والاحتياط لها بسد الذرائع هو أنسب المذاهب وأكثرها ملاءمة لظروف الصحراوى فان ثمة اعتبارا آخر ينير سر أخذ أهل شنقيط به ويكمن فى أن وحدة الثقافة بين بلاد المغرب - القطب الموجب - وبلادهم لم تعطهم متسعا للمفاضلة أو فرصة الاختيار بينه وبين غيره من المذاهب .

وقد عضد دخول مختصر الشيخ خليل الى البلاد (٣) انتشار المذهب المالكى وتعميمه النهائى ، فقد نال من الحظوة والعناية عند أهل المغرب عموما واهل الصحراء خصوصا حدا جعل أحمد بابا التنبكتى يقول " ان الله وضع عليه القبول من زمن صاحبه الى الآن فعكف الناس عليه شرقا وغربا حتى لقد آل المجال

---

١) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب تحقيق الاستاذ محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى القاهرة ١٩٤٩ ص ١٧٢-١٧٣ .

٢) القاضى عياض : المدارك ج ١ ص ٢٢ نقلا عن عبدالعزيز بن عبدالله :الموسوعة المغربية ص ١٩٠ .

٣) O.Bah, Moctar : La Litterature Juridique et l'evolution du Malekisme en Mauritanie Tunis 1981 pp,34-37,

فى هذه الأزمنة الى الاقتصار عليه ".[١] ومن قبل المختصر سادت مدونة سحنـــون ورسالة ابن أبى زيد القيروانى سيادة جعلت أحد أنصار الرسالة يقول لما عـــدل الناس عنها كلية الى خليل فى القرن التاسع الهجرى :[٢]

علامة الجهل بهذا الجيـــــل ترك الرسالة الى خليـــــل

ويبدو أن التحول التدريجى عن دراسة الأصول والأخذ بالفروع بدأ يأخذ مجراه على آخر عهد الدولة المرابطية اذ لم يكن يحظى أو يقرب من أمير المسلمين علـــى ابن يوسف بن تاشفين الا " من علم علم الفروع أعنى فروع مذهب مالك "[٣] ومع ذلك فقد استمر التعايش بين الأصول والفروع طيلة القرنين السابع والثامن الهجريين حتى اذا ما انتصف القرن التاسع الهجرى كانت السيادة المطلقة لدراســـــة الفروع يوءكد ذلك قول محمد بن محمد بن على اللمتونى جين استطلاعه عام ٨٩٨ هـ رأى الامام السيوطى فى أناس من بلاده من عادة فقهائهم " ترك القرآن والسنـــة وأخذ الرسالة والمدونة الصغرى وابن الجلاب والطليطلى وابن الحاجب حتـــى عادوا من يفسر القرآن الكريم ويقولون قال أبوبكر الصديق: ان كذبت علـــى ربى أى أرض تحملنى،واذا سمعوا آية تتلى لتفسير نفروا عنها نفرة الحمـــر الوحشية ".[٤]

ان من الراجح الذى لايناقضه نقل معروف لنا أن تعاليم الاسلام مع مطالـــع هذه المرحلة فى منطقة صنهاجة الجنوب قامت من الناحية النظرية على استظهـــار كتاب الله بقراءة نافع بن أبى رويم ثم تفسيره تفسيرا ظاهريا متناهـــــى البساطة يخلو من التعقيد خلو عقائدهم وقتئذ من تأويل يشوبها أو علم كـــلام أو غموض من فكر أو فلسفة ،يضاف الى ذلك شغف بحديث رسول الله صلى اللـــه

---

١) أحمد بابا التنبكتى : نيل الابتهاج بتطريز الديباج المطبعة الفاسية عام ١٣٢٠ هـ ص ٩٧ .

٢) O,Bah, Moctar : L'evolution du Malekisme p,38.

٣) المراكشى : المعجب ص ١٧٢ .

٤) السيوطى : الحاوى للفتاوى ص ٢٨٧-٢٨٨ .

عليه وسلم وبسيرته وشمائله وأما من الناحية العملية فقد قامت على تعليم الناس أداء فرائضهم ووعظهم ترغيبا وترهيبا وتنقية معتقداتهم من الشوائب الوثنية المجوسية ومقاومة البدع والنحل الفاسدة التى كانت تظهر من وقت لآخر بين قبائل البربر .

ومن هنا فقد نرى أن العلوم التى نالت عناية خاصة من أهل المنطقة طيلة مرحلة الاستيعاب هى العلوم الشرعية بدءا بالقرآن تجويدا وتفسيرا والحديث والسيرة ثم الفقه وقدر يسير من العقائد ومن علوم اللغة العربية الضرورية لفهم علوم الشرع البحتة.

ولاتخرج الكتب التى اعتمدت عليها هذه العلوم فى مجملها عن المناهج المتداولة اذ ذاك فى المراكز العلمية فى المغرب ونضرب لها مثلا فنبدوءها بالقرآن الكريم وتفسير الطبرى المشتهر عند المغاربة جميعا وموطأ الامام مالك وشرحيه لابن عبدالبر النمرى (الاستذكار والتمهيد) وكتب الصحاح ومدونة سحنون ورسالة ابن أبى زيد القيروانى ونوادره وتآليف القاضى عياض خاصة كتاب الاعلام بحدود قواعد الاسلام والمعلم فى شرح مسلم والشفا فى التعريف بحقوق المصطفى وكتاب الألماع فى ضبط الرواية وتقييد السماع وفرعى ابن الحاجب وكتب أبى الوليد الباجى سليمان بن خلف التميمى خاصة شرح الموطأ والمنتقى والاشارة فى أصول الفقه وكتاب الحدود وكتاب سنن الصالحين ، والتوضيح والمختصر لخليل والمعيار للونشريشى وتحفة الحكام لابن عاصم وجمع الجوامع للسبكى وشمائل الترمذى والاكتفاء فى مغازى المصطفى والثلاثة الخلفاء لأبى ربيع الكلاعى وغيرها .

ثانيا:مرحلة الكمون الايجابى :

وتمتد من القرن التاسع الهجرى وحتى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى مواكبة - اسلاميا - لمرحلة تعميم الاسلام وعربيا لمرحلة التعريب الشعبى ونعنى بها أن الارستقراطية والفئات الاجتماعية الرديفة لها التى اعتنت واقبلت فى شغف على تعاليم الاسلام وعلومه أصبحت ابتداءمن القرن العاشرالهجرى

قادرة على ان تستخلص لباب ماتقرأو تتمثله بل وتعيد تمثله ثم تصوغه تلخيصا او مختصرا ، تعليقا او حاشية او نظما قد لايخلو من وهن وركاكة فى الاساليب اللغوية بيد ان الرغبة فى الفعل او الممارسة العلمية والعملية اضحت حية الكمون ايجابيته فبدت بوادر انتاجية محدودة مع نهاية المرحلة ولكنها نامية فى اطراد .

وتشترك هذه المرحلة مع السابقة فى استمرار الطابع الدينى الذى لن ينقض اثره فى الثقافة الموريتانية وتختلف عنها فى خصائص تميزها منها :

(١) ان مناهج العلوم الشرعية التى نالت العناية المطلقة فى مرحلة الاستيعاب تعمقت نتيجة لتطور الصلات بين المنطقة وبين مراكز الثقافة فى العالم الاسلامى ولنشاط الحركة التبادلية التجارية بالاضافة الى نشاط الرحلات المتجهة الى الحج والتى لم تلبث ان تحولت الى رحلات استكشافية علمية يفيد منها المجتمع الشنقيطى حين يعود الرحالة ويجلسون للاقراء ويخرجون خزائن كتبهم ومدوناتهم ويحدثون بما وعوا . ومن بين هؤلاء الذين حجوا او قاموا برحلة علمية على سبيل المثال لا الحصر العالم الجليل العاقب بن عبد الله المسوفى (٩ هـ / ١٠ هـ) الذى اخذ فى طريقه عن محمد بن عبد الكريم المغيلى وعن الامام السيوطى والعالم عبد العزيز الذى ارتحل الى الشرق فى أواسط المائة التاسعة للهجرة ويقال انه عزى لاهل مصر جميع مسائل مختصر خليل لاصولها الا نحو ثلاثة "[١] ومنهم كذلك محمد الشنقيطى (٩١٢ هـ - ٩٩١ هـ) الذى اخذ عن الشيخ زروق وعن الشيخ الخروبى وعنه اخذ الشيخ القصار وغيره[٢] وقد كان دور عائلة احمد بابا التنبكتى المسوفى الصنهاجى الجنوبى فعالا فى هذا التواصل العلمى عبر الحج والرحلة العلمية افادت منه المنطقة بأسرها ايما استفادة فقد حج منها الفقيه محمد بن محمود بن ابى بكر واخوه احمد ولقيا بمصر الناصر اللقانى والتاجورى ، والزين البحيرى والشريف يوسف والبرهمتوشى الحنفى او الشيخ الامام ولى الله محمد البكرى وغيرهم كما حج أحمد بن أحمد بن

---

١) أحمد بابا التنبكتى : نيل الابتهاج ص ١٦١ .

٢) محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية ، القاهرة ١٣٤٩ هـ ، ص ٢٨٦ .

عمر بن محمد أقيت والد أحمد بابا عام ٩٥٦هـ ولقى الناصر اللقانى والشريف يوسف الاميوثى تلميذ السيوطى وجمال الدين بن الشيخ زكريا والتاجورى والأجهورى كما لقى بمكة أمين الدين الميمونى وابن حجر المكى وبركات الحطاب وعبد العزيز اللمطى وعبد المعطى السخاوى وعبد القادر الفاكهانى وغيرهم وأجازه بعضهم (١) وكما ارتحل أيضا فى القرن العاشر الهجرى الى أرض الحجاز أبوبكر بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت ومحمود بن عمر بن محمد أقيت عام ٩١٥هـ ولقى ابراهيم المقدسى والشيخ زكريا والقلقشندى واللقانيين. (٢)

وفى نفس الوقت لم تنقطع هجرة علماء مراكز العالم الاسلامى الى المنطقة وربما زادت أكثر من ذى قبل فقد جاء ابان هذه المرحلة علماء كالعالم على بن أحمد بن محمد عبد الله الانصارى الاندلسى ثم المصرى الذى رحل الى بلاد التكرور واقرأ فيها القرآن ثم قدم القاهرة وأخذ عنه جمال الاسنوى(٣) والعالم سيدى أبى القاسم التواتى (ت ٩٣٢هـ) وعبد الله بن أحمد بن سعيد بن يحيى بن معاوية الزمورى الحافظ المؤرخ الأديب شارح كتاب الشفاء الذى استقر بولاته وكان حيا عام ٨٨٨هـ ومحمد بن بطوطة وعبد الله البلبالى (ق ٩ هـ) وسيدى يحيى التادلى (ت ٨٦٦ هـ) الذى استقر بتنبكتو ومنها عم صيته والشريف محمد بن فاضل وغيرهم .

ومنها بروز علوم الالة المساعدة على اتقان علوم الدين من نحو وبلاغه ولغة وعروض وانساب وادب وتاريخ وظهور علوم المتمات لاول مرة كالمنطق والحساب والفلك والكيمياء والطبيعيات وخواص العقاقير والاوقاف والطلاسم واسرار الحروف والسحر وأنواع النفث الى غير ذلك من علوم جدت على الساحة واقبل عليها الناس لالذاتها وانما من باب الاستعانة بها على معرفة امور دينهم غير انها فى نهاية المطاف نفذت الى ثقافتهم وفعلت فيها فعلها العميق .

ويميز هذه المرحلة اخيرا كنتيجة لما سبق شمولية التعليم من حيث رقعة انتشاره وطابع التنوع من حيث المناهج المدرسية ، فقد عرفت حلقات الدراسة كتبامختلفة

---

١) احمد بابا التنبكتى : نيل الابتهاج ص ٧٩ .
٢) نفس المصدر السابق ص ٧ - ٣٧٦
٣) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور فى معرفة اعيان علماء التكرور ص ١٩٦ .

فى المجـــالات الآتيـــة :

أولا: فى مجال علوم الدين :

دلائل الخيرات لسليمان الجزولى ولامية الزقاق ومنهجه " المنتخب فـــى قواعد المذهب " والدرر اللوامع فى قراءة نافع لابن برى والطرفة فى مصطلـــح الحديث لمحمد العربى الفاسى وشرحها لابنه أبى زيد واضاءة الدجنة فى عقائـــد أهل السنة لاحمد المقرى وشروح الشيخ زروق الفاسى على حكم ابن عطاء اللـــه وعلى أسماء الله الحسنى وعلى الرسالة والمختصر وعلى العقيدة القدسية للغزالى وشرح أبى الحسن الصغير الفاسى على المدونة ، والمراصد فى التوحيد ومنظومـــة الزكاة لمحمد العربى الفاسى ،ونوازل عبدالقادر الفاسى ، والأنوار السنيـــة للشريف المراكشى ، واشراق البدر على عدد أهل بدر لاحمد بن على السوسى ،ومختصر أبى عبدالله الفلالى ، ومطالع المسرات فى شرح دلائل الخيرات للمهدى الفاســى، ونوازل الوزازى وفهرست ابن يعقوب الولالى المراكشى ، وام البراهين والمقدمـات الصغرى والوسطى والكبرى وشرح على مسلم للسنوسى ، والجزائرية فى العقائد لاحمد بن عبدالله الجزائرى ، وتحفة الحكام لابن عاصم ، والخصائص (الصغرى ،الوسطى والكبرى) والوشاح فى فضائل النكاح وفتح البارى على صحيح البخارى والكوكـب الساطع وتفسير الجلالين والجامع الصغير والمعجزات الكبرى للامام السيوطـــى ، وكتاب الترغيب والترهيب للمنذرى ، ومسند الامام أحمد ، والعقيدة البرهانيـة لعثمان السلاليجى ، وتبصرة الحكام فى الأصول والاقضية والاحكام لبرهان الديـــن ابن فرحون العمرى ، ورسالة القشيرى ، ومنظومة الاوجلى فى العقائد ، والفيـــة العراقى ومدخل ابن الحاج ، وسلاح أهل الايمان لمحاربة الشيطان من الصـــلاة وتلاوة القرآن لعبدالله بن عبدالرزاق العثمانى ، والحزب الكبير لابى الحســـن الشاذلى ، وكتاب الدعاء بأسماء الله الحسنى للسيد ابن عباد ، ومنظومة قـــرة الابصار لعبدالعزيز اللمطى ، وحاشية ابن غازى على صحيح البخارى ، وعارضـــة الاحوذى فى شرح الترمذى ، وتفسير ابن عطية ، وتفسير ابن جزى ، وسيرة ابـــن هشام وشرحها لابن القاسم السهيلى المسمى الروض الآنف ، والطبقات الكبرى لابـن سعد ، وشرح محمد قاسم جسوس للشمائل المحمدية المسمى الفوائد الجليلـــة ، وعيون الاثر فى علم المغـازى والسير لابن سيد الناس اليعمرى ، والاكتفاء فـــى

المغازى وسيرة الثلاثة الخلفاء للحافظ الربيع ، والاستيعاب والدرر فى اختصار المغازى والشمائل والسير لمحمد بن عبد البر النمرى القرطبى ، والمواهب اللدنية للقسطلانى ، والاصابة فى معرفة الصحابة لابن حجر العسقلانى ، وحرز ابن آجروم فى القراءات المسمى حرز الامانى ، والنفحات العنبرية فى نعل خير البرية وفتح المتعال فى أوصاف النعل النبوية وقطف المهتصر فى أخبار المختصر ومورد الظمآن فى علم رسم القرآن للمقرى ، وتكميل المنهج لمياره .

ثانيا : فى مجال علوم الآلة والمتمات: فقد عرفوا كتبا :

كاللامية والألفية وتحفة المودود والمثلث لابن مالك ، ولامية ابن المجراد السلوى فى الجمل ، ومقدمة ابن آجروم ، والمرشد المعين لابن عاشر الفاسى ، وشواهد ابن هشام وتكميل المرام فى شرح شواهد ابن هشام لمحمد بن عبد القادر الفاسى والبسط والتعريف فى علم التصريف وشرح على الألفية للمكودى والكافية ونظمها الواقية لابن الحاجب وشفاء الفؤاد فى اعراب بانت سعاد لعبد الله بن فرحون ومنظومة العمريطى وملحة الاعراب للحريرى .

والخزرجية فى العروض بشرح الشريف السبتى ، وجواهر البحور فى العروض وتلخيص المفتاح للقزوينى وأرجوزة فى المنطق للمغيلى ، ولامية العجم للطغرائى وشرحها لعلى بن فرحون الذى شرح أيضا قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير ، ونظم أبى مقرع فى التوقيت ونظم المقنع للمرغيثى ، والهاشمية فى التنجيم ، ومقدمة التاجورى ، ولامية العرب للشنفرى ، والدريديه ، واليوسية ، والقاموس المحيط[1] ، وآمالى ابن على القالى ، والمعلقات السبع ، وعقود الجمان والفريدة للسيوطى ، ومغنى اللبيب لابن هشام ، والاعيان لابن خلكان ، وعشرينيات الفزارى ، وتخميسها لابن مهيب ، ومقامات الحريرى ، وجمل الخوانجى المصرى وحياة الحيوان للدميرى ، ومختصر السنوسى فى المنطق ، ومنظومة ابن غازى فى

---

١) ذكر الدكتور محمد المختار بن اباه أن أول نسخة من القاموس المحيط جاءت من المغرب الى البلاد عام ١١٣٣ هـ على يد الأمير على شنظوره* غير أن القاضى =

* O, Bah. Moctar : Introduction a la poesie Mauritanienne in Arabica T, XVIII , fas, 1, 1971, p,24,

علم الحساب العددى ، ونظم السراج فى علم الفلك الأخضرى ، والبردة للبوصيرى وربيع الابرار للزمخشرى ، ومختصر الأجدابى فى اللغة ، ودرة الملتقط (فى وصف الخيل) وبداية المجتهد لابن رشد ، وتنقيح القوافى وجمع الجوامع للسبكى وديوان امرىء القيس ، ومنظومة الجواهر لابن طيب فى المنطق ، وتذكرة داود الانطاكى ، وتاريخ المدينة لابن فرحون ، والاحاطة لابن الخطيب ، ورحلة الفلصادى ، والنجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب لابن صعد التلمسانى وفهرست الشيخ المنجورى ، وذيل ابن الأبار لصلة ابن بشكوال . الخ .

لقد أدت القفزة النوعية فى التعليم الناجمة من ناحية عن آثار مرحلة الاستيعاب التأسيسية وعن تعريب اللسان الشعبى وبروز العلوم المساعدة وتنوع الكتب والمقررات الدراسية وربما توافر الورق ، الى نتيجتين هامتين :

أولاهـا : ظهور الأجيال الأولى من العلماء أبناء البيئة ذوى التكوين المحلى .

وقد ضاع ذكر أغلب هوءلاء - لأسباب نذكرها لاحقا-ولم يبق منهم سوى النزر القليل كالفقيه أندغ محمد بن ملوك بن أحمد بن الحاج الدليمى (ت ٩٩٥ هـ) والشيخ سيدى أحمد البكباى بن سيدى محمد الكنتى (ت ١٠ هـ) ، وعثمان بن الحسن ابن الحاج التشيتى (ت ٩٧٧ هـ) ، وعلى سل بن أبى بكر بن شهاب الولاتى (ت ١٠١٣هـ) والشيخ أبى بكر بن أحمد بن بير بن محمود بن عمر (ت ١٠٣٩هـ) ، وسيدى محمد قاضى ولاته ابن محمد بن على بن عمر بن عثمان الولاتى (ت ١٠٥٠ هـ) والقاضى محمد بن اندغ محمد (ت ١٠٢٠ هـ) ، وسيد أحمد بن القاسم بن سيدى أحمد

= الفغ محمود كعت صاحب الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش واكابر الناس روى عن خاله عن أبيه الفغ كعت أنه رأى فى تنبكتو نسخة من القاموس تباع فى السوق فى زمن الاسكيا داود المتوفى عام ٩٩١ هـ / بثمانين مثقالا وانه اوقفها فى يد صاحبها حتى أتاه بثمنها*، ونظرا لكون جل علماء تنبكتو فى هذه الفترة من بنى صنهاجة الجنوب ونظرا للوحدة الثقافية بين منطقة تنبكتو وولاته وخضوعها لنفس المواثرات فانا لانستبعد أن تكون البلاد عرفت القاموس المحيط فى ق ١٠ هـ ومن هذه الجهة قبل أن تعرفه عن طريق على شنطورة فى ق ١٢ هـ .

* الفغ محمود كعت : تاريخ الفتاش ص ١٠٨-١٠٩ .

ابن على بن يعقوب الودانى الحاجى (ت ١٠٨٦ هـ) ، واند عبدالله الملقب ببابا الولاتى (ت ١٠٨٦ هـ) ، وسيدى أحمد الولى بن أبى بكر بن أحمد بن عبدالله المحجوبى الولاتى (١٠٣٤ هـ - ١٠٩٥ هـ) وعبدالله بن محمد بن أحمد عيسى البوحسنى (من أهل ق ١٠ هـ) الذى أخذ اضاءة الدجنه اجازة عن أبى مهدى مفتى الحرمين[١] ، والحاج على بن محمدنا لله بن الطالب جبريل البرتلى (ت ١٠٩٤ هـ) والطالب جدو بن مختار بن الطالب المصطفى بن الطالب عثمان الغلاوى الاحمدى (ت ١١٠٤ هـ) ، والعالم سيدى محمد بن المختار الاعمش (ت ١١٠٧ هـ) ، ومحمد الحاج عبدالله بن الفقيه محمد ، وأحمد بن أحمد بن الحاج ،وأحمد بن محمد ابن محمد بن يعقوب الودانى ، والعالم عمر بن الخطاط بن محمد نض بن الطالب جبريل بن يحيى بن على ابراهيم الانصارى البرتلى الولاتى (١٠٢٨ هـ - ١١٠٧ هـ) الذى يحكى أنه قال : " لو علمت عقيدة فى علم الكلام لا أعرفها وفى مصر من يعلمها لرحلت اليها حتى اتعلمها ".[٢] وغير هوءلاء خلق كثير .

وأما النتيجة الثانية فهى ظهور بواكير التأليف المحلى خلال هذه المرحلة . ولانستطيع لانعدام الاشارة التاريخية اليقينية،بسبب تضافر عوامل كثيرة عرضت آثار القوم للضياع ، أن نعطى صورة دقيقة لحركة التأليف فى المنطقة ابان قرون الكمون الايجابى ولكننا فىنفس الوقت سنعطى تمثلنا الممكن لها: ان علماء القوم وان عاشوا زمنا طويلا على تدارس واجترار مقررات العلوم لم يصلوا من الناحية الفكرية - فى هذه المرحلة - الى درجة اعمال العقل الاجتهادى فى مادة بحوثهم كما لم يصلوا الى مستوى التصرف فى اللغة بحيث تصبح طوع هممهم فيشكلونها كيف شاءوا ومن هنا فنحن نفترض أن باكورة التأليف عندهم ظلت محصورة من الناحية النوعية فى الاختصارات والحواشى والهوامش والتعاليق المقتضبة والتفسيرات الموجزة والمقدمات والشروح ليسر

---

١) ابن بنان البرتلى :فتح الشكور : ص ١٦٠.

٢) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ١٨٢ .

وتناسب هذه الأنواع مع باع وامكانيات الموءلفين الجدد .

ولانستبعد أن تكون حركة التأليف عند القوم فى هذه المرحلة هى فى حقيقة أمرها حركة توليف بين مقتطفات من كتب شتى أو محفوظات علقت بالذهن من مجالس علمية فهى أشبه ماتكون بالمران أو التدريب الأولى الممهد للتأليف الفعلى غير أننا لانستطيع الجزم بهذا الوصف لأن شيئا مما كتبوا فى هذا العهد لم يصلنا .

ويستحيل أن نحدد بداية بعينها أو موءلفا نزعم أن التأليف بدأ به وان كنا نرجح وفقا للسياق العام لمسار ثقافة القوم فى بعدها الاسلامى العربى ووفقا لأقدم الاشارات التى وقفنا عليها حتى الساعة ان هذه البداية كانت قريبة من منتصف القرن العاشر الهجرى وهو القرن الذى كنا فى القسم الخاص بالعربية قلنا ان التعريب استتب فيه على المستوى الشعبى .(١)

ان بدايات حركة التأليف تتوالى كما تراءت لنا من آثارها على النحو التالى :

ألف أند عبدالله بن سيدى أحمد بن محمد الغيب المحجوبى الذى كان حيا عام ٩٣٧ هـ شرحا على الاجروميه (٢)، والف سيدى محمد بن أحمد بن أبى بكر الودانى الحاجى الذى كان حيا عام ٩٣٣ هـ شرحا على مختصر خليل فى مجلدين سماه موهوب الجليل بشرح خليل ويعرف بالمجمع قال البرتلى أن به نكتا عجيبة ونقولا صحيحة .(٣) والف أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد اقيت المسوفى الصنهاجى

---

١) أخرجنا عمدا من دائرة اهتمامنا - حين بحثنا عن بداية التأليف فى المنطقة الموءلفين الوافدين ، ولم نعتد الا بالذين تلقوا تكوينهم وباشروا انتاجهم فى دائرة صنهاجة الصحراء .

٢) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ١٥٩ .

٣) ابن بنان البرتلى : نفس المرجع السابق ص ١١٣ .

المتوفى عام ٩٩١ هـ شرحا على منظومة المغيلى فى المنطق وحاشية على شرح التتائى على خليل وشرحا على جمل الخونجى وصفه أحمد بابا التنبكتى بأنه يسير جدا[١] وألف أحمد بن سعيد المولود عام ٩٣١ هـ(ولاندرى تاريخ وفاته) حاشية على خليل قال أحمد بابا التنبكتى انه اعتنى فيها بالنقل "[٢] وألف محمد بابا بن محمد الأمين بن حبيب الله بن المختار المتوفى عام ١٠١٤ هـ شرحا على ألفية السيوطى فى النحو سماه بالمنح الحميدة فى شرح الفريدة وشرح شواهد الخزرجية وله قطع على مقامات الحريرى وحاشية صغيرة على البخارى [٣] وألف أحمد بابا التنبكتى (ت ١٠٣٦ هـ) مؤلفات مختلفة[٤] وألف سيدى محمد بن أحمد بن يحيى بن ابراهيم بن يحي بن عمر المعقلى الحسانى الذى كان على قيد الحياة عام ١٠٤٨ هـ شرحا على صغرى السنوسى[٥] ولمحمد بن الحاج أحمد بن أند عبدالله المحجوبى المتوفى عام ١٠٧٢ هـ تعليقات على كتب والده وجده لأمه ولم يصلنا منها شيئا كما لم نعثر على ذكر لأسمائها أو مجالاتها[٦] وألف عمر الولى بن الشيخ محمدعبدالله المحجوبى المتوفى عام ١٠٧٠ هـ مقدمة فى الفقه وتأليف فى الصلاة على النبى[٧] ولأحمد أيد القاسم الحاجى الودانى المتوفى عام ١٠٨٦ هـ أجوبة فقهية، وتعليق على مختصر الشيخ خليل [٨] وألف الطالب محمد بن الطالب عمر الخطاط المتوفى عام ١٠٩١ هـ مختصرا لخواص الحيوان من كتاب حياة الحيوان للدميرى[٩]

---

١) أحمد بابا التنبكتى : نيل الابتهاج ص ٧٩ .
٢) أحمد بابا التنبكتى : نيل الابتهاج ص ٨٠ .
٣) ابن بنان البرتلى: فتح الشكور ص ١١١-١١٢ .
٤) راجع احصاء الزبير لها فى رسالته Ahmed Baba de Timbouctou (1556-1627) Sa vie et son oevre. P.
٥) ابن بنان البرتلى فتح الشكور ص ١١٢.
٦) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ١٤٨ .
٧) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ١٨١ .
٨) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ٤٠ .
٩) نفس المصدر السابق ص ١٢٧ .

والف محمد بن أبى بكر بن الهاشمى الغلاوى (ت ١٠٩٨ هـ) عقيدة فى التوحيد واجوبة فى احكام مستغرقى الذمم[١] والف محمد المختار بن الاعمش المتوفى عام ١١٠٧ هـ أجوبة فى الدماء ورسالة فى اختلاع الناشز ، موءلفا فى البيان لاندرى ما اسمه وله كتاب روضة الافكار فى علم الليل والنهار وله المنن العديدة فى شرح الفريدة للسيوطى .[٢] وللطالب جدوبن مختار (ت ١١٠٤ هـ) مقدمة فى المهم من فروض الاعيان.[٣]

ونخلص من رصدنا للمسار العام الذى سلكته ثقافة القوم عبر مراحل تطورها الأولى ومن طبيعة المناهج المدروسة فيها ومن بدايات حركة التأليف على المستوى المحلى ومن واقع حركة التبادل العلمى والتواصل بين المنطقة والمغرب والمشرق الى القول بأن دراسة النحو بدأت فى هذه البلاد مبكرا منذ القرون الأولى لمرحلة الاستيعاب وتحددت بشكل متخصص جلى بدءا من القرن التاسع الهجرى وليس صحيحا أن النحو ظل ينتظر مقدم ظهور محمد سعيد بن تحدى (من أهل القرن ١١ هـ) ليدخل الى مناهج التعليم المحلى[٤] وان كان من المحتمل أن ابن تجدى المذكور هو أحد من اشتهر بالنحو من أهل القرن الحادى عشر الهجرى كما نخلص الى استبعاد ماشاع فى بعض الأوساط الموريتانية من أن شيخ الشيوخ الحسنى (من أهل ١٢ هـ) هو أول من أضاف علوم اللغة المختلفة الى مقررات الدراسة المحلية ، فنحن لانشك للحظة من واقع ماسلف أن القوم بدأوا العناية بعلوم اللغة وجل المتمات منذ التاسع الهجرى وتدارسوها بشكل ملحوظ طيلة مرحلة الكمون الايجابى ذات الأثر التراكمى الذى ستظهر نتائجه جلية بارزة بدءا من القرن الثانى عشر الهجرى .

ان نظرة أولية الى تنوع وعمق ثقافة هذا القرن كفيلة بأن تجعلنا نعدل عن القول بأن علوم اللغة بدأت أثناءه ،وقد تجد أسبقية تعليم شيخ الشيوخ الحسنى لعلوم اللغة مصداقيتها اذا ماحصرناها فى حدود بيئة الشيخ القبلية

---

١) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ١١٥ .
٢) محمد المختار ولد اباه : دراسات فى تاريخ التشريع الاسلامى فى موريتانيا تونس ١٩٨١ ص ١٢٢ .
٣) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ٨٧ .
٤) يعزو محمد المختارولد اباه الى محمد سعيد اليدالى دون أن يحيل قوله أن محمدا سعيدا ابن تجدى (من أهل ق ١١هـ/١٧م) هو أول من ادخل النحو الى موريتانيا ،راجع :
O,Bah, Moctar. Introduction p.27,

والاقليمية ولم نعممها على سائر البلاد .

وتتمثل أخيرا أبرز سمات ثقافة القوم خلال مرحلتى تطورها اللتين نهتم بهما ههنا فى الخصائص التالية :

(١) ان هذه الثقافة ارتكزت من بعد العنصر الشنقيطى على عناصر بشرية طارئة تتفاضل فيما بينها تبعا لدرجة الاسهام والتأثير ، وتتوالى حسب حضورها على النحو التالى : العنصر المغربى يليه العنصر السودانى ثم العنصر المشرقى فالأ ندلسى .

(٢) ان هذه الثقافة اسلامية المشرب اسلامية النشأة اسلامية المحتوى اسلامية المبنى والصبغة .

(٣) ان هذه الثقافة قامت ونمت بين قوم بداة وفى وسط بدوى رحابه الصحراء يعتمد فى شظف من العيش العصبية القبلية نظاما والظعن وشيم الأنواء سبيلا للبقاء .

(٣) ومن خصائص هذه الثقافة البارزة أنها ماضوية بحتة ، مبلغ العلم والابداع فيها أن يبلغ أهلها شأو الذين مضوا وان يحيدوا تقليدهم ومحاكاتهم ..

وسنرى لاحقا انعكاس هذه الخصائص فى شعر النشأة الذى نرجىء الحديث عنه حتى نؤسس له بالوقوف عند مصادره لنتبين قيمتها التاريخية والعلمية .

***

الفصل الثاني

مصادر الشعر الموريتاني وقيمتها التاريخية

حفظ التراث وظروفه :

تواجه المرء حين يحاول الكشف عن مصادر لقديم الشعر الموريتاني صعاب جمة كفيلة بأن تثني أكثر الباحثين طموحا عن عزمه وأن تثبط من همته، فهذا المبحث غير مطروق نهائيا من أولئك الذين - على قلتهم - نالوا الأدب الشنقيطي عنايتهم كما تحفه مزالق شتى أهمها : اننا لا نستطيع أن نصل من أمر قديم هذا الشعر الى يقين قاطع أو قول فصل نطمئن اليه لندرة السند اليقيني من نص أو رواية شفاهية صحيحة لايسامتها الشك ، غير الا مناص لنا من أن نتجشم عناء تمثل هذا المبحث وصياغته ، فما لايدرك كله آلينا على انفسنا من قبل ألا نتركه كله .

ومادمنا لانملك الدليل القطعي أو الحجة الملزمة فليتقبل منا ، - والى أن يأتي اليقين - أن نصيغ أحكامنا في هذا المبحث بطريقة ظنية وفي صيغ ترجيحية غالبة .

ان الاطار الفيزيقي الاجتماعي الذي تم فيه تاريخيا الفعل الثقافي الموريتاني بمختلف صوره هو أنسب اطار لضياع التراث وأقلها قابلية لحفظه أو الحفاظ عليه حيا عبر الحقب الزمنية المتوالية ذلك أن الانسان العربي في هذا الاقليم يعتمد منذ تاريخه السحيق وحتى اليوم البداوة نمطا لحياته والرعي سبيلا لعيشه ، ويندرج بداهة تحت هذا السبيل وتلك الحياة ترحال دائم وشيم للأنواء وجوب لاينقطع لأكناف الصحراء بحثا عن مرتع أو فرارا من خطر داهم ، والبدوي في حله وترحاله لايصحب من عتاده الا ماخف وكان ذا غناء وادرك استحالة استعاضته في الدار المقبلة لذا كثيرا مايحتاط لنفسه فيستظهر المتون متخففا من حمل اسفاره غير شاق على مطاياه .

ويجمع الموريتانى الى البداوة ،العصبية القبلية نظاما فينقسم مجتمع البيضان التقليدى الى قبائل تربط بين كل منها آصرة القرابة والدم وتنقسم القبيلة الواحدة الى أفخاذ والفخذ الى بطون والبطن الى عائلات ترتد جميعها الى أصل واحد مشترك .

وكما مر بنا ينقسم البيضان وظيفيا الى قبائل ذات شوكة تحتكر لنفسها السلطة الزمنية وأخرى قيمة على العلم وتقاليده تحتكر الوظيفة الايديولوجية الدينية ثم أخرى غارمة ، وظيفتها اقتصادية تنموية ، وفى كنف هذه المجموعات الثلاث تعيش فئات حرفية مغلقة تابعة توءدى كل منها وظيفة عملية محددة .(١)

عاشت هذه المجموعات القبائل طيلة تاريخها الوسيط وجل الحديث محتكمة الى العرف القبلى ذى المسحة الاسلامية وفى غياب كامل من السلطة المركزية المخلية ومن عدم الخضوع أو التبعية الفعلية لسلطان أى دولة من الدول التى تكونت شمالها وجنوبها .

وقد أدت هذه الوضعية الى حال دائمة من الفوضى التى لاضابط لها قوامها السلب والنهب وفتك القوى بالضعيف . ونجم بطبيعة الحال عن حياة كهذه خوف لايفارق وهجرة لازمة ، الأمر الذى عاق توسع الوظيفة الايديولوجية للزوايا أفقيا فلم يكتب لموءسساتها التعليمية أن تتخطى حدودها الجهوية الضيقة ولا أن تتعدى دائرتها الاجتماعية المعهودة ، بل شهدت حقب زمنية من جراء الفوضى - تحول قبائل بأسرها عن ديارها ووظيفتها الأصلية الى منازل جديدة ووظيفة غير وظيفتها كما أبقت أخرى على قدر من تقاليدها العلمية وابدلت القدر الضائع بالسلاح والحرابة.(٢)

---

١) راجع عن هذه الفئات :

Francis De Chassey. op,cit. pp,83-116,

٢) لاندرى تحديدا حجم تحول قبائل الزوايا الى قبائل محاربة ، قياسا على التحول المقابل فى بنى حسان من قبائل محاربة الى "تياب" وان كان الأرجح عندنا أن تحول الزوايا هو الغالب فى المحصلة النهائية .

ولم تنج المراكز الحضرية القديمة من فساد يعصف بها ولم يتح لهـــا ولا لأهليها الحفاظ على تالد تراثهم الثقافى ، ولنا فى خراب " تنيجـــى" واندثار"تجبه"و" آبير " وفى حروب " ودان " وشنقيط " وخلو " آزوجـــى " واضطرابات " ولاته " ونكسات " تشيت " أبلغ مثل لآثار الصراعات القبليـــة لاعلى صيانة التراث وحفظه فحسب وانما أيضا على نموه .

والحق أن للشيخ الشنقيطى القيم على التراث فيما يلقى من عنـــت يومه وعسر تدبير غده وشظف عيشه مايعجزه الى حين ويلهيه على طـــول المدى - مابقى العنت والعسر والشظف - عن تلافى ضياع تراثه الثقافى ،ويكفى أن نعلم أنه متنازع منذ الصبا وحتى شيخوخته المتأخرة بين متطلبات حيـــاة البادية وضروراتها القاسية وبين طموحاته العلمية الذاتية ، فالشيخ القائم على تسيير شؤون الزاوية هو نفسه فى غالب الأحيان مفتى الحى ومدرس صبيانـــه وامامه فى الصلاة وقاضيه ولسان حاله المتحدث باسمه ان المت جائحة أو نزلت قارعة وهو رائده حين النجعة وهو نفسه من يركب الغرر ضاربا فى الفيافـــى ليبحث عن ضالة من ابله او عن شاة تاهت بفيفاء من شويهاته (١) وهو نفسه من يمتح الماء بيديه ليسقى بقرات أو نوق له جاوزت مدى ظمئها أو ليقى عيالـــه غائلة العطش ، وهذا الشيخ هو نفسه من اذا نفد المير تبضع وامتار طوال العام وهو من يقوم بشؤون ماشيته فى حال صحتها واعتلالها فهو من يجز وبرها ويسمها بميسمه وهو من يداويها أو يلتمس لها الدواء وهو أيضا من يفتـــل حبالها أو تفتل تحت عينه عقلها وخزائمها وتصنع اقتابها ، وهو نفسه مـــن يرعى شؤون راعيها أو يرعاها فى مسارحها وهو حالبها والا فماسك محلابها.

---

١) قال أحد تلامذة المختار بن بونا العالم الجليل ، متبرما لكثرة انشغال شيخه عنه :

لك الله من شيخ اذا ماتبـــوأت تلامذه مأوى لنصب المـــدارس
تيمم ميمون الخصاصة فاتـــرا على ظهر مفتول الذراعين عانس
يفزع نون البحر طورا وتـــارة يهدم حجر الضب فى رأس مادس

عن أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٢٨٢ .

ولعل حالا كهذه هى التى اوحت لاحمد بن الأمين الشنقيطى أن يعقد مقارنة يوازن فيها بين حال العالم فى المشرق العربى وبين حاله فى صحراء شنقيط .(١)

ومادامت هذه حال المفترض فيه الحفاظ على التراث فان ظروف المحفوظ وحفظه حتما سيئة ولاينتظر أن تبقى على شىء أو تذر ، وقد جرت العادة أن الشيخ فى أى صقع من اصقاع صحراء هذه البلاد يحفظ ماخف من عقوده ومواثيقه وصكوك دينه ورسائله ومدوناته بين دفتى " كناش " مصنوع من الورق المقوى المغطى بطبقة من جلد الماعز المدبوغ والمزركش بخطوط سيمترية التشكيل خطتها يد صانعة ماهرة ويحفظ الشيخ فى حال اليسر والعناية كتبه فى صندوق خشبى ينزوى غالب الوقت بجواره تحت الطنب الأيمن لخيمة لاتقيه غائلة الطقس وعبث الأرضة وقرض الفئران أو ماشئت تصورا من عوادى المكان والزمان .(٢)

ومما يزيد ظروف الحفظ سوءا قابلية المحفوظ للامحاء والمحل والزوال لرداءة الورق وبهتان الخط المسطر بعيدان بريت روءوسها كيفما اتفق وأغمست فى دواة حوت مدادا ركب من الماء وخليط الفحم والصمغ العربى المطحونين ، وان أرادوا ابرازا لمتن جاءوا بحبر أحمر مستخرج من نواة ثمرة برية أو من صدأ نحاس منقوع وكلا المدادين يترك بعد أن يجف سمكا وبروزا يساعد على امحاء الكتابة من جراء الملامسة واحتكاك الصفحات المتقابلة فيما بينها فيقتصر عمر الكتاب الافتراضى الى الربع ولا من مغيث .

ويوم ان داست سنابك المستعمر اديم هذا الوطن ازدادت فرص ضياع التراث العربى الاسلامى به اذ استنزف ضباطه وعيونه وتجاره ورحالته نفائس منه تكالبوا عليها دونما هوادة أو كلل متوسلين لها حينا بالنهب وتارة بالسلب

---

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٥٢٠ .

٢) يقال ان احياء الزوايا كانت تجهر لمكتباتها الأهلية وتردمها فى باطن الأرض كى لاتبتل .

وأخرى بالشراء أو الاغراء المخاتل فاستطاعوا على مدى قرن من الزمان أو يزيد تهريب ماطالوه منه فكلفونا اليوم عناء البحث عنه فى بلادهم بعد أن افرغوا مكتباتنا الأهلية أو كادوا .(١)

وقد نجم عن البداوة وعصبياتها كاطار وعن ظروف العملية التعليمية المحيطة بها ووسائلها البدائية الهشة نزوع بل اعتماد شبه كلى فى الوسط الموريتانى على الذاكرة ، نلمس آثاره فى استظهار بعض علمائهم - ولاشية فيها - لكتب كالمختصر لخليل ومدونة سحنون أو كتب الصحاح والموطأ ، أو ألفية ابن مالك ولاميته والتسهيل أو ديوان الستة الى غير ذلك من المتون المعمول بها كما نلمس نزوعهم هذا الى الاعتماد على الذاكرة عبر مايشيع لديهم من أمثال تمجد الحفظ وتدعو اليه كقولهم " الحفظ فى الصغر كالنقش على الحجر " أو " العلم فى صدور الرجال لا فى بطون الكتب " أو من ترك التكرار لابد أن ينسى .(٢)

ان الاعتماد على الذاكرة الحافظة محسوب فى نهاية المطاف على الكتابة وعلى تقاليدها وبالتالى على حفظ التراث وبقائه كما قد يقال من وجه آخر ان الاعتماد على الحفظ منهجا هو نتيجة لازمة عن غياب الكتاب والكتابة وسبيل من سبل التعويض عنها .فالى أى مدى اعتمد الوسط العلمى الشنقيطى الكتابة سبيلا الى تخليد موروثه الثقافى وكيف تطورت صلاته بها؟.

الكتابة فى المجتمع الشنقيطى التقليدى :

نقر ابتداء أن التأريخ لدخول الخط العربى الى المنطقة قيد البحث وتداوله سيبقى تأريخا مبتورا فى ظل غياب النصوص التاريخية وعدم استقراء النقوش الأثرية ، وحسبنا هنا أن نشير هذا الموضوع وأن نوجه اليه العناية

---

١) ان نظرة سريعة على اعداد مجلة العالم الاسلامى كفيلة بالقاء الضوء على حجم الظاهرة . راجع مثلا - RMM September, 7eme annee Vol والعدد: Vol.XXIV, - RMM, Tome XII, 1910,

٢) وكثيرا ماتمثلوا بقول الشاعر :
عليك بالحفظ دون العلم فى كتب فان للكتب آفات تفرقها =

عل فى مقتبل العمر والجهد - منا أو من غيرنا - مايجلو مستقبلا غموضه وينير جنباته والى أن يتحقق ذلك نقول الا علم لنا - فيما نعلم - بأولوية خط غير الخط العربى فى هذه البلاد ولا نظن الا أن تعلمه بدأ مبكرا فواكب انتشار الاسلام تدريجيا وانتشار علومه على يد المعلمين الأول الذين جلسوا فى المراكز القارة وفى المداشر وتحت الخيام لاقراء القرآن وتفقيه الناس فى أمور دينهم .

ولابد أن انتشار الكتابة العربية شهد قفزة نوعية أثناء مرحلة التعرب الرسمى وماصحبها من استيعاب للثقافة العربية كما نرجح حصول تطور كمى ونوعى ملحوظ خلال مرحلة التعريب الشعبى وماصحبها من كمون ايجابى فى الثقافة الموريتانية ، الا أننا نفترض مع ذلك أن نسبة شيوع الكتابة ومدى استعمالها ظل رهين نسبة تفشى الأمية وحاجة البدو المحدودة اليها ، وهى أمور لانستطيع الفصل فيها بدقة لغياب معطياتها الاحصائية تاريخيا الا أن قياس الماضى السحيق على الحاضر كفيل بأن يقنعنا بمحدودية الشيوع وضآلة الانتشار .

ونستطيع أن نقسم - تبعا لأغراض الكتابة-مستويات تداولها الى ثلاثة مستويات :

أدنى يقتصر فيه من ألم من عامة الناس بالقراءة والكتابة على نقش شواهد القبور وعبارات الترحم على الموتى ووسم الماشية برموز أو حروف عربية أو تخليد أيام على جذوع الشجر وعلى مداخل الآبار واعمدة متح مياهها أو التبرك برسم حروف متقاطعة فى دوائر ومربعات على ظاهر الحلى وفى جداول وتمائم تقى حاملها الشرور .

= اللص يسرقها والفار يخرمها والنار تحرقها والماء يغرقها
أو قول الآخر :
علمى معى اينما يممت يتبعنى قلبى وعاء له لا جوف صندوق
ان كنت فى البيت كان العلم فيه معى
أو كنت فى السوق كان العلم فى السوق

وتدوولت الكتابة على مستوى آخر وسيط أنيط بفئة متعلمة وسطى بين عامتهم وخاصتهم فى مجال المكاتبات الفردية وعهود القبائل ومواثيقها المختلفة من صكوك مداينات وعقود تمليك ومايتعلق بذلك من أمر تجارتهم وتزاوجهم .

وتداولوها كذلك على مستوى ثالث أكثر عمقا وتميزا من حيث الصحة لغة ومراعات لأصول الخط العربى الا أنه محدود الانتشار باعتبار أن القائمين عليه صفوة ، ونفترض أنهم أداروا كتاباتهم على هذا المستوى من التداول من حول رسم القرآن واستنساخ الكتب وتسجيل المواثيق والعهود ذات الطابع العام وتقييد المناظرات والفتاوى والأحكام القضائية ونقضها الى غير هذا من الاهتمامات التى تخرج عن متناول عامة الناس .

وقد شاع فى ميدان الرسم ببلاد شنقيط الخط المغربى الأندلسى، ولم يكن ليشيع بها سواه من الخطوط نظرا للوحدة الثقافية بين المنطقتين ولحيوية الطريق المغربى الصحراوى الذى سلكته هذه الثقافة الى أن استقرت واستتب لها الأمر .

ومن امارات الخط المغربى عندهم اعجامهم حروف (ينفق) ان وردت فى آخر الكلمة ، ونقط القاف نقطة واحدة من فوق ، والفاء أخرى من تحت ، وكتابة الفاء الأخيرة مطلقة ، ورد الياء فى نحو " الى " و"فى" الى الوراء وعقف القاف الأخيرة ، وفى خط المصحف يكتبون الهمزة حمراء وعلامة الابتداء بهمزة الوصل بنقطة خضراء كما يكتبون الصاد والضاد مربعتين أو بيضيتين أو مقوستى الأعلى .(١)

وحقيق بنا الا نقف طويلا عند أدوات الكتابة والا نعرض لها الا لماما

---

١) المختار بن حامد : حياة موريتانيا - القسم الخاص بالثقافة ص ٨٤ .

فقد كتب الناس فى هذه البيئة أسوة بغيرها من البيئات بالقلم والمداد، ويصنع القلم من نباتات الأرض تبعا للغطاء النباتى المتوفر فى كل منطقة ويبرى عادة ويغمس فى دواة نحتت من الحجر تحوى مدادا فحمى اللون قوامه الماء وطحين الفحم والصمغ العربى وان أرادوا مدادا ملونا فصدأ الحديد المنقوع أو النحاس مالم تتوفر الاصباغ الصناعية التى عهدت أخيرا أو الاحبار المستجلبة .

وتتنوع تبعا للفترات الزمنية الأدوات التى يكتب عليها وتتعدد[١] الا أن أدتتين من بينها كتب لهما البقاء دون سواهما من الأدوات : اللوح والورق .

ويفوق استعمال اللوح استعمال الورق بكثير فهو منه أقدم وأوفر وأطول عمرا وهو بعد ذلك أنسب للبادية وأكثر جلدا على معتركها ، ونظن ظنا أن لوح الخشب المنجور من جذع الشجر المخروط حتى استوى صفحة ملساء قد صحب أولى مراحل التهجى وتعلم الخط فى الوسط الصنهاجى واستمر معه فى رحلته العلمية لمميزاته الآنفة الذكر ولامكان غسله واعادة الكتابة عليه باستمرار وهو مانراه مناسبا وموءكدا لمسألة اعتماد الحفظ واعمال الذاكرة لاستظهار النصوص ، فطالب العلم عادة لايمحى ماسطر على ظاهر اللوح الا بعد اثباته على صفحة حافظته .

الورق :

ولاندرى تحديدا متى كانت صلة الانسان الصنهاجى الجنوبى بالورق ، لامتى عرفه ولا متى بدأ استخدامه ولامن أى الجهات وفد اليه ولا الى أى مدى أفاد منه فى حفظ تراثه ؟ ومع ذلك فثمة أمور سنستأنس بها فى هذا الصدد ونبنى على أساس منها فرضية راجحة تجيب موءقتا عن هذه التساوءلات :

---

١) فقد كتبوا على الرق والعظام والحجارة والعسيب .

يقال ان الصينيين هم أول من عرف صناعة الورق ابتداء من مطالع القرن الثانى الميلادى ، وعن طريق الصين عرفته جاراتها من بلاد فارس والهند . وقد شاع استخدامه فى بلاد الاسلام منذ منتصف القرن الثانى الهجرى حين أسرت جيوش المسلمين فى حربها مع أخشيد فرغانه ، بقيادة والى سمرقند عام ١٣٣ هـ عددا من الصينيين ، تبين فيما بعد اتقانهم لصناعة الكاغد التى لم تلبث أن ازدهرت فى العالم الاسلامى ومنه وصلت الى أوروبا بعد ذلك بقرون .(١)

ونستبعد من الآن وجود صلات تجارية أو غير تجارية مباشرة منذ التاريخ المبكر بين بلاد المشرق الأقصى وبلاد صنهاجة جنوب الصحراء ، ونقلل لدرجة التناهى من شأن أى صلات بين بلاد المشرق الاسلامى وبلاد صنهاجة الرمال ابان العصر الأول لانتشار الاسلام وقبيل دخوله الى المنطقة جنوب الصحراء .

ونشير الى أن أقدم الصلات بين المنطقة وبين رحالة وكشافة الغرب تعود فى بداياتها الأولى الى مطالع القرن التاسع الهجرى (٢) لما وصل الرحالة البرتغالى Gil Eanes عام ٨٤٢ هـ الى رأس بوجادور واكتشف مناطق " تيدرة "و" تارا" ، Lanzarote , Antoine Gonzalvez وجزيرة آرجين .(٣)

ولقد بدأت الصلات التجارية للمنطقة مع البرتغال ابتداء من ٨٦١ هـ حين أسسوا محطة تجارية عند جزيرة " آرجين "تمكنوا عبر نشاطها من العبور الى داخل البلاد والوصول الى ودان وتشيت وولاته .

ومنذ ذلك التاريخ توالت تباعا البعثات الأوروبية الى أن أضحت

---

١) دائرة المعارف الاسلامية مادة " ورق " .
٢) لايسلم هذا التاريخممن ينكاف فيه فالمصادر الاسبانية ترى أن الكشافة الأسبان هم أول من اكتشف الساحل الموريتانى منذ أواخر القرن الثامن الهجرى .
٣) Article C, Vanacker in Introduction a la Mauritanie p.61 ,

موريتانيا محمية فرنسية من ضمن مستعمرات فرنسا فى أفريقيا الغربية .

ولايهمنا فى هذا المقام أن نؤرخ لصلات الغرب مع المنطقة وانما الذى نسوق له الحديث هو البحث عن ذكر للورق ضمن ماتبودل مبكرا بين الأساطيل الغربية وسكان المنطقة غير أن الحيلة تعجزنا فلانجد للورق ذكرا ضمن مكونات الخردة (La Pacotille) المتبادلة بين الطرفين الا أننا مع ذلك لانستبعد وجوده مطلقا بل الأرجح عندنا دورانه النسبى على أيدى التجار الأوروبيين ابتداء من أواخر القرن العاشر الهجرى ومطالع الحادى عشر باعتبار الحاجة اليه فى هذه الفترة على المستوى الثقافى وباعتبار أن الاحتكاك بين الطرفين قد نضج بما فيه الكفاية لمعرفة قواعد العرض والطلب الحاكمة للسوق المشتركة ، ولكن يجب ألا نبالغ لا فى مدى طلب الورق والاقبال عليه ولا فى مدى رواجه أو ترويج الغرب له فى تلك العصور وبين أولئك البدو .

ولايقدم لنا تاريخ السودان الغربى فى هذا المضمار كبير غناء لأننا نفترض من واقع تمثلنا القائم على استقراء - لايدعى الاحاطة - لتاريخ هذه البلاد العام والثقافى افتراضا لايناقضه حتى الساعة منقول،موءداه أن الصحراء أرض الملثمين من صنهاجة - المعبر التاريخى الحيوى الى السودان الغربى - عرفت الاسلام وثقافته واحتكت بالعرب وثقافتهم وتأثرت بها ومارست الفعل الثقافى قبل السودان الغربى بل لانجانب الصواب ان قلنا ان قبائل لمتونة ومسوفة من بنى صنهاجة الجنوب هى من غرس هذه الثقافة فى ربوعه ومكن لها فيه حتى استقرت ، ومن هنا فلابد أن الحاجة الى الورق والى استعماله كانت أسبق الى أرض صنهاجة الجنوب منها الى أرض السودان خاصة الا أولوية فى أى من المنطقتين لثقافة ذات تقاليد مكتوبة قبل الثقافة العربية الاسلامية وان جهة التأثير الفعالة فى التراث الثقافى لهما كانت دائما هى بلاد المغرب عامة وأرض السوس خاصة من المغرب الأقصى وتلمسان والاتوات من المغرب الأوسط .

ومبلغ علمنا أن المغرب استعمل الورق فى أغراض الكتابة مبكرا وانتجه منذ منتصف القرن الخامس الهجرى فقد " كان فى فاس وحدها مائة وأربعة معمل كاغد وتضاعف هذا العدد مع مرور الزمن حتى صار فى أوائل القرن السابع الهجرى أربعمائة معمل فى حى خاص قرب باب الحمراء بفاس مازال حتى اليوم يعرف بالكفادين ، بالاضافة الى معامل الورق الشهيرة فى سبته وشاطبية "(١).

وأغلب الظن أن الانسان الموريتانى عرف بواسطة المغرب الأقصى الورق لأول مرة كمادة للكتب الدينية التى اتصل بها من يوم أن تحددت صلاته بالاسلام منذ القرن الثالث الهجرى غير أن استعماله الفعلى لم يبدأ - فيما نرجح - الا حين بدأ هذا الانسان يشارك فى دراسة العلوم مشاركة فعالة ابتداء من القرن السابع، وقد ظل استخدام الورق فى المحيط العلمى الموريتانى حتى منتصف القرن الحادى عشر استخداما ضئيلا لكنه ينمو فى اطراد سيبلغ أوجه وأوج الاستفادة منه ابان القرون الثلاثة التالية التى جنت ثمار التراكمات الماضية ونعمت فيها البلاد بنهوض ثقافى شبه مزدهر وافادت خلالها من آثار نشاط الدولة السعدية على السودان الغربى ومن تكثيف التجارة مع الاساطيل الغربية المتغلغلة الى الداخل .

الصلة بالورق اذن فى المحيط الشنقيطى صلة فى تدرجها الزمنى جد متواضعة حتى فى أخصب فترات استعماله وتوفره (٢) ومن هنا فاننا نرى أن دور الكتابة فى الحفاظ على التراث الموريتانى لم يكن بالدور الأساسى باعتبار أن الحاجة الاجمالية الى التدوين والتأليف زهيدة اذا ماقيست على ضرورات الحفظ المسيطرة .

---

١) محمد حجى : الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين المغرب ١٩٧٦ ج١ ص ١٨٣.

٢) يذكر محمد النابغة بن عمر الغلاوى الحوضى الشنقيطى فى كتابه " النجم الثاقب فى بعض ماللبيدالى من المناقب " أن محمدا سعيدا اليدالى لما دخل الى مدينة " أجادير دومه " المغربية أكرم أهلها - لصلاحه - وفادته واتحفوه بهدايا حوت ضمن ماحوت ورقا مزركشا لم يكن ليخطر على باله أو يفترض وجوده ولا وجود ورق شبيه به .
نقلا عن : Ismael, Hamet. La Civilisation Arabe en Afrique Centrale R.M.M. T,XIV, 1911, p.19,

واذا صح ماذهبنا اليه بنسبة من النسب فاننا نستخلص على أساس منه ضياع واندثار قدر لايستهان به من تراث هوءلاء القوم وتناقص المعلوم عنه كلما أوغلنا فى الماضى .

ونذهب هذه المرة واليقين يغالبنا الى احتمال أن تكون نسبة الضياع فى مجال الشعر أكبر واعم فيه منها فى غيره ، لخضوعه كبقية الانماط التراثيةلنفس الظروف العاصفة ثم لمكانته وقيمته ضمن معارف الانسان الشنقيطى .

مكانة الشعر بين معارف القوم

ان مكانة الشعر لاتتحدد بمعزل عن اطار الثقافة الموريتانية وتحولاتها التاريخية فنحن نفترض أن هذه الثقافة يوم كانت تمر بمرحلة الاستيعاب الاولى كان الشعر غائبا ولا يدخل فىاهتمامات المتعلم الصنهاجى لامن قريب ، أو بعيد وقد لايدرى عنه الا ذكره حين يتلو القرآن أو يسمع عنه سماعا أو يمر بخبره مرا فى كتب الحديث ولابد أن وعيه بمعانى الآيات والاحاديث التى وردت فى حق الشعر والشعراء لم يكن ليتجاوز ظاهر الكلام والوقوف عند الجانب السلبى من الحكم عليهما .

ولاندرى هل فى صلة بعض المعلمين الأول بالشعر[1] ماخفف من غلواء التشدد حياله ومهد السبيل أمامه ليبلغ على أواخر مرحلة الكمون الايجابى مبلغا مقبولا ، ففى هذه المرحلة أضحت المادة العلمية فى متناول الفقيه الصنهاجى طيعة فى يده فبات يعمل عقله ويشحذ ذهنه ليصل الى كنه المسائل فلا يكتفى بأهون المشارب وأقربها كما توسعت دائرة اهتماماته فلم تعد قاصرة على العبادات والمعاملات أو المسائل ذات الصلة المباشرة بواقعه والموءثرة فى حياته اليومية ، فكأنه فرغ بعد انشغاله بفروض دينه لما هو أقل أهمية وأكثر رياضة لذهنه ، فنال الشعر بعضا من عنايته اذ اتضحت له

---

١) كان الامام الحضرمى شاعرا كما تتلمذ الشريف عبدالموءمن والحاج عثمان على القاضى عياض اليحصبى الفقيه العالم الشاعر.

العلاقة مابينه و بين علوم الدين واللغة مجتمعة ، كما تبدت له أهمية النظم - ربيب الشعر - من الناحية المنهجية اذ سرعان ما أدرك أن وضع المتون والنصوص فى عبارة منظومة يسهل حفظها والابقاء عليها حية ماثلة فى الذاكرة .

ولابد أن مكانة الشعر ابان هذه المرحلة تعززت حتما بمقدم عرب المعقل وتغلبهم على البلاد وتغليب لسانهم على المستوى الشعبى وتأسيس اماراتهم وحاجة أمرائهم وعصبياتهم المختلفة وأيامهم الى من ينافح عنهم بالكلمة ويخلد ذكرهم وتالد مجدهم ، وعلى الرغم من أن تاريخ المنطقة لم يبق لنا ذكرا لشعراء من بنى حسان فى تلك الازمنة المبكرة لأسباب مفهومة سنعرض لها تفصيلا الا أننا نرجح أن قبائل المعقل قدمت والشعر العربى الفصيح على السنة شعرائها الذين أنجبتهم ورعتهم طيلة مسيرتها من الجزيرة العربية الى تخوم الصحراء التى طمرتهم حقافها .

ولم تكن مكانة الشعربمعزل عما أحرز الشعر الملحون من أهمية متزايدة بعد مقدم العرب الى البلاد فابن خلدون يذكر أن لقبائل المعقل على عهده شعرا ملحونا كثير التداول بينهم " يجيئون به معصبا على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة فى رويه ويلتزمون القافية الرابعة فى كل بيت الى آخر القصيدة " (١) وهو نفس النظام المعمول به حتى اليوم فى الشعر الشعبى الحسانى فى شنقيط والذى أخذ حسب الرواية الشفاهية طابعه المحلى المتميز بدءا من القرن الحادى عشر الهجرى على يد فنانين موهوبين من أمثال على بن مانو وغرذ ولد بلغام وسدوم ولد انجرتو كما ظهرت الموسيقى أول ماظهرت فى القرنالعاشر على يد مجموعة تسميها نفس الرواية المتداولة " رجالة آوليل " .

---

١) تاريخ ابن خلدون ط بيروت ١٩٥٦ ج ٢ ص ٣٥٦ .

ومن الراجح عندنا أن الموقف الأيديولوجى من الشعر تبلور فى الوسط الموريتانى أثناء هذه المرحلة بالذات وذهب فى اتجاهين رئيسيين لايفارقان فى كثير الاتجاهات التى برزت فى التراث النقدى العربى الاسلامى حين تطرق الى موقف الاسلام من الشعر والى حليته من عدمها .

ويعد الاتجاه المحافظ الصارم فى تشدده مع الشعر وعدم اباحته أقدم الاتجاهين وقد تراوحت مواقفه مابين اعتبار الشعر قرآن ابليس وسلاحه فى الغواية والضلال وبين اعتباره ضررا لابد منه " ولاينبغى الاكثار منه ولا من الشغل به كما قال ابن أبى زيد القيروانى فى رسالته (١)، ولولا أن الرسول اتخذ له الشعراء وشجعهم على صوغ الشعر دفاعا عن الاسلام ودفعا للمشركين لاستغنينا فى نظر هذا الفريق عن الشعر ذلك " الشر المستطير " ، وقد مثل المرابطون ومن بعدهم حفيدهم ناصر الدين أوبك بدء هذا الاتجاه وزاويته الأكثر تشددا بحكم زمنهم وغلبة الصبغة الدينية على ثقافتهم القائمة على الاسلام السنى المحافظ المعتمد للمذهب المالكى فى صرامته واحتياطه فى أمور الدين وابتعاده عن الشبهات سدا للذرائع .

ولايهمنا أن ندخل هنا فى الجدل التاريخى الذى أدير من حول دور المرابطين فى النهوض بالآداب والفنون الا بالقدر الذى ينير مانحن بصدده من مكانة الشعر لدى هوءلاء القوم . فقد تحامل بعض الموءرخين من أنصار الدولة الموحدية على الدولة المرابطية وعكس المستشرقون تحاملهم عليها بل نفثوا فيه من روحهم حتى قال يوسف اشباخ" ظهر المرابطون من بين سكان الصحراء البدو السذج فكانوا أعداء لكل حضارة عربية ومن ثم كانت حكومتهم كريح الصحراء اللافح حيث يهب على الغياض النضرة ، يعمل لتحطيم جميع العلوم والفنون وكان أولئك الحكام القساة يمقتون القبائل

---

١) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ٦٥ .

العربية وثقافتها ويعملون على سحق هذه الثقافة بكل ماوسعوا ".(١)

وتقتضى الأمانة أن نفرق حين الحكم على الدولة المرابطية سلبا أو ايجابا بين فترتيها ، اذ أن الاطار الحضارى الذى اكتنف تاريخيا تطور الفترة الشمالية الأساسية يختلف جوهريا عن الاطار الذى أحاط بالفترة الجنوبية الصحراوية بقسميها الأول والثانى ومن هنا فالذى لاشك فيه أن حظ الفترة الجنوبية الصحراوية من الصرامة الدينية والمحافظة والتقليد والبعد عن الاجتهاد وفهم منطوق الدين على ظاهره كان الحظ الأوفر ، فالمرابطون لما قدموا الى سجلماسة لنصرة فقهائها قضوا قضاء مبرما على آلات الموسيقى ومزامر اللهو والطرب ونكلوا بأهلها(٢) وهو أمر ان لم يستعص على الفهم فى ظل فلسفة حركة راديكالية دينية ترمى الى مفارقة الواقع القائم واصلاحه فانه قابل لأن يحمل على أنه استعداد منذ البداية لخنق الفنون والآداب .

والحق - فيما نرى - ان المرابطين وفقا لفلسفتهم وفى ظل تمذهبهم الدينى استطاعوا الحفاظ على مكتسبات الحضارة العربية الاسلامية فلم يبخسوها حقها أو يعرضوها للتلف والضياع وان لم يطوروها تطويرا ملحوظا ونعتقد أن الشعر لم ينل كبير عنايتهم خاصة مافارق منه مثلهم الفكرية وقيل ابان الحقبة الصحراوية من دولتهم .

ولعل الرواية الشفاهية المتواترة عن ناصر الدين أوبك تستوحى تشدد المرابطين وصرامتهم الدينية كما استوحى هو نظامهم وساورته اعادة سيرتهم الأولى ، فقد أمر بأن يغلل حبيب بن بلا اليعقوبى الشمشوى وان يطاف به راسفا فى قيوده ويعرض على الناس ضحى ليعتبر به من يعتبر لا لشىء الا لأنه تغزل فى احدى بنات سعد الأوس .

---

١) يوسف اشباخ : تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ترجمة محمد عبد الله عنان ط مصر ١٩٤٠ ج ٢ ص ٢٥٠ .

٢) الناصرى : الاستقصاء ج ١ ص ١٠٢ .

ولاندرى تحديدا أأنزل ناصر الدين أوبك العقاب بشاعر " تشمشه "لقوله الشعر فحسب أم لأن شعره جاء تشبيبا بامرأة من قبيلة بعينها أم لأن الظرف الزمنى للمقوله يستلزم فى نظره الجد لا الغزل وان يوجه الشعر فى كونفدرالية تشمشه - مهد حركته - وجهة تتفق وفلسفته وتلائم تطلعات حركته الاصلاحية.

وأيا ماصح من الاحتمالات الثلاثة فانها لاتنم عن اعتداد بالشعر من حيث هو شعر ولا عن عناية أو احترام للشاعر .

وكما تبدت الزاوية المحافظة المتشددة مع الشعر فى موقف ناصر الدين وأسلافه المرابطين تتبدى الزاوية المتسامحة معه تسامحا محسوبا فى موقف الطالب الأمين بن الطالب الحبيب الخرشى(ت ١١٦٦ هـ) الذى لم يقل من الشعر الا نحو قصيدتين اتباعا للسنة[١]وفى موقف الفقيه محمد مولود بن محمد فال ، اليعقوبى الذى عبر عنه فى نظمه " محارم اللسان " الذى عد فيه - ضمن مالايجوز - من أغراض الشعر مدح الظالم الباغى بالعدل والتغزل الصريح بامرأة بعينها حيث قال :

وهكذا من سيئات الالسنة تغزل بامرأة معينة

وتتبدى كذلك الزاوية المتسامحة مع الشعر تسامحا محسوبا فى نظم عبدالله ولد الحاج حماه الله (ت فى النصف الثانى من ق ١٢ هـ) للرسالة حيث يقول" ان حفظه مقبول والأفضل أقله وأما الاكثار منه فمذموم "[٢] ذما لعل قوامه الورع والخوف من الحساب والعقاب الذى حدا بالشاعر الهادى بن محمد أن يترك الشعر قائلا :[٣]

---

١) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ٦٥ .
٢) O.Bab, Moctar. Introduction p.28,
٣) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٧٨ .

من بصوغ الشعر أصبح مولعـــا فالمرء يسأل عن مقاصد شـــعره
فليذكرن المرء عند سوء الـــه وليذكرن قيامه من قبـــره
هذى الثلاثة لا ارتجال وراءها فطويت رق الشعر خيفة نشـــره

وأما الاتجاه الثانى من الاتجاهين الرئيسيين فقد حكمته فلسفة ذات توجهين : أحدهما يؤكد على الوظيفة الاخلاقية للشعر وماله من دور فعال فى الارتقاء بالانسان والسمو به الى رحاب الفضيلة كما يصورها الاسلام ويقرها العرف الاجتماعى ومن هذا المنطلق نفى هذا الفريق أغراضا بعينها واقبل على الاغراض ذات الطابع الدينى كالمديح النبوى والوعظ والتوسل والارشاد والزهد وسنرى لاحقا أن شعراء الجيل الاول والثانى من النشأة التزموا عمليا هذا المفهوم فى شعرهم وقد عبر عنه محمد سعيد اليدالى (ت ١١٦٦ هـ) لاحقا فنفى الغزل المراد لذاته من شعره وقال عن الهجاء :(١)

وقد علمت بأن الهجو حرمتـــه أتت حديثا واجماعا وقرآنـــا

وأما التوجه الثانى فقد أباح أنصاره جميع أغراض الشعر ونظن ظنا لانملك عليه تدليلا قطعيا صريحا فى لفظه أنهم توسلوا الى ذلك بأن وسموا الشعر بالهزل ونفوا عنه الجد فاعتبروه من قبيل الترفيه الضرورى للنفس الجادة .

الموقف اذن من الشعر سلك باقتصار مسلكين أحدهما راغب عنه مناهض له وآخر مقبل عليه يلتمس له العذر ويخطب التجاوز عنه أو يلزمه بوظيفة أخلاقية وجد صارم .

وقد كان الاتجاه الاول وليد مرحلة الاستيعاب ومصاحبا لها بينما كان الاتجاه الثانى بتوجهيه وليد مرحلة الكمون الايجابى فى الثقافة الموريتانية ومواكبا لها ، ولقد احتدم الصراع بين الاتجاهين ابتداء من منتصف القرن الثانى عشر الهجرى وحسم نهائيا لصالح الشعر أثناء مرحلة النهوض وبالتحديد

---

١) محمد سعيد اليدالى : الديوان جمع وتحقيق الامير بن اكاه مدرسة المعلمين العليا ، نواكشوط ١٩٨٠ ص ٧٢ .

بعد النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى .

ان الموقف من الشعر كما صورناه آنفا كان فيما نرى صدى لتوجهات عقائدية وفقهية تشريعية تطورت فى المحيط الثقافى الموريتانى وتحددت معالمها فى وضوح خلال القرن الثالث عشر فعلى المستوى العقائدى برز توجه راده العالم الجليل المختار بن بونا (ت ١٢٢٠ هـ) واعتمد فى مقولاته العقلانية والتأويل وعلم الكلام وجاء ردة فعل على جمود الاتجاه الأقدم الذى يعتمد ظاهر النصوص ويرفض التأويل ويزدرى علم الكلام والمنطق وجل علوم المتمات مالم تكن فى خدمة علوم المقاصد وقد حمل لواء هذا الاتجاه فى هذا القرن بالذات العالم الجليل لمجيدرى بن حيبله، والى جانب هذين التوجهين نما فى موازاة لهما ثالث صوفى النزعة والمشرب راده الشيخ الجليل سيدى المختار الكنتى .

أما على المستوى التشريعى فقد ظلت السيطرة مطلقة للاتجاه الذى يأخذ بالفروع ويرفع ممثلوه شعار أحمد بابا التنبكتى القائل " نحن أناس خليليون ان ضل خليل ضللنا " والى جانبه ظهر اتجاه آخر نقيض له دعا ممثلوه الى الأخذ بالأصول ونبذ الفروع باعتبار أنها اجتهادات غير ملزمة محكومة بظروفها الزمنية والبيئية وبالتالى دعا هؤلاء الى فتح باب الاجتهاد ورفض التقليد والسير فى ركاب المنظومات الجاهزة والشروح الفقهية المكرسة للجمود .

وقد نما على أثر الصدام بين هذين الاتجاهين اتجاه وسط يحاول التوفيق بين الطرفين مثله وعبر عنه العالم الجليل الشيخ محمد المامى (ت ١٢٨٢ هـ) الذى يقول" انى لما رأيت علماء الوقت بين حيزين حيز أصولى ينحو نحو الاجتهاد ولم يدعه ولم يدع له ويذم التقليد ولم يغن عنه غيره بل لم يستغن هو عنه ،وحيز ينحو نحو الفقه ويقول " نحن خليليون ..." ولم يبلغوا مقاصده... ندبت من فيه أهلية الجمع ان يجمع بينهما امتثالا للآية" ان الله يأمر بالعدل والاحسان " والعدل الأمور المتوسطة بين طرفى الافراط والتفريط ".(١)

---

١) الشيخ محمد المامى بن البخارى : كتاب البادية التليمة الأولى ص ٢ ، مخطوط.

لقد ارتبط الموقف من الشعر سلبا وايجابا بالتحولات النوعية في الثقافة الموريتانية وبالتالى تدرج فى تقدم مطرد ضمن ثقافة دينية الاطار، الفاعل فيها العالم الفقيه الناظم لا الأديب الشاعر أو الناقد ومن ثم فلم تصل المواقف الموءيدة قبل القرن الثانى عشر حد الاعتراف به لذاته ، فقد كان أقصى مدى لقبوله مشروطا بتوظيفه لأغراض تعليمية أو أخلاقية دينية رهبا من عقاب أو رغبا فى جزاء . يقول الشيخ ماء العينين العالم الجليل فى شرحه لنظمه المسمى " تبيين الغموض على نعت العروض " مسوغا اشتغاله بالشعر وبعلومه " يقال ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لحسان بن ثابت وقد رآه آتيا أبشر باحسان من حفظ هذين البيتين لم تمسه النار :(١)

أقوم والقيام اليك فرض وترك الفرض أنى يستقيم

أيمكن من له عقل رجيح ومعرفة يراك ولايقوم"

ونخلص من هذا الحديث الى القول بأن مكانة الشعر بين معارف القوم متفاوتة من عصر لآخرلكنها جد متواضعة حتى فى عصور ازدهاره ولا أدل على ذلك من قلة الشعراء الخلص ومحدودية جمهوره المتلقى وانعدام النقاد المحترفين وندرة الرواة المبرزين وأهل الضبط من كتبته ، وما أظن أن مكانة كهذه من شأنها أن تخص الشعر بالحفظ دون سواه من الضياع أو الخبط والخلط فى روايته وتدوينه .

تدوين الشعر:

ان الشعر الموريتانى الى يومنا هذا لم يدون ان عنينا بالتدوين جمع ماتفرق من دفاتره وصحائفه وضم بعضها الى بعض فى دواوين تجمع شتات ماتفرق منه بين الافراد والقبائل ويقوم بها وعليها أهل الدراية بالشعر وعلوم اللغة والعناية بها ، فلا علم لنا بتدوين قبيلة من القبائل لشعر شعرائها ولابمختارات من هذا الشعر جمعت بين دفتى كراسة أو دفتر وتعزى الى ذواقة ناقد أو راوية كاتب ضابط على غرار ماعهد من مختارات فى تراث العرب الشعرى ، ولاعجب فى هذا بعد الذى علمناه من أمر هذه الجماعة وماذكرناه من

١) ماء العينين بن محمد فاضل بن مامين :"تبيين الغموض على نعت العروض" المطبعة الفاسية عام ١٣٢٠ هـ ص ٥ .

ظروف عاصفة لايستقيم معها حفاظ على موروث، كما لاعجب بعد الذى علمناه من نقص فى أدوات الكتابة وكسادها وماترتب عليه من عناية بالحافظة الذاكـــــــرة ويبدو أن الذى عرفه الشعر الموريتانى من أمر الكتابة كان تقييدا لاتدوينا ونعنى بالتقييد مجرد رسم الشاعر أو من يستحسن من رفقته قصيدته على قصاصة مـــن الورق قيمتها الحفاظية آنية جدا قد لاتتجاوز الوقت الضرورى لحفظها ثم لايدرى لها بعد ذلك مصير معلوم فهل معنى هذا ان عوادى الزمن لم تبق لنا دواويـــن أو آثارا يعتد بها لشعراء من هذه البلاد ؟ .

تقتضى الاجابة على هذا السوءال أن نفرق بين مرحلتين من حياة الشعر الموريتانى : مرحلة متأخرة نسبيا وتبدأ اعتبارا من منتصف القرن الثانى عشـــر الهجرى فما بعد وهى التى أبقت لنا على مخطوطات ذات بال واخبار متفرقـــــة تعضدها أحيانا روايات شفاهية قابلة للاعتماد .

ومرحلة ثانية قديمة غامضة وهى التى تهمنا باعتبار أنها ستشهد نشأة الشعر الأولى ، وتتوزع مصادرها مابين آثار كتابية وأخرى شفاهية ،وتنقســـم الآثار الكتابية الى مصادر ومراجع ونعنى بالمصدر الاثر الأقرب الى الفتـــــرة التاريخية المتحدث عنها والذى يحتوى على مادة أصلية للموضوع بينما نعنـــــى بالمرجع الاثر الذى رجع فيه صاحبه ، لبعده عن الحقبة الزمنية المتناولة ، الى المادة فى مصدرها الأول بواسطة .

وتنعدم انعداما كليا المصادر المحتوية على مادة أصلية أولية مقصورة على الشعر الشنقيطى فى فترته المبكرة التى نبحث فيها بينما تعتبر المصـــادر التى قد تحوى عرضا أخبارا عامة عنه نادرة وشحيحة للغاية ، ولاتعدو فى الغالـب كتب التراجم والسير التى تقدم لنا معلومات لاتحيد عن ذكر لفقيه شاعر متأدب أو ايراد مراسلة تذيلها أشعار خفيفة أو مداعبات منظومة تنحو نحو الشعر ،وسنحاول حين تطرقنا لنشأة الشعر أن نجمع شتات هذه الاخبار وأن نصنفها لنرى الى أى مـدى تثبت للتمحيص وتستقيم للدراسة .

ونضرب مثلا لكتب التراجم والسير المصدرية العامة التى تعرض لهذه النوعية من المعلومات بكتب كالصلة لابن بشكوال وذيلها لابن الأبار والتشوف الى رجال التصوف للتدالى ونيل الابتهاج بتطريز الديباج لاحمد بابا التنبكتى وهى كتب لاتتناول موضوعنا تحديدا حتى نقف عندها محللين وكل صلتنا بها أنها قد تذكر اسم أحد أعلام المنطقة قيد البحث مشيرة الى أنه كان الى جانب ورعه وتفقهه وشمائله الحميدة ناظما أو شاعرا وهى لمحات من الندرة بمكان غير ان لم يكن لنا مفر من التنقيب عنها والوقوف حيالها.

وأما المراجع التى تعرض لشعر شنقيط وشعرائها فتتوفر وفرة جد نسبية قياسا على ندرة وشح المصادر ويعيب ما اطلعنا عليه منها عيبان فادحان يقدحان فى توثيقها ومدى اعتمادها وبالتالى فى درجة الاطمئنان اليها فهى من ناحية تراجم لعلماء وفقهاء ويقوم بها علماء - فقهاء وبالتالى فشاعرية المترجم له واشعاره ان وجدت لاتنال عناية ففالبا ماتذكر لماما وبعد تمام القول والاسهاب فى كل مناحى حياة المترجم له ومن ناحية ثانية يترجم المؤلف فى الغالب لأناس عاشوا فى حقب زمنية متباعدة جدا مع عصره فلا يسند ولايحيل ويتركك أمام خبر لاتعلم له من مصدر بعده وذلك كأن يكون هو مثلامن أهل القرن الثالث عشر ويترجم لعالم أو فقيه من أهل القرن التاسع ومع ذلك فما بين أيدينا من المراجع يفضل بعضه بعضا من حيث المنهج وغزارة المادة ووفرة المعلومات ومدى اتساقها ومن حيث التقادم كذلك والقرب من الأصول والمصادر ان عرفت .

وينقسم ما اعتمدنا عليه من المراجع وامدنا بمعلومات عن الشعر والشعراء قبيل انتصاف القرن الثانى عشر الى نوعين من المراجع : أهمها المراجع الوطنية العامة التى ألفها موريتانيون فى تاريخ رجالات العلم والثقافة فى المنطقة قيد البحث وهى أهم من غيرها باعتبار أن مجالها يتحدد غالبا بحدود منطقة البحث ان لم يكن بشريا فجغرافيا على الأقل وهى أهم أيضا لشموليتها ووفرة مادتها ولكونها تلمح الى الروايات الشفاهية المتداولة ثم لقدرة مؤلفيها - بحكم انتمائهم الى البيئة - على ادراك الملابسات والحيثيات الدقيقة التى قد لاتسترعى انتباه الغريب عليها وان استرعته فوقف عندها فقد لايفهمها على وجهها الصحيح الصائب ،

ونمثل لهذه النوعية من المراجع تمثيلا لاحصرا بأقدم كتاب تراجم وصلنا "فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور"(١) لابن بنان البرتلي وبآخر لايقل عنه أهمية يستدرك فيه مؤلفه الطالب أبوبكر المحجوبي الولاتي مافات ابن بنان البرتلي ويعرف بـ "منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور" .(٢) ثم بكتاب أحمد بن الأمين الشنقيطي "الوسيط في تراجم أدباء شنقيط"(٣) الذي نال قدرا من العناية يفوق مانال الاثنين السابقين في مضمار الدراسات الأدبية وقد أخرنا ذكره لا لعدم أهميته وانما لقلة المادة التي تمت بصلة الى الفترة التي نبحث فيها ولتأخره النسبي عن سابقيه .

وأما النوعية الثانية من المراجع التي قد يعثر بها على معلومات عامة عن الشعر الشنقيطي قديمه وحديثه فهي مراجع عامة مغربية في الغالب الأعم وتؤرخ في شكل تراجم وسير للعلم ورجالاته في منطقة المغرب العربي وبلاد الصحراء والسودان الغربي وتعرض أحيانا لذكر عالم أو أديب شاعر لانعلم عنه الشيء الكثير اما لأنه هاجر من شنقيط موطنه الاصلي ونبغ في المغرب أو في أي قطر آخر واما لأن انتاجه غمر وطمر مع ذكره أوكاد. ونضرب لهذه النوعية مثلا بكتب كالمعسول وخلال جزولة للمختار السوسي وفهرست الحضيكي وذيل محمد بن عمر السوسي عليها وشجرة النور الزكية لمحمد بن مخلوف والاعلام بمن حل بمراكش من الأعلام لعباس التعارجي السملالي ومعجم الشيوخ لعبد الحفيظ الفاسي ولامية الوفيات للفشتالي محمد بن علي ومعلمة الصحراء لعبد العزيز بن عبد الله . الخ .

ولانرى ضرورة لأن نخص بالذكر المراجع الأجنبية التي وقفنا

---

١) طبع فتح الشكور عام ١٩٨١ في بيروت حققه وقدم له كل من محمد ابراهيم الكتاني عضو الأكاديمية الملكية المغربية ومحمد حجي عميد كلية الآداب بالرباط

٢) لايزال هذا الكتاب على أهميته مخطوطا لم يلق من يطبعه .

٣) طبع الوسيط بعناية فؤاد سيد أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية عدة طبعات كانت آخرها ط الثالثة وقد نشرته مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء ، ظهرت ط الاولى عام ١٩١١ بينما ظهرت الثالثة عام ١٩٦١ وقد ترجم الاستاذ مراد تفاحي الى الفرنسية أجزاء هامة منه واخضعه أحمد بابا مسكه للدراسة والتحليل في كتابه :

عليها لأنها من ناحية لاتتوقف عند الدراسات الأدبية فى المنطقة بصورة عامة ولا عند الشعر بصورة خاصة ولاتتعرض مطلقا من ناحية ثانية للفترة الأولى القديمة التى نبحث فيها اما لأنها غامضة ومجهولة ولاسبيل الى تكليف النفس عناء البحث عنها واما لأن الذين عنوا بالمنطقة من الباحثين الغربيين عنوا بتاريخها العام فلم ينل تاريخ الأدب حظا من اهتمامهم وهم الى ذلك ينقلون جميعا عن نفس المراجع التى ذكرناها من قبل مطعمة بالطريف من الرواية الشفاهية المحلية .

الرواية الشفاهية :

ان الظروف التى أحاطت بمسار التراث الموريتانى - عصره الأول خاصة - وحاقت بتطوره لتدفع الباحث لأن يطرق باب الرواية الشفاهية على أمل أن تمده بما يجلو غموضا أو يرجح افتراضا أو يسند تصورا ولو الى حين غير أن آماله سرعان ماتتحجم وتقصر الطموحات لا لندرة الرواية أو لعدم التنوع فى مواضيعها واختلاف مجالاتها-فمجتمعنا يعتمد الذاكرة الحافظة سبيلا غالبا لتخليد موروثه والمشافهة وسيلة ناجعة لاذاعته ونشره - وانما للطبيعة النوعية والموضوعية للرواية ذاتها والتى تبعا لمجالها سلكت مسلكين اثنين أحدهما اخبار شعبى عام يقوم عليه الاتصال والتواصل اليومى وفقا لمقتضيات حياة البدو الاعتيادية وأما ثانيهما فخاص بالوسط العلمى وتزدهر فيه الرواية فى مجالات بعينها أكثر من غيرها كالتاريخ وأيام القبائل والأنساب والأدب عامة والشعر من فنونه خاصة .

ولاندرى سببا معقولا ولا تأويلا مقبولا لرواج الرواية فى هذه المجالات أكثر من غيرها سوى أنها لصيقة بحياة الناس من ناحية وأن بقية العلوم - من ناحية ثانية - اما انها علوم لها منعتها متأبية على التعاطى والتصرف بحكم طبيعتها العلمية البحتة كالرياضيات والفلك واما انها علوم اسلامية ذات قدسية أصلت من قبل وارسيت قواعدها ولا مجال للزيادة فيها كتابة أو رواية من باب أولى .

وفى مجال الشعر تتدرج الرواية أطوارا تبدأ بانشاد الشاعر لمقطوعته أو لقصيدته فى ملأمن أقرانه واترابه جلاس " الاتاى"(١) أو سمار الليل فيحلو لاحد الكتبة أنصار الشاعر من بنى عترته أن يبلغ بها طورها الثانى فيقيدها على قصاصة من الورق لاتلبث أن تفقد بمجرد الاستظهار والحفظ - الطور الثالث من أطوار الرواية - قيمتها وسرعان ما يكتمل الدور بالانشاد من جديد وممارسة الراوى لدوره فى البث الشفاهى والاذاعة .

ورواة الشعر فى هذا القطر حسب رصدنا طبقات ثلاث طبقة دعامتها عامة المتعلمين من بنى الزوايا وهى جمهور الشعر حقيقة ولاتخلو من النظام ان لم تكن كلها قادرة على النظم فى المناسبات وحين الملمات (٢)ولاتعدو صلة هذه الشريحة بالشعر غرضين احدهما تعليمى والثانى استمتاعى اغتباطى فى اطار من قيم الفتوة العربية ومع ذلك فدورها لحيويتها واتساع قاعدتها هام من حيث اذاعة الشعر من فرد الى آخر وبثه والنشر من جيل الىجيل ومن منطقة الى أخرى.

وأما الطبقة الثانية فعمادها الشعراء ، وما أظن أحدا من هوءلاء احترف الرواية الشعرية لذاتها الى أن أضحى بها مشهورا وما أظن كذلك الا أن صلتهم برواية الشعر وليدة رغبتهم فى أن تستقيم لهم صناعته فقد كانوا فى الغالب الاعم يقدمون على خوض غمار التجربة الشعرية لتطويع أدواتهم واعذاب السنتهم(٣) ، وقد روى هوءلاء الشعراء عماد هذه الطبقة ما اتصل بهم من

---

١) الأتاى تحريف لكلمة the الفرنسية أو tea الانجليزية وهو ركن فى حضارة الشنقيطى له وظيفة اجتماعية وتقاليد صارمة وتراث شعرى فقهى أدبر من حوله .

٢) يتردد بين هذه الشريحة فى " المحاضر العلمية" قول أحدهم :
" وجهل عروض الشعر شر غريزة اذا عددت يوما شرار الغرائز "
ولعل القدرة الفائقة على النظم لدى أفراد هذه الشريحة هى التى سولت للموريتانى أن يطرب لتسمية بلده " بأرض المليون شاعر " فى حين أن الشعر جد قليل .

٣) ان وجد طيلة مسيرة الشعر الموريتانى أفراد كان الشعر طوع هممهم تجرى به ألسنتهم كيف شاءوا لاكيفما اتفق واقتضى النموذج المحاكى فقد كانوا من عصور الشعر المتأخرة والتى بالقوة - من جراء التراكم - اضحى أهلها عربا شعراءأوكالشعراء العرب .

أشعار العرب شرقا وغربا كما رووا لمعاصريهم ولمن سبقهم من شعراء بنى جلدتهم الا أن هذه الرواية أو تلك لم تنل عناية خاصة اذ لم تقصد لذاتها وان امتازت بشىء فانما شاعرية رواتها أو صلتهم الحميمة بالشعر ان شئت الدقة .

ومن بعد هاتين الطائفتين تأتى طبقة الفقهاء - الرواة وهم على ضربين ضرب اتخذ من الشعر وسيلة ناجعة لفهم اللغة العربية وحيثياتها التى لاغنى عنها لفهم ما استغلق من نصوص الدين وعلومه فألزمته هذه الصلة أن يعير الشعر اهتمامه الى حين لكنه عزف فى نهاية المطاف عن القيام بنشره وروايته وقد استعان الضرب الثانى بالشعر كذلك على علوم اللغة والدين فاستساغ طعمه وصادف منه قبولا ولم يستطع فكاكا من طعمه فاضحى بأساليبه خبيرا ، بصيرا بطرائقه قيما على نقده وتقويمه فكان أن ألزمه تعهده اياه أن يروى لتلامذته ماوعته ذاكرته من مرويات دعامتها القراءة تارة والأغلب فيها السماع .

ان هذا الفريق من الطبقة الثالثة أولى بالثقة فى مروياته أكثر من غيره لضبطه وتقاه وتأدبه واعتنائه بالشعر . وسواء انتمى الراوى لهذه الفئة أم لغيرها وايا كان علمه وعدله فثمة أمور تقدح فى رواية الراوية الموريتانى : منها أن الرواية نفسها - فيما نعلم - لم تبلغ الى يومنا هذا دور الضبط والتحقيق والتمحيص وبالتالى ظلت - كنسق تعبيرى يعكس الواقع - متحيزة ، فعلى المستوى العرقى تنحاز الرواية للبيضان ضد السودان أو العكس وعلى مستوى التمايز الفئوى تتحيز للزوايا ضد بنى حسان أولاحدى هاتين الفئتين - على المستوى الهرركى - ضد بقية الشرائح الاجتماعية الاخرى التابعة ، وتنحاز كذلك على المستوى الجهوى فيزعم مثلا رواة القبلة للقبلة مايسقطون عمدا من رصيد الجهات الأخرى فتكيل هذه بدورها للقبلة كيلا ظالما ، ويتحدد التحيز ويتجلى أكثر فأكثر بل قل التعصب على المستوى القبلى فالرواة جميعهم أيا كانت مكانتهم من العلم وحظهم الافتراضى من التجرد والتنزه عن الآنى هم فى واقع الأمر رواة للبطن أو للفخذ أو للقبيلة والا فللقبيلة الحليفة، ومن هنا

كانت الرواية الشفاهية فى الوسط العلمى الشنقيطى احادية البعد تتنكب الموضوعية فلا تبقى ولاتذكر الا ماوافق هوى من رواتها أو كان فيه رفعة لعصبتهم ومن هنا كان تواترها نسبيا لايعدو فى الغالب الحدود الضيقة للقبيلة أو المنطقة، مع ملاحظة ان الرواية الشفاهية كلما تناولت قضية عامة لاتمت بصلة مباشرة لوحدة تجمعية بعينها أو كلما أوغلت فى القدم كلما اطردت وقل شططها .

ويعيب الرواية بعد ذلك أنها مرسلة ينعدم فيها السند وطريقة الحمل فأوثقها ما انقطع اسناده ، كما يكثر فيها التناقض والخلط والتزيد أحيانا وهى كلها أمور لافكاك منها فى مجال الرواية الادبية عامة وان من شأنها جميعا أن تجعلنا نحاذر ونحتاط فلا نعول على مرويات القوم فى استقاء معلوماتنا عن غابر الشعر الشنقيطى المندرس ؛لا حين تعجز مصادرنا المخطوطة ويخلو لها المجال فلا يبقى غيرها ولانلقى مايضعف الأخذ بها أو يدحضها نقلا أو عقلا ذلك أن أهمية الرواية الشفاهية كمصدر فى الوسط العلمى الموريتانى جد حرجة فهى لاضطرابها ولما يحيط بها من محاذير ويقدح فيها وفىرواتها من القوادح مدعاة للريبة والحيطة البالغة وهى حين يخلو لها الميدان تحذر الباحث نفسها ان لم يأخذ بها فيخشى أيما خشية أن يسقطها من الحسبان دونما سند مقبول والحمد لله ان ما وصلنا عن طريقها فحسب فى مضمار قديم الشعر خاصة قليل جدا لايعدو قصائد معدودة سنعرض لها فى المكان والحين المناسبين من هذا البحث .

الوضع والنحل فى الشعر الشنقيطى :

تطرح الظروف العامة للتراث الموريتانى على النحو الذى عرضنا له من قبل ، وانعدام مصادر خطية خاصة بشعر القوم فى المراحل الأولى من نشأته والشح فى الاشارة الى هذا الشعر فى المراجع العربية العامة وانعدام التوثيق والاحالات الاسنادية فى المراجع الوطنية فضلا عن القيمة الحرجة للرواية

الشفاهية المحلية ، أقول تطرح هذه الاعتبارات كلها سوء الا - فى محله - عن مدى الاطمئنان الى هذا الشعر وعن مدى الوضع فيه والنحل ؟.

ونعترف بداهة أن من التعسف المخل والتعجل الأهوج ان نعتسف الأمر اعتسافا فنلقى بالاحكام العامة فى هذا الصدد فى الوقت الذى نعرف فيه كغيرنا أن النزر اليسير من تراث المنطقة قيد البحث الذى غالب الزمن وصارع غوائله فعاش حتى اليوم لما يزل رهين الغيب لم يعرف سبيله الى النور وان ماطفا من شعرهم على السطح لم ينل عناية تذكر ،فلم يحقق أو يمحص أو يتثبت من صحيحه وزائفه ، غير أننا نعلم كذلك أن غاية كهذه ترمى الى غربلة قرون من التراث لا يضطلع بها فرد ولايفى بها جهده ولا عمره .

والى أن تتضافر الظروف الموضوعية للحكم على هذا الشعر دون اعتساف ، لانرى بدا من أن نصوغ تمثلا أوليا يؤسس للاجابة على السوء ال المطروح، ونستأنس بالتشابه الظاهرى بين الشعر العربى فى العصرين الجاهلى والاسلامى الاول وبين الشعر العربى فى موريتانيا مدركين تمام الادراك وجوه التلاقى ومناحى الافتراق بين الشعرين .

لقد عدد موءرخو الأدب العربى ونقاده بواعث الوضع والنحل فى الشعر العربى فانحصرت فى البواعث التالية :

- رغبة القبائل العربية بعد أن راجعت تاريخها فى أن تتكثر من أشعارها وبالتالى فى أيامها ومآثرها .

- حاجة العلماء والقائمين على المدارس والزوايا العلمية وأهل الفرق واطراف النزاع الشعوبى والاختلافات المذهبية الى مايعضد استشهاداتهم العلمية أو الخبرية ومايعزز معتقداتهم .

- اتساع الرواة - بعد الاحتراف - فى مروياتهم اما تكسبا أو مفاخرة أو تدبيجا وتزيينا لقصصهم ،فهل دفعت هذه البواعث أو أخرى شبيهة بها

أو مغايرة لها، بالموريتانى الى الوضع فى الشعر ونحله ؟.

ان الجواب بلا جازمة أو نعم قاطعة تجاسر مجازف لانملك عليه تدليلا والأصوب أن نجيب على ضوء مايتراءى لنا حتى الساعة بنفى حذر راجح يغلب عدم الوضع أو النحل فى الشعر الموريتانى طيلة مسيرته ان عنينا بالوضع والنحل ذينك اللذين يقصدان لذاتيهما ويعمد اليهما الوضاع تزيدا مدلسا منظما يرمى آخر المطاف الى بز عدو أو الوضع من قدره أو الى رفعة عترة أو مفاخرة قرن. وان وجد من هذا القبيل شيء فانا نميل الى حده حدا بالمستوى الفردى البحت أو الحالات المنعزلة التى لاتصل الى مستوى الظاهرة ، ذلك أن القبائل الموريتانية لم تراجع فيما مضى لاعتبارات تاريخية موضوعية آثارها ومآثرها لتتزيد فى مناقبها ومحاسنها عبر التكثر فى اشعارها ، فهى اليوم واليوم فقط تتراءى لها ارهاصات نهضة متخلفة تصطدم بعصر متقدم ويتقدم .

ومما جنب الشعر الشنقيطى غائلة الوضع أو النحل المعمود اليهما عمدا بغرض الاستشهاد والمعضد لموقف علمى أو عقائدى ان أعلام هذه الثقافة اتخذوا من الرجوع الى قديم التراث العربى الاسلامى فحسب وفى مراجعه المشتركة فيما بينهم حجة ملزمة لايعتد بغيرها ويجب التسليم بها فور توثيقها وقد عزز لديهم هذه النزعة تقديسهم الاعلائى للموروث الاسلامى وتقليدية متأصلة فيهم وقناعة لاتريم بأن ليس فى الامكان أبدع مما كان .

ونظن كذلك أن الصبغة الدينية الغالبة على الثقافة الموريتانية والمكانة المتواضعة للشعر ذاته وعدم الاحتراف فى الرواية الشفاهية الذى من شأنه توسيع الرواة فى مروياتهم أمور من بين تلك التى حالت بين شعر القوم وبين الوضع والنحل المتعمدين .

ونبحث عبثا عن بواعث تحمل الموريتانى على الوضع والنحل فى شعره أو عن اشارات اليهما نقف حيالها فلا نجد لها صدى أو ذكرا الا أننا مع ذلك لانملك أن نبرىء هذا الشعر تبرئة كاملة فقد كان عرضة لنوع آخر من الوضع

والنحل أقل خطرا اذ لم يقصدا لذاتيهما : فقد نجم هذا النوع من الوضع عن طبيعة الحفظ والحمل والأداء فلم يكن لهذا الشعر أن يسلم من الزيادة أوالنقصان أو من التحريف والتصحيف أو الادراج والتغيير فى ترتيبه أو وضع عبارات بدلا من أخرى وهى أمور أنيطت بالزمان والمكان والانسان فلا يسلم منها شعر أمة من الأمم .

ولانستعبد أن يكون هذا الشعر تعرض فى حدود ضيقة لنوع من النحل على غرار ماذكر صاحب الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط حين قال " والناس ينحلون عبدالله المذكور (بن سيدى محمود) ، كل ماوجدوا فيه حماسة من الشعر ، سواء كان قديما أو حديثا ".(١)

وهذا اللون من النحل ناجم عن اشتهار شاعر بلون معين من أغراض الشعر .

ونخلص من هذا الحديث الى أن الشعر الشنقيطى من حيث الصحة من عدمها ومدى التوثيق على أضرب ثلاثة :

- ضرب غالب صحيح .
- وضرب يسير أغلقه ضعف الرواة وجهل الناسخين وعوادى الزمان والمكان .
- ثم ضرب مقداره غير معلوم ، مجهول ضائع لاندرى عنه شيئا .

وتكثر نسبة الضياع بطبيعة الحال فى قديم الشعر الى أن أضحت نشأته الأولى مجهولة أو كالمجهولة .

***

---

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٣٦٤ .

الفصل الثالث

نشأة الشعر الشنقيطي تاريخيًا

الفصل الثالث : نشأة الشعر تاريخيا

ان بحث نشأة الشعر فى بلاد شنقيط يقتضى كخطوة أولى على الطريق ، نقاش مصادرة كثر القائلون بها حتى عمت فأضحت مسلمة أو فى حكم المسلم بها ، فقد درج كل من له صلة بآداب القوم وثقافتهم من أهل البلاد ، - أيا كانت درجة أو زاوية اتصاله بها - على القول بأن الشعر العربى الفصيح فى هذا القطر ظهر أول ماظهر على يد الشاعر سيدى عبدالله بن محمد (ت ١١٤٤ هـ) الشهير بابن رازجة (١) ورعيل اترابه الشعراء الذيب الكبير والمجلسى أبى فمين ومحمد الكريم ابن الفاضل وألما بى المصطفى العربى ومحمد سعيد اليدالى (ت ١١٦٦ هـ) ومن فى زمنهم .

ان لهذه المقولة محليا حيثيات ظلية مترتبة عليها لاينبغى أن تمر فى غفلة من الباحث ، منها أن الشعر تاريخيا - على المستوى القبلى - علوى (٢) المبدأ ، قبلى (٣) النشأة على المستوى الجهوى ، فابن رازجة يشارك بنسبة من النسب بقية أترابه من الشعراء انتماءهم للقبلة التى نشأ بها وأخذ قسطا من علمه فى محاضرها وعلى يد نفر من شيوخها .(٤)

ومن ظلال هذه المقولة اجتماعيا - على مستوى التمايز الهرركى -

---

١) تنطق جيما سامية واصلها فى اللهجة الحسانية الموريتانية قاف وهى اسم لوالدته رازقة بنت أحمد .
٢) نسبة الى قبيلة " ادوعلى " الموريتانية التى ينتمى اليها ابن رازجة .
٣) نسبة الى القبلة المنطقة الجنوبية الغربية من البلاد .
٤) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ١ .

ان الشعر نشأ على يد قبائل " الزوايا " وبجهدها والا منة لعرب المعقل الوافدين فى اقامة صرحه .

ومهما تكن درجة تمكن هذه المصادرة فى الوسط الذى نبحث فيه واطمئنان الناس اليها فالعزم منا - فى بحثنا نشأة الشعر الشنقيطى - معقود على ألا ننجرف وراء الشائع من المقولات انجرافا ، وعلى ألا نبيت دفعه فندفعه دون بينة أو برهان وانما نأمل أن نجد طريقا سوى بين ذلك دعامته الأمانة العلمية وقوامه الموضوعية ليسبق الى قرض الشعر من سبق عن بينة أو يتأخر عنها .

ان جذور هذه المقولة ترتد فى منابتها الاصلية الى مجتمع قائم على البداوة نمط حياة والعصبية القبلية نظاما يعتمد الحسب والنسب والوظيفة الاجتماعية معايير للتمايز والتفاضل .

وقد رأينا قبل هذا كيف تطغى رواية " الزوايا" - الفئة القيمة على الدين والعلم ذات الوظيفة الايديولوجية - على غيرها من الروايات وكيف تتعصب رواية أهل القبلة للقبلة وتتعصب ضدها الجهات الأخرى ، ومر بنا تحيز الرواة جميعا - على حساب الموضوعية - لانتماءاتهم الضيقة واهوائهم الآنية ، وان أرضا تكثر فيها المصادرات لمآرب بغيتها وتعمم الاحكام وتشاع لأخرى ، لمدعاة لأن يتريث الباحث حيال نتاجاتها . فمن أنسب الأجواء وأكثرها ملاءمة لصياغة المصادرات واعتساف الاحكام أن تتم فى اطار معتم تحكمه الفوضى والتحلل من القواعد والأصول المنهجية وتوجهه بل وتدفعه حثيثا البواعث الذاتية والاهواء دفعا .

ان الذين أخذوا بهذه المقولة انقسموا حيالها شيعا تفاوتت درجة انتصارهم لها من فئة لأخرى لكنهم اشتركوا جميعا على

قدر صلة كل منهم بها فى سمات بارزة أهمها :١)ان انتصارهم لها أكسبها مصداقية ومنعة واسهم بنسبة كبيرة فى الترويج لها ٢)ان طرحهم لم ينج من جنف صاحبه فاضعف من تحريهم العلمى وفت مبدئيا فى درجة اعتماده ٣٠)انهم انطلقوا فى طرحهم للمسألة من مفهوم يجزىء من جهة المجتمع الشنقيطى الى وحدات قبلية شتى لا رابطة تاريخية بينها ويجعل من مبحث النشأة - من جهة ثانية - مسألة تأريخ فردى لم يحتضنها سياق تاريخى عام .

ان هوءلاء الذين تشيعوا للمقولة أو حسبناهم كذلك فئات ثلاث :

أولى قوامها جمهرة المتعلمين وانصافهم ممن لهم صلة من الصلات - مهما وهت - بالأدب ، وهوءلاء دورهم لايعدو غالبا ترديد الشائع ، فهم رجع صدى ، ولن نقف معهم وليس لنا أن نفعل لا ازدراء بهم وانما لأن الحكم غير صادر عنهم فلا تقع عليهم مسئوليته وان عنتهم بوجه من الوجوه فهى موزعة ضائعة بينهم .

وأما الفئة الثانية فمدارها العلماء المتأدبين أهل الرواية والعناية بالشعر ، وهى ضالعة فى ترسيخ المصادرة أو نظنها كذلك على غرار مابدر من أحمد بن الأمين الشنقيطى فى أثره الهام " الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط"الذى نكتفى منه بالتعرض لما له صلة أو دور فى ترسيخ شبه المسلمة التى نناقش هنا أسبابها ووسائلها التى مكنت لها .

والحق أن أحمد بن الأمين العلوى لم يتعرض - قولا - الى نشأة الشعر فى البلاد ولم يصرح بسبق ولد رازجة الى قرضه ، ولم يعد مافعل أن جاء بشعر من روى لهم من القوم مرتبا على أسماء القبائل مبتدئا لها بذكر قبيلة ابن رازجة ، قبيلته هو نفسه ، ثم ابتدأ

شعر هذه وشعراءها بابن رازجه وشعره المعلوم له ، ولاندرى أجاء هذا الابتداء المزدوج عفو الخاطر أم متسقا ومستجيبا لنزوع قبلى تلمح آثاره فى كتاب الرجل من وقت لآخر ؟ .

لكن الشىء الذى لاجدال فيه هو أن ابن الأمين الشنقيطى لم يتبع فى سلسلة القبائل والشعراء ترتيبا أبجديا اذ لو فعل لما جاءت - مثلا - قبيلة (أدو على) قبل (ادا بالحسن) ولما جاء سيدى عبدالله بن محمد (ولد رازجه) قبل ابى فمين أو الذيب الكبير مثلا .

ونخشى أن يكون نزوع عصبى شاب بدرجة من الدرجات طرح الرجل فهو حين ألمح - مستدرجا - فى خاتمة كتابه الى المؤلفين ونشأة التأليف فى البلاد ابتدأهم أيضا بابن عمه الطالب محمد بن الاعمش العلوى .(١)

ان مذهبنا ليس التقليل من شأن الرجل أو من قيمة كتابه العلمية والتاريخية ، فنحن - ككل الدارسين ذوى الاهتمام بالمنطقة - نزجى له الشكر وندين له بالفضل والعرفان الا أننا مهما مددنا له من حبل الانصاف ، والتمسنا له من الاعذار نرى أن فى ابتدائه بقبيلته وافتتاحه شعر القبائل بشعر ابن عمه ولد رازجه ، ما أسهم فى مركزة فكرة سبق الأخير - دونما بينه معلنة - الى قرض الشعر فى ذهن من لايستطيع الفكاك من اسار الوسيط وصاحبه .

---

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٥٧٨ .
لايسلم للرجل ماذهب اليه بخصوص نشأة النثر فى بلاد شنقيط على النحو الذى أراد ، وهو ما نأمل أن يجلو غموضه دارس آخر لنشأة النثر فى بلاد شنقيط .

وأما الفئة الثالثة التى تبنت هذا الرأى فقد نمت من بين الدارسين [١] والباحثين الذين ألزمهم - أدبيا - دخولهم الى ميدان البحث العلمى حدا أدنى من التحقيق والموضوعية يحول بينهم ، أو من المفترض أن يحول بينهم ، وبين القاء الاحكام على عواهنها ، ومن هوءلاء الدكتور محمد المختار ولد اباه الذى عرض مجتازا لأمر النشأة فى سبعة وثلاثين سطرا [٢] وأشار الى ظهور الشعر فى نضج فجائى على يد الشاعر ولد رازجة ومن بعده رعيل اترابه ،واستشعر حرجا من أن ينفى نفيا قاطعا وجود شعراء من قبل هوءلاء فألمح فى الهامش - مهونا - الى الرواية التى تذكر لاحمد قلى من أهل القرن السابع الهجرى قصيدة ، ثم مالبث أن خلص الى الحكم بألا وجود لشاعر حقيق بهذا الاسم من قبل ابن رازجه والا - يقول - لكانت الرواية الشفاهية ذات التقاليد الراسخة (!!!) أبقت لنا على ذكر لشاعر من أهل القرن الثامن الهجرى أو التاسع .[٣]

ان فى نص الرجل على هذين القرنين مانستشف منه أنه أحس بضرورة الاحتياط فى أمر القرنين العاشر الهجرى والحادى عشر وعدم التعجل فى نفى مالم يقف أو يكلف نفسه عناء الوقوف عليه من أمرهما وان كنا نراه يردف متخلصا فيقول ان ثقافة ماقبل القرن العاشر الهجرى ثقافة دينية محضة وان العناية بعلوم اللغة والنحو بدأت

---

١) يقول محمد سعيد بن محمد محمود " أريد قبل أن أدخل فى الموضوع أن أنبه على أن سيدى عبدالله بن رازجه كان من الناحية التاريخية هو أول شاعر عرف فى هذه البلاد بالمعنى المتعارف للشعراء" ديوان ولد رازجه تحقيق محمد سعيد بن محمد محمود ، اشراف محمود المسفار ، نواكشوط ١٩٨٠ ص ٢٤ ويقول فى مكان آخر " ان ابن رازجه ليس معجزة تاريخية فى نطاق الأدب الموريتانى ولا داعى لافتراض أن هنالك طائفة سبقته وانقرض شعرها ولم يصلنا " ديوان ولد رازجه ص ٤٤ .

٢) وزعها مابين الصفحتين ٢٦ ، ٢٧ من مقالته المعنونة :

O.Bah, Moctar : Introduction , PP. 26-27.

٣) نفس المرجع السابق والصفحة .

فى القرن العاشرالهجرى مما يعنى ضمنا ضرورة تأخر ظهور الشعر الى مابعد هذا القرن .(١)

ان الباحث يدرك من جهة تأبى شعر ابن رازجه على أن يمثل أولية الشعر فى شنقيط ويعى من جهة ثانية أن ثمة موءشرات تاريخية لو عمقها أو كلف نفسه عناء الوقوف معها لقادته ربما الى " حيث لايبغى " أو لأثبت عن بينة صحة منزعه وكفانا مانحن فيه الآن من خبط .

ومهما يكن فقد قاده بحثه عن مخرج يقيه غائلة التنازع الى القول - دونما سند من بحث أبان عنه - بألا وجود لشعراء ، موهوبين قبل ابن رازجه ، فان وجدوا - تقنين المصادرة - فلا بد أنهم كانوا نظاما لاشعراء (٢) وقد يكونون كذلك - فالموازنات من الأمور النسبية - الا أن المعطيات العلمية الموءسسة لم تكن بحال - فيما بين أيدينا من بحوث الرجل - هى التى قادته الى النتيجة التى توصل اليها بل التوفيق مرة ثانية بين المنزع الخاص وضوابط الدراسة العلمية وماتقتضى من أمانة .

ان ماتوصل اليه الدكتور لاينير - ان صح - جانبا آخر من المقولة ظل غفلا ومداره انطواوءها على حكم مزدوج - لاندرى له أساسا من موازنة - يغمط بموجبه لا الشعراء ذو الوجود الاحتمالى من قبل ابن رازجه فحسب وانما أترابه أيضا حقهم فى المنافسة على السبق الى نظم الشعر وعلى تميز الشاعرية ودرجتها خاصة ان مصادرنا حتى الآن لاتخلو حين التأريخ للأفراد من نسبة من المجازفة وعدم التحقق ، وهى على كل حال لاتسمح لنا بالقول جزما بأن شعراء كالذئب الكبير وابى فمين المجلسى ومينحن بن مودى مالك ومحمد الكريم بن الفاضل أصغر سنا من سيدى عبدالله بن رازجه

---

١) نفينا من قبل أن تكون العناية بعلوم اللغة والنحو لم تسبق القرن العاشر الهجرى راجع ص من هذا البحث

٢) O. Bah, Moctar: Introduction P. 27.

أو العكس [١] ، كما لاتسمح لنا الدراسات الأدبية المنجزة حتى الآن فى مجال الأدب والنقد بالقول ان الرجل كان من حيث الشاعرية ودرجة الشعرية متفوقا على الذئب الكبير الحسنى أو المجلسى أبوفمين تحديدا وان صح أن ماتبقى من آثاره وخبره يفوق عدة مرات ماتبقى لنا من آثارهما مجتمعة .

والحق ان فى شخصية الشاعر ابن رازجة - محور هذه المصادرة - مايغرى بتخليده والابقاء على شعره وذكره حيين ولو على حساب من سبقه أو عاصره من الشعراء ، فالرجل وفقا لمنظومة القيم المعيارية التى اعتمدها مجتمعه فى زمنه ويعتمدها حتى اليوم نسيب حسيب من أرومة قبلية عريقة فى محتدها ، راسخة فى تقاليدها العلمية ، بطونها من قطان الصحراء وسكان المداشر والمراكز القارة ، تتوزعها أقاليم البلاد على اختلافها وتصاهر من شاكلها وناسبها من قبائل الزوايا ، الأمر الذى أعطى روايتها استمرارية وآفاقا أوسع أفاد منها ابن رازجه الذى استطاع أن يضيف الى ما اكتسب بالمولد ، رصيدا علميا وافرا [٢] صقله بالأسفار والأخذ عن جهابذة الشيوخ بالمغرب [٣]

---

١) يصدر الذين تشيعوا للمقولة عن كبر سن ابن رازجه وبالتالى سبقه الى الشعر ويسلمون كذلك بتفوقه من حيث الشاعرية على أقرانه .

٢) يقول أحمد بن الأمين " كان متفننا فى فنون شتى منها النحو والعربية والبيان والمنطق والفقه والهندسة والرياضة والتربيع وغير ذلك " الوسيط ص ٢ ويقول أيضا " فطمحت نفسه الى العلوم فاشتغل بها حتى تضلع وكان ذلك على طريق خرق العادة اذ مدة طلبه لما نال ليست معتادة " الوسيط ص ١ .

٣) يقول ابن بنان البرتلى انه " أخذ عقائد أهل السنة وعلم المعانى والبيان والمنطق عن عدة من الأشياخ الجلة الذين أدركهم بالمغرب الأقصى والسوس كالسيد أحمد العطار وأبى مدين القاضى الأكبر والسيد أحمد بن يعقوب الولالى " فتح الشكور ص ١٦٣-١٦٤ .

ومجالسة الملوك (١) ومخالطة الاعيان (٢) فذاع صيته وانتشر فى أصقاع الصحراء حتى شارفت شخصيته ان تقوم فى جانب منها على معين لاينضب من مبتكرات الخيال الشعبى .(٣)

بعد أن سعينا فيما مضى الى التبصير بما أحاط ويحيط بمبحث النشأة من مزالق لايستقيم معها بحثها قبل نقاشها ، نبلور تباعا مفهومنا للنشأة ، شروطها ومقتضياتها وتمثلنا لنشأة الشعر الشنقيطى تاريخيا كما تبدت لنا .

ونعمد مباشرة الى تحديد مانقصده من النشأة : فنحن نعنى بها ظهور آثار الشعر يافعة غضة وتدرجها فى أطوار متراتبة حتى استكملت الهام من خصائصها الفنية فصلب عودها حتى فارقت لغتها الاعتيادى من الخطاب وتجاوزته الى التحبير الذى يتوخى من ورائه بلوغ الجمال واثارة الاحساس به لدى المتلقى ، ومن البديهى أن مفهوما كهذا يأبى للنشأة أن تكون ظاهرة فردية تقوم على رصد شعر شاعر بعينه مهما امتازوتفرد وطفت شخصيته ، فالأصح اذن أن نعتبر نشأة الشعر ظاهرة تاريخية عامة ترتبط فى ظهورها بالتطور الثقافى للجماعة فلا تتخلق جزافا وانما استجابة لواقع تاريخى محدد ذى حاجات نفعية أو جمالية محددة ،ومن هنا ، فان لنشأة الشعر الشنقيطى شروطا ومقتضيات

---

١) يقول أحمد بن الامين " ثم جعل يرجع الى بلده تارة والى مسقط رأسه أخرى ثم طمحت نفسه الى الاعتاب السلطانية وكان ذلك فى اقبال الدولة العلوية فاتصل بأمير المؤمنين مولاى اسماعيل رحمه الله فحظى عنده " الوسيط ص ١ .

٢) كالأمير سيدى محمد العالم ، والأمير أعمر آكجيل بن هدى والامير على شنظورة ،وابن زكرى وابن يوسف وابن الفاضل ، واليدالى وغيرهم.

٣) يقول أحمد بن الأمين " ولم ننقل شيئا من الغرائب التى تتداولها العامة من اخباره لعدم صحتها " الوسيط ص ٢٤ .

لابد أن تكون - فى اطار من خصوصية القطر وتطوره الخاص - قد تحققت والا فلا تكون ولعل من أهمها :

- أن يستوعب الانسان المنهاجى الأول الثقافة العربية الاسلامية الوافدة عليه فتتعرب مداركه ولسانه .

- ان يجد من جهده متسعا يفرغ فيه لما سوى العلوم الدينية المسيطرة بعد أن استشعر من نفسه قدرة على هضمها والتصرف فيها فأدخل بالتالى علوم الآلة لذاتها ضمن مقاصده .

- أن يقوم نشاط ثقافى ذاتى محلى طافح على غرار مامر بنا من وفرة نسبية فى الشروح والتعليقات والهوامش والانظام ومن تنوع فى المناهج وانتشار للتعليم واتساع فى رقعته .

- ولابد أن تبلغ البواعث الى قول الشعر مبلغا يتحلل الناس معه من التشنج حياله والصرامة معه وقد بلغ الباعث الدينى الى قول الشعر ذروته بعد هزيمة الزوايا فى حرب " شربه " التى ستزيد من جراء آثارها الدعائيات والتوسل والبكائيات والابتهالات وينبثق من خضمها فى نفس الوقت باعث جديد مرتبط ببنى حسان ومصاحب لقيام اماراتهم وحاجة أمرائهم الى الشعر .

ومن الجلى أن هذه المقتضيات والشروط تحققت تاريخيا أول ماتحققت أثناء مرحلة الكمون الايجابى فى الثقافة الموريتانية وهى المرحلة التى من الراجح لدينا أنها شهدت زمنيا نشأة الشعر فى بلاد شنقيط ، ولكن متى تحديدا وفى أى طور من أطوارها ؟ .

نرجىء الاجابة على هذا السوءال حتى نلقى الضوء على ظلال تصور نساوق له الحديث وتأبى له طبيعة الكتابة التى تتم فى الحيز الا أن يأتى متفاوتا : لقد بتنا فى ريب من أن الشعر العربى الفصيح

- بمفهومه العام وبجميع درجات الموزون المقفى ودون الدخول فى مقايسات - قد بدأ فى هذه البلاد منذ أن ظهرت بوادر العملية الشعرية على لسان ابن رازجه المفترض أنه عاش تقريبا مابين عامى ١٠٨٠ هـ و ١١٤٤ هـ، ويقوى شكنا وتزداد المحاذرة ان نحن وقفنا حيال شعر الرجل المدرج بين دفتى ديوان يحوى فى المعروف منه قرابة ألف بيت قد غطت الهام المعهود من أغراض الشعر .

ولاتشكو فى الغالب الأعم وحداته [١] من فسولة أو ضعف فى التكوين وانما جاء أغلبها سوى البناء يحذو فى يسر حذو النماذج التى يحاكيها دونما كبير افتعال، لغته جزلة ، منتقاة فى صلابتها وتنوع قاموسها وصحة معناها ومبناها [٢]، ولايقصر ديوان اليدالى [٣] ولاماتبقى من شعر الذيب والمجلسى أبى فمين عن شأو شعر ابن رازجة بحال من الأحوال ، هذا ان لم يبزوه أحيانا. فهل من المقبول عقلا أن يكون سجل فى غنى الذى ذكرنا ، وماسنذكر تفصيلا ، باكورة للشعر ؟ وهل يصح فى الافهام أن تكون النشأة الأولى علىهذا النحو من القوة والسواء ؟ وهل من المتأتى ذهنا أن تجىء من فراغ غير مسبوقة بتجارب أظهر تعثرا وأقل نضجا ؟

الواقع أننا مهما نطلق للخيال من عنان ونجعل للأهواء على النفس من سبيل فنحن - وفقا لما علمنا من سالف ظروف تراث القوم وللماثل والآنف من المعطيات - أميل الى افتراض حلقة مفقودة من شعر القوم ، فهل من آثار لها باقية تعزز ما اليه ملنا ؟

---

١) وهى طويلة - تصل أحيانا الى التسعين - طولا ينم عن مدى نفس صاحبها.

٢) يذكر أحمد بن الامين الشنقيطى انه لم ير من لحنه الا فى موضعين تعقبهما هو وردهما مبينا أن ابن رازجه فيهما على صواب ، الوسيط ص ٢، ٣ .

٣) يحتوى على قرابة ألف بيت كلها فى المدح والفخر والابتهال والمديح النبوى حققه تحقيقا أوليا الأمير بن أكاه عام ١٩٨٠ أنو اكشوط.

ان أقدم ماعثرنا عليه من اشارات الى الشعر فى المحيط الشنقيطى ينقسم الى أنواع ثلاثة متفاوتة ومتباينة القيمة التدليلية ، فمنها نوع عام ضعيف لاتفصح فيه المراجع عن صلة للمترجم له بممارسة الشعر ولكنها فقط تخلع عليه من الصفات العلمية والأدبية مايجعلنا نجزم بأن المعنى اعتنى درسا أو تدريسا وبمقدار من المقادير بالشعر من حيث هو علم.(١)

ومنها نوع ثان ضمنى فى دلالته ظنى فى اقامته الدليل على وجود للشعر اذ يبدو أن المسافة الفارقة مابين الشعر والنظم غير واضحة المعالم فى المراجع التى بين أيدينا ولامحددتها ، والا غضاضة لدى موءلفيها فى استعمال المصطلحين للدلالة على المعنى الواحد فابن بنان البرتلى على تأخره وعلو كعبه يسم الشعر بالنظم والنظم بالشعر ويورد النظم مقابلا للنثر(٣) كما يستعمل كلمة قصيدة لكل منظوم أيا (٢)

---

١) ان ابن بنان البرتلى أقدم من ترجم لعلماء المنطقة يقول على سبيل المثال لا الحصر إن الحاج أحمد بن عمر (ت ٩٤٣ هـ) " كان نحويا لغويا عروضيا " فتح الشكور ص ٢٧ وان محمدا بن أبى بكر (ت ١٠٧٣هـ) " كان عالما نحويا له حظ من التصريف واللغة وعلم العروض " فتح الشكور ص ١٣٠ وان الفقيه محمدا بن أبى بكر بن الهاشمى(ت ١٠٩٨ هـ) " كان نحويا لغويا أديبا " فتح الشكور ص ١١٤ .

٢) من ذلك مثلا أنه أورد لابن رازجه أبياتا شعرية صدرها بقوله " ومن نظمه قبل وفاته " فتح الشكور ص ١٦٤ ومنه كذلك أنه أورد قول محمد ابن الطالب أبى بكر :

من احتاج للمخلوق لانت قناته ... لديه واسقاه كوءوس مهانة
ولله سر فى احتياج عبيده ... اليه مصون فى اعز صيانة

فوسمه بالنظم . فتح الشكور ص ١٢٠ .

٣) فهو يقول فى ص ١٥٦ متحدثا عن الطالب صديق بن الطالب الحسن " وأجابه الشريف بنظم ونثر " وقصيدة الشريف لم يبق منها سوى قوله :

كان موضوعه ودرجة شعريته من عدمها[١] ، فكأن مفهوم الشعر لدى القوم بات مساويا قبل القرن الثالث عشر الهجرى لكل ماجاء على بحور الخليل بما فيها الرجز الذى سيختص لاحقا بالمتون التعليمية دون غيرها .

وأما النوع الثالث من الاشارات فصريح قطعى فى دلالته وتدليله على حياة للشعر فى المنطقة ،ويرد فى صيغ مختلفة كأن ينسب المؤلف نموذجا شعريا أو نماذج بعينها الى شاعر معين أو كأن يقول بصريح العبارة إن فلانا كان شاعرا أو يصف شعره بالجودة أو التوسط .[٢]

وقد تبينا من مراجعة مختلف أنواع هذه الاشارات أن من بين من عرضنا لهم ورميناهم بدرجة ما من درجات العناية بالشعر ، وعددهم اثنان وخمسون ، جاء ثمانية من أهل المنطقة الشمالية تتوزعهم المراكز القارة فى تناسب مع أقدميتها التاريخية ودرجة ازدهارها على النحو التالى :

من آزوكى :	فرد واحد
ومن ودان :	ثلاثة أشخاص
ومن شنقيط :	أربعة أشخاص

= الى الطالب الصديق من قد تحمنا ....
وهوما لايمكننا يقينا من تحديد ما اذا كانت تدخل فى مضمار النظم أم الشعر وان بدا انها الى الأول أقرب منها الى الثانى .

١) فهو يقول ان لأعمر الولى بن الشيخ المحجوبى " قصيدة فى علم الكلام وقصيدة مفيدة فى شرح الاسماء الحسنى وقصيدة طويلة فى نحو مائتين و ثمانية وأربعين بيتا يستسقى بها اذا أمسك المطر " ص ١٨١ .
ويقول كذلك " ان لعبدالله بن أبى بكر الولاتى قصيدة لامية فى نحو ثلاثين بيتا فى معانى الحروف أى حروف الجر استوفى فيها ما أتى به الاشمونى من معانيها " ص ١٦٢ .

٢) لم نر ضرورة لأن نضرب لهذا النوع من الاشارات مثلا اذ هو الغالب الأعم ، فليراجع ملحق الرسالة .

وجاء أقدم الثمانية من أهل القرن الخامس الهجرى ، يليه ثان من أهل القرن السادس ، فثالث من أهل القرن السابع ، فرابع من أهل القرنين التاسع والعاشر ، فاثنان من أهل القرن الحادى عشر الهجرى ، فاثنان توفيا مع مطلع القرن الثانى عشر .

وجاء ثلاثة وثلاثون من العدد الاجمالى من أهل المنطقة الشرقية تتوزعهم المراكز القارة على النحو التالى :

من تمبكتو : أربعة أشخاص .

ومن تشيت : أربعة أشخاص

ومن ولاتة : خمسة وعشرون شخصا

وجاء أقدم هؤلاء من أهل القرن التاسع الهجرى ، يليه آخر من أهل القرن العاشر الهجرى ، فتسعة عاشوا بعضا من العاشر وتوفوا فى القرن الحادى عشر الهجرى ، فاثنا عشر توفوا فى النصف الأول من القرن الثانى عشر فعشرة فى الربع الثالث من نفس القرن .

ثم جاء أحد عشر من أهل القبلة [1] أقدمهم ثلاثة توفوا على آخر القرن الحادى عشر الهجرى وثمانية توفوا جميعا قبل نهاية العقد السابع من القرن الثانى عشر ويمثلون رعيل ابن رازجه المشتهر .

ولانرى ضرورة لأن نستنطق النسب الكمية للشعراء حسب انتماءاتهم القبلية غير الا فكاك لنا من أن نشير على المستوى الهرركى الى أن التتبع التاريخى للاشارات المفيدة لصلة بالشعر فى الوسط الشنقيطى القديم أظهرت غياب شعراء ينتمون لقبائل بنى حسان العربية التى لعبت دورا حاسما فى تعريب اللسان الشعبى للسكان الأصليين وهو

---

١) لم تكن فى منطقة القبلة يومئذ مراكز قارة ينسب اليها السكان على غرار مراكز الشمال والشرق .

مالانستطيع فهمه الا فى ضوء ماترتب على مشاقفة الزوايا التاريخية من تغييب معمد لدور بنى حسان وماصحب ذلك من احادية فى الطرح الثقافى بتقاليده المسطورة والمروية .

ونخلص من هذه المعطيات الى أن الصلة بالشعر من حيث هو علم أو نظم أو فن تدرجت فى المحيط الشنقيطى فبدأت مبكرا فى المنطقة الشمالية من البلاد - منذ القرن الخامس الهجرى - على أيدى أفراد شتى قدموا فى أزمنة متفاوتة ومن جهات مختلفة ،وقد كانت ثقافتهم على قدر ايغالهم فى الزمن من نتاج بيئات أخرى ، ولم يكن الشعر بحال من الاحوال همهم ولا الأولى بالعناية فى اطار مهامهم الجديدة ، وتعززت هذه الصلة نوعا ما على أيدى نفر رحالة جابوا مثنى وفرادى بلاد المغرب وجالوا بين مراكز العالم الاسلامى ، ثم تحددت ابتداء من أواخر القرن التاسع الهجرى وطيلة العاشر والحادى عشر الهجريين فأخذت تتخلق على أيدى رجال فقهاء وفى ربوع المنطقة الشرقية أساسا ، المجاورة لأرض السودان الغربى والذهب ، بمراكزها الحضرية - ولاته خاصة - نشأة للشعر عامة أهم مايميزها انها من نتاج الهضم التاريخى للثقافة الاسلامية العربية ، محليا ، وان نماذجها شكت ضعف التجارب الأولى وتعثرها كما حملت مضامينها روح التدين الصارم الذى لم يكن للفقيه الشاعر فى تلك الازمنة فكاك من أسره .

ولما انحسرت الأضواء عن مراكز الشرق الموريتانى من جراء انبتات الآصرة بينها وبين بلاد المغرب بعيد وفاة أحمد المنصور السعدى عام ١٦٠٣م وماتلا ذلك حتى قيام الدولة العلوية عام ١٦٦٦م من فوضى وفراغ سياسى واحتدم التواجد الأوروبى على السواحل الموريتانية فازدادت أهمية

الطريق الساحلى وتفاقم بالتالى بوار الطرق الصحراوية الرافدة لمراكز الشرق ،خمد مادب أو لاح للشعر فى هذه الجهة من البلاد ، من نشاط فلم تبلغ تجارب أول نشأة محلية مداها ولم يكتب لها بالتالى أن تعطى كما أو كيفا شعرا يتناسب معها اذ تثبتت عند مستوى بعينه لم تجاوزه الى غيره وان تفاوت فى اطاره الشعراء .

ولما طرحت حرب شربيه بمنطقة القبلة وماحولها أوزارها وتفرغ " الزوايا " فقصروا جهدهم وطاقات من تبقى من رجالهم على العلم والتنمية وآتت أكلها موءسساتهم العلمية[١] التى أولت علوم اللغة العربيةعناية خاصة [٢] بلغت نشأة الشعر أوج اكتمالها على أيدى نخبة مستنيرة من علماء الزوايا أهل اللغة وفى كنف مشيخاتهم واحضان امارات بنى حسان الناشئة .[٣]

نحن اذن امام أطوار أو أدوار للنشأة ثلاثة متداخلة فنيا متوالية تاريخيا وتحتضنها بيئات للشعر ثلاث :

---

١) ان من أقدم المحاضر العلمية المعروفة لنا فى هذه المنطقة والتى أثرتها ابان مرحلة التحول المشار اليها : مدرسة محمد سعيد بن تكدى المتوفى على آخر العاشر الهجرى ومدرسة سيدى الفال الديمانى (ت ١٠٤٧ هـ) ومدرسة ابن الفغ الأمين (ت ١٠٧٧ هـ) ومدرسة عبدالله الحاج بن أبى المختار الحسنى المتوفى آخر ١١ هـ ومدرسة الفاضل ابن الفاضل الحسنى المتوفى كذلك فى آخر ١١ هـ ومدرسة عبدالله بن الطالب محمد جد الشاعر ولد رازجه ومحضرة الفقيه مينحن بن مودى مالك شيخه .

٢) لاتزال الى اليوم محاضر قبيلة " ادا بالحسن" معقل العربية وحصنها الحصين فى البلاد تبدأ تعليم الصبية برواية الشعر ومتون اللغةالبحتة قبل العلوم الدينية وهو عكس الحاصل فى المنطقتين الشرقيةوالشمالية.

٣) أسس هدى (ت ١٠٩٥ هـ) بن أحمد من دمان امارة الترارزه فى المنطقة بعيد انتصاره على أولاد رزق عام ١٠٤٠ هـ وسحقه جيش الزوايا فى حرب شربيه (١٠٥٥ هـ/ ١٠٨٥ هـ) وخلفه فى الامارة ابنه اعمر آكجيل (ت ١١١٤) واستمرت ولايته قرابة عشرين سنة وجاء من بعده اخوه = الشهير بعلى شنظورة (ت ١١٣٩ هـ) الذى ورث ابنه اعمر (ت ١١٧٠هـ)الحكم فدامت له الامارة قرابة ثلاثين سنة.

شمالية - البوابة والقمر - تستقبل قبل غيرها كل وافد عربى جديد ولكنها فى نفس الوقت طردية تفيض دوما بأهلها فتدفع الحياة دفعا الى الشرق والجنوب ، شهدت وفادة الشعر - الطور الأول - قبل غيرها ومع ذلك فلم تقم له بها حياة تذكر وان كنا لا نعدم على سبيل التفرد وربما الشذوذ من اعتنى به من أهلها فى تلك الأزمنة .

وبيئة شرقية شهدت - الطور الثانى - ميلاد الشعر فى بنوة شرعية للنسق الثقافى المصاغ محليا وفقا للنسق الدينى - التعليمى المسيطر تاريخيا على ثقافة البلاد عموما والمنطقة الشرقية خاصة .

ثم أخيرا بيئة القبلة ، الوارثة ، التى شهدت - الطور الثالث - اكتمال النشأة الفنية وانطلاق الشعر نحو آفاق أرحب .(١)

ان حلقات النشأة الثلاث هذه تبدو من وجهة نظرنا متسقة مع مراحل التطور الثقافى للبلاد ، فيصحب طور الشعر الوافد مرحلة الاستيعاب خاصة من الفترة مابين القرن الرابع الهجرى ومنتصف السابع ، ويواكب ميلاده المحلى الفترة الاولى من مرحلة الكمون حتى آخر النصف الأول من القرن الحادى عشر الهجرى ، بينما يواكب طور اكتمال النشأة الفترة الثانية من نفس المرحلة ابتداء من النصف الثانى من القرن الحادى عشر الهجرى وحتى آخر القرن الثانى عشر .

---

١) حاولنا أن نبحث تطور نشأة الشعر فى كل بيئة من الثلاث على انفراد فلم نعثر على مايقيم تصورا وثنانا عن الاستمرار فى تجشم المحاولة خضوع البيئات الثلاث فى اطار الوطن الأم لتطور مشترك يصعب معه التماس خصوصية مميزة لاحداها عن الاخرى ومالمسناه من تواصل وتكامل ثقافى بين المناطق المختلفة وكذلك ماوقفنا عليه تاريخيا من تبادل بينها للادوار والاضواء .

ومن البديهى أن هذه الأدوار الثلاثة قام كل منها على أكتاف جيل من الشعراء صبت آثارهم الشعرية فى اتجاه معين فرفدت تيارا شعريا بعينه ، اشترك افراده فى خصائص وسمات محددة ، فمن هم رواد كل جيل أو ممثلوه ؟ وماهى هذه التيارات التى جمعت بينهم؟.

لقد راد الجيل الأول ممن رصدنا ذكرا لشعرهم الامام الحضرمى وابراهيم الذكوانى ، ومن الذين أهملنا ذكرهم ضمن ملحق التراجم ، لعدم التحقق من صلة لهم بالشعر موءكدة ، ابراهيم الأموى ويحيى الكامل اللذين قيل إنهما كانا تلميذين للشاعر الفقيه القاضى عياض اليحصبى، ونضيفالى هوءلاء وأولئك الشاعر الأندلسى أبا اسحق الساحلى المعروف بالطوبجى الذى وفد الى بلاد السودان الغربى قادما من الحج بصحبة منسا موسى وتوفى عام ٧٤٧ هـ بتمبكتو (١) ونميل الىالقول بأن اقامته بين صنهاجة الجنوب مترجمى ملوك مالى اذ ذاك فى تمبكتو وبيرو ولانّه لم تكن لتمر دون أثر على صلتهم بالشعر وتعلمه ونضيف كذلك الى هوءلاء جميعا الشاعر أبا اسحق ابراهيم بن يعقوب الكانمى الذى شق بلاد الصحراء الغربية جيئة وذهابا فمدح المنصور بالله يعقوب بن يوسف سلطان الدولة الموحدية المتوفى عام ٥٩٥ هـ .(٢)

ان المعلوم لنا من خبر ممثلى هذا الجيل وماتبقى من شعرهم لايشجع ولايمكن من رصد اتجاه شعرى ذى سمات محددة خاص بهم، فما بين أيدينامن اخبارهم واشعارهم لايعدو فى الغالب بقايا ظنية من الرواية الشفاهية ، ومع ذلك فان لنا أن نسترشد عقلا ونستعين بالمتاح من القرائن لنتبين ولو على سبيل المقاربة والتخمين ملامح الشعر الوافد أو مرحلة ماقبل الشعر الشنقيطى ذى النشأة المحلية .

---

١) الاستقصاء ج ٢ ص ٧٤ .
٢) نفس المرجع السابق ج ٣ ص ٤٩ .

ومجمل القرائن كمبلغ الشعر فى البيئات الأصلية للوافدين وثقافة عصرهم وطبيعة ثقافتهم وامكانات البيئة المستقبلة ومدى احتمال حاجتها الى الشعر من عدمه وما أثر من أخبار عنهم أو تبقى لنا من انظام لهم ، يشير الى أن القوم تربوا فى بيئات المغرب الأقصى (بلاد السوس خاصة) والأوسط (تلمسان والاتوات تحديدا) فعبوا من متون الثقافة الاسلامية العتيقة ، مثلهم فى ذلك كسائر نظرائهم فى بلاد الاسلام المفتوحة التى استقبلت اللسان العربى مع بشائر القرآن الكريم على السنة الفاتحين والدعاة ، والقت بهم أقدارهم بين أقوام بدو لما تتعرب السنتهم أو تسكن آذانهم لتلقى الشعر فى وقت أخذ الدين بشغاف قلوبهم ، ومن هنا فقد لانفارق الصواب أن افترضنا أن من عنى بالشعر من بين هوءلاء الوافدين كان محدودا يعد بالآحاد عدا ، وان عنايته به قبل وفادته الى البلاد كانت أكبر وأركز ، وقد لانجانب الحقيقة كذلك ان افترضنا أن شعرهم لم يخرج من بعد مقدمهم وربما من قبله عن دائرة الأراجيز التعليمية ذات المضامين الدينية لمناسبتها لطبيعة المهمة التعليمية التى أنيطت بهم من يوم أن دخلوا البلاد .(١)

وعلى الرغم من أن شعر الامام الحضرمى (ت ٤٨٩ هـ) قد لايصلح مقياسا نموذجيا لشعر الفقهاء الوافدين ، لتميز الرجل ونبوغه ، الا أن ماتبقى منه (٢) يوءكد من جهة ما افترضنا من انتماء هذا الشعر

---

١) يقول القاضى عياض إن أبا الحجاج الكلبى حمل عن شيخه الامام الحضرمى المرادى أراجيز فى العقائد والأصول (عن رضوان السيد فى مقدمته لتحقيق كتاب المرادى الاشارة الى أدب الامارة ص ١٥) .

٢) يقول الامام الحضرمى مناقشا من منظور أشعرى مسألة الجبر والاختيار وخاتما بالانابة الى الله والتوسل :

الى الدائرة التعليمية - الدينية التى سيحتك بها المتعلم الشنقيطى قبل غيرها ، ويلقى الضوء من جهة ثانية أو ينبىء - مع الفارق النوعى - بطبيعة الاغراض التى ستلقانا لاحقا على أيدى الجيل الثانى ومن ظل سائرا على نهجه من شعراء الجيل الثالث .

وأما الجيل الثانى فقد راده ومثله على سبيل المثال لا الحصر شعراء كمحمد قللى ، ومحمد بن مسلم الديسفى ، وسيدى اعمر الشيخ ، ومحمد بابا بن محمد الأمين ، وأحمد بابا بن أحمد ومحمد بن يوسف واند عبدالله بن سيدى أحمد والشريف الشاب محمد بن فاضل ، وعمر الولى بن الشيخ محمدعبدالله ، ومحمد بن مسنة ، والكورى بن سيدى الفال ،والطالب أبى بكر بن على بن الشيخ ، والطالب محمد بن المختار ابن الأعمش ، وعبدالله بن محمد بن أحمد بن عيسى البوحسنى ، وأبى بكر الطفيل بن أحمد بن محمد ، وسيدى محمد بن موسى بن أيجل ، وعبدالله بن أبى بكر بن على، ومحمد بن الطالب أبى بكر ، والحاج أحمد بن أندعبدالله وغير هوءلاء ممن جاء شعرهم جدولا يرفد الاتجاه الدينى - التعليمى فى الشعر الشنقيطى ويمثل مرحلة المهاد أو ماقبل الاحتراف .

وقد راد الجيل الثالث من شعراء النشأة ومثله تاريخيا وفنيا الشعراء حبيب بن بلا اليعقوبى ، والحمد بن حامدت ، والمختار

= علمى بقبح المعاصى حين أركبها
يقضى بأنى محمول على القدر
لو كنت أملك نفسى أو أصرفها
ماكنت أطرحها فى لجة العذر
كلفت فعلا ولم أقدر عليه ولم
أكن لأفعل أفعالا بلا قدر
وكان فى عدل ربى أن يعذبنى
فلم أشاركه فى نفع ولا ضرر
ان شاء نعمنى أو شاء عذبنى
أو شاء صورنى فى أقبح الصور
يارب عفوك عن ذنب قضيت به
عدلا على فهب لى صفح مقتدر

الشاعر بن محمد بن ميجه والذئب الكبير الحسنى ومينحن بن مودى مالك ومحمد الكريم بن الفال وأبى فمين المجلسى وسيدى عبدالله بن رازجه وعمر بن بابا ، وعمر بن أحمد بن بوه ،والشريف أحمد بن فاضل ، وسيدى حبيب الله بن المتغمبر ، وحمى الله بن محمد الأمين الحنشى ، والطالب سيدى منير بن حبيب ، ومحمد عبدالله بن محمد ، والطالب محمد بن الطالب عمر الخطاط وألما بن المصطفى العربى ومحمد المختار ابن سعيد ، ومحمد بن على الولاتى ، وعلى بن الطالب عمر وغيرهم .

ان شعر هذا الجيل على الرغم من تداخله مع شعر الجيل السابق له (١) يرفد فى تميز اتجاه الشعر الاجتماعى المتحرر من قيود النزعة المدرسية ويمثل مرحلة النشأة الفنية أو بداية الاحتراف فى شعر الشناقطة .

وسنرى فى الفصل التالى - قبل أن نعرض لسمات كل تيار - الى أى مدى يصدق هذا التصنيف على أغراض الشعر والى أى حد تعززه معانى نماذجه التى بين أيدينا .

***

---

١) ينتمى " شعراء " كعمر بن بابا وابن أحمد بوه ، وأحمد بن فاضل وابن المتغمبر وحمى الله بن محمد الأمين الحنشى وغيرهم من الناحية الفنية على الرغم من تأخرهم زمنيا الى الجيل الثانى لا الثالث ، كما ينتمى شعراء كحبيب بن بلا والحمد بن حامدت والمختار الشاعر ابن محمد بن ميجه من الناحية الفنية على الرغم من سبقهم الاحتمالى زمنيا ، الى الجيل الثالث لا الثانى ، وهو ما اعتمدناه فى السرد السابق .

الفصل الرابع

أغراض ومعانى شعر النشأة

الفصل الرابـــــــــع

((أغراض ومعانـى شـعر النشـــأة))

يندرج مابحوزتنا من أشعار النشأة بمختلف أطوارها فى الدوائر الثـــلاث التالية :

أولا : دائرة الشعر الدينى :

وتنتظم أغراضا كالتوسل والمديح النبوى والزهد .

ثانيا: دائرة الشعر التعليمى :

وتنطوى على أغراض كالوعظ والارشاد ، والافتاء الشرعى ، والتأريخ لوفيات الأعيان وهام الحوادث والالغاز والأحاجى .

ثالثا : دائرة الشعر الاجتماعى :

وهى أوسع الدوائر الثلاث وتضم على التوالى أغراضا كالمدح والرثـــــاء والفخر والهجاء والغزل وشكوى الزمان والعتاب ، والاخوانيات والحنين الـــــى الأوطان .

وقد اختص شعراء الجيلين الأول والثانى بأغراض الدائرتين الأولى والثانية بينما عزفوا عن جل أغراض دائرة الشعر الاجتماعى خاصة ماجانب منها تعاليـــم الاسلام كالهجاء والفخر والغزل .

ولاتخرج العوامل الموضوعية التى وجهت أغراض شعر هذين الجيلين الوجهـــة الدينية التعليمية عما المحنا اليه منجما على مدار مامضى من هذا البحـــث ونجمع هنا ماتفرق منه فنقول بألا أولوية لثقافة ذات تقاليد مكتوبة قبـــل الاسلام فى المنطقة قيد الدراسة وان الاسلام لما قرت له الأنفس وداخل لسماحته ، شغاف القلوب ، وجدت صنهاجة الجنوب فى منابره الفيحاء شفاء لأدوائهـــــا فأقبلت تعب فى نهم ثقافته التى شكلت بعد لأى وجدانها الجمعى ، حتى بـــات

المنهاجي لايحقق ذاته خارج اطار الفكر الاسلامي وما اتسعت له أداته اللغة العربية وحملت معها من مخزون حضاري ، فلما أحس الشنقيطي رغبة في التعبير وآنس من نفسه قدرة عليه عبر عن قيم الاسلام المثلى وفلسفته تجاه الكون مستعينا بما وعى وثقف من معجم عربي مصدره ومرجعه فيه نص القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف وما أدار حولها أئمة الاسلام من دراسات .

وثمة عاملان - وربما أكثر - يفسران هذه الوجهة وقد يفسرانها : أحدهما ماجبل عليه الانسان من حب للخير وجزع من الشر خوفا من الفناء ، أو رغبة في البقاء ، وثانيهما مايتهدد كيانه ويمض عيشه من أخطار طبيعية لاقبل للبدوي الشنقيطي بمواجهتها لتخلف أدواته وعجزه التاريخي عن تطوير دولة ممركزة .

وقد أدى تقاطع هذه العوامل المختلفة الى توجيه التجربة الشعرية منذ بدايتها نحو أغراض دينية تعليمية نعرض لها تباعا .

أولا : دائرة الشعر الديني :

التوسل والانابة :

ان الحدود الفارقة بين أغراض الشعر الديني غير قطعية في فصلها ولابينة المعالم أو محددتها ، فثمة دوما تداخل أساسه وحدة الجدول الرافد فكريا للتجربة واحادية النموذج المحاكى وتقارب العواطف الدينية التي يصدر عنها نظام المحيط الواحد ، ومع ذلك فالتوسل من أقدم وأكثر أغراض شعر الجيل الثاني تميزا ، وربما لايضاهيه في بروزه غير المديح النبوي .

ان من عادة شعراء ماقبل الاحتراف ومن سار على منوالهم من عصور الشعر اللاحقة بدء ابتهالاتهم التوسلية باقرار الربوبية للواحد الأحد واحقاق الرسالة المحمدية واستبقاء النعماء بالثناء وتقييدها بالحمد يقول محمد قللي :[1]

---

١) اعتمدنا نسخة الموءرخ الأديب المختار حامد من هذه القصيدة .

الحمد لله مادام الوجـــــود له
حمدا يبلغنا منه الرضـــــا ابدا
ثم الصلاة على خير الورى أحمـــــد
وآله الكرمـــــا وصحبه الزهـــدا

ويقول اند عبدالله بن سيدى أحمد:(١)

خير حمـــــــد الالـــــه وهو باق لن يـــــزالا

وأما التوسل ذاته فمناجاة وابتهال الى الله من غير واسطة بمأثور الدعـــــاء وعام المصلحة كقول محمد قللى :

يارب هيىء لنا من أمرنـــا رشدا
وانشر علينا من الستر الجميـــل ردا
وافتح لنا منك فتحا غير منقطـــــع
واجعل لنا فرجا وابعث لنا مـــــددا
ولاتكلنا الى تدبيـــــر أنفسنـــــا
فالنفس تعجز عن اصـــلاح مافســـدا

وله موجبات شتى منها أن يتخذ الشاعر من الثناء على الجليل بأسمائه الحسنى سبيلا الى التضرع فيمعن فى الطلب مستوحيا دلالة الاسم الذى به يدعـــو كقول محمد قللى :

وقد مددت يدا بالذل مشتكيـــــا
اليك ياخير من مدت اليه يـــــدا
فلا تردنها يارب خائبـــــــة
فبحر جودك يروى كـــل مـــن وردا
أنت الكريم الذى نعمـــــاه فائضة
على المقر به ربا ومن جحـــــدا

---

١) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ١٥٩ .

أنت الرحيم الذى رحماه شـــــــاملة
كل الورى من غوى منهم ومن رشـــدا

ومنها أن ينيب الشاعر فى ذل وانكسار ويعترف بتفريطه فى جنب الله من باب أن من أقر لله باساءاته جاد الله عليه بمغفرته يقول محمـــــــد قللى :

أنا المسيىء أنا عاصى العصـــــاة اذا
ومن له سيئـــــات فاقت العـــددا

أنا المقر بأفعالى التـــــى كثرت
لكننى أرتجى خير الـــورى حمـــدا

ومن موجبات قبول الدعاء وبلوغ المرام كذلك التشفع بالنبى المصطفى كقول سيدى اعمر الشيخ :(١)

انى فقيـــــر الى عفـــو ومرحمـــة
وانت أدرى بما فى القلب من ألـــم

وقد أتيتك أرجو منك مكرمـــــــــة
فانت أهل التقى والجود والكـــــــرم

فالحال يغنى عن الشكوى اليـــك وقد
عرفت حالى وان لم أحكـــه بفـــــم

فاشفع لعبدك واجبر كسره فلقـــــد
أودى به الكسر مما نال من جـــرم

أو كقول على بن الطالب عمر فى تخميسه لقصيدة سيدى منير :(٢)

وسيلتى ياعلـــــــــــى هذا الرســـول الرضـــى
ناديته ياصفـــــــــى بباكـــــم حـــــاجوى
ياأحمـــد القرشـــى

---

١) اعتمدنا مخطوطة الموءرخ الأديب المختار حامد من هذه القصيدة .
٢) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ٢٠٠ .

وقد يردفون من بعد النبى بآله وصحبه من الخلفـــاء وبتابعيهم وباقـــى الأنبياء والصالحين والأولياء وتندر الحيدة عن هذا التوالى ، يقول ســـيدى اعمر الشيخ :

يا أحمد يا أبا بكر وياعمـــــــر
نزيلكم فى أمـــان غير منهضـــم

ويقول محمد قللى :

وسيلتى خير من ترجـــى شفاعتـــه
محمد خير محمود لمـــن حمـــــدا
والأنبيا كلهم والآل أجمعهـــــم
وصحبهم ومن اهتدى بهم وهـــــدى

ويقول على بن الطالب عمر :

ببابكم حاجـــــوى
يا أحمـــد القرشـــى
بالأكرمين استغاثـــا
مثنى فرادى ثلاثـــا
ذكرانهم والاناثـــا
وقد أباه غياثـــا
كل ابى ابى

ان قصيدة التوسل تحتوى بالاضافة الى آجل مشاغل الشاعر على الملح من أمور عاجلته كطلب الرزق الحلال والنصر على الأعداء ، يقول محمد قللى :

يامن خزائنه ليســـت بنافـــدة
يامن مواهبه لاتنقض أبـــــدا
انا سألناك يامن لم يزل صمـــدا
ولم يكن والدا ولم يكن ولـــــدا

أجب دعانا وعاملنا بمغفـــــرة
لم تبق عيبا ولا ذنبا ولاكمـــــــدا
وامنن برزق حلال واسع عجـــــل
من حيث لم نحتسب يأتى لنا رغـــدا
مبارك وسبيل الخير مصرفـــــــه
يكون ذخرا لنا عند الحساب غـــــدا
وكن لنا ناصرا يامن بعزتـــــــه
نرجو الفلاح على من ضرنـــــا قصـــدا

ان قصيدة التوسل لدى شعراء ماقبل الاحتراف حمد فانابة الى الله ودعـــــاء فتضرع اليه بأسمائه وتشفع بجاه النبى وآله واستنفـــار للرسل من قبله ولخلفائه الراشدين من بعده وللصالحين والأولياء عسى مالك يوم الدين أن يعتق رقـــاب الشاعر والأقربين من النار ويمن فى الحياة بزينة الدنيا من مال وبنين وجـــاه وعزة ونصر على الأعداء .

ولم يرد التوسل لدى شعراء الجيل الثالث - اذا ما استثنينا اليدالى- كغرض أساسى قائم بذاته ولذاته وانما تخلل بعضا من أشعارهم - كالمديح أو جاء مقطعات مستقلة وابياتا متفرقة قيلت فى حالات شعورية مكثفة جزعـــــا لمصاب جلل أو أسى على مافات أو ولى من العمـــر أو خوفا ورهبة مـــن الموت وما بعدها من حساب عسير ، يقول ابن رازجة بعد أن أدركته الشيخوخـــــة وأجأه مرضه الأخير الى الظل :(١)

تبهجت عند الموت والموت بغيتـــــى
ولو كنت هتاكا لما اللـــه حرمـــا
وطابت بها نفسى لأنى قـــــــادم
على خير مقدوم عليه وأكرمـــــــا

---

١) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ١٦٤

عســـى غافر الزلات يغفر زلتـــى

ويستر أوزارى وماقد تقدمـــــا

ويقول المجلسى أبو فمين شافعا التوسل بالمديح ومشفعا رسول الله :(١)

ألا يارسول الله يامن حميـــــــه

وان جر أدهـى مايجـر منيـــع

دعوتك لما أثقلتنى جرائمـــــى

وانت على شط المزار سميـــــع

لتشفع لى يوم الحساب شـــــفاعة

أنال بها مالم ينله مطيـــــع

وانت شفيع المذنبيـــن وغوثهـــم

اذا لم يكن للمذنبين شفيـــــع

ولا ذخر لى الا هواك وانـــــــى

سميك واسم النافعين نفـــوع

ويقول أيضا فى تركيز عاطفة شبيه بالذى قبله وجامعا فى الأبيات التاليـة جل مكونات قصيدة التوسل :(٢)

يامن أراد به الرحمن منزلـــــة

فوق المكارم عند اللـــه تدخـر

يابالغا من علـــو القدر منزلة

مافوقها غير مالايدرك البشـــــر

كن لى شفيعا اذا ما الناس أجهدها

خوف الملائك والنيران تستعـــــر

---

١) من نصوص شعرية أمدنا بها الباحث الموريتانى أحمد بن الحسن وامده بهاقريب الشاعر الباحث بالمعهد الموريتانى للبحث العلمى الاستاذ محمد يحي بن اللوه.

٢) نفس المصدر السابق .

وكن رفيقى وكن أنسى وملتجئـــى لايفزعنى ذاك الهول والغـــرر
عليك من صلوات اللـــه أشرفهـــا مادامت الأرض يحيى وجهها المطر

ويعتنى اليدالى لما اشتهر به من ورع وعزوف عن الدنيا ومغرياتها دون سواه من أترابه بالتوسل عناية خاصة تتفق وتوءكد ماذكرنا من قبل وشاع عن الرجل من الزام صارم للشعر بوظيفة أخلاقية دينية ونفى حازم لكل مايجانف الســـير فى ركاب هذه المهمة .

وسواء أجاء التوسل لدى اليدالى قائما بذاته ، منفصلا أم جاء مدبجـا أو منبتا أو مذيلا لقصيدة المديح النبوى فانه لم يخرج عن مألوف الدعـاء بخير الدنيا والآخرة ، كقوله :(١)

رب امح عنـــى ماكـــان منـى
سوءا فانـــى بـــك اعتصامـــى
وحط ذنبـــــى وأحـــى قلبـــى
فأنت ربـــــى محيـــى العظـــام
كفـــر ذنوبـــــى واستـــر عيوبـــى
واكشـــف كروبى واغفـــر أثامـــى

والتشفع بالرسول صلى الله عليه وسلم فى مثل قوله :(٢)

رب بجاه أحمـــدا أفضل خلق الخالق
ارزق سعيدناالهدى ياخير هـــاد رازق
سدد وأصلح أمـــره يارب واشرح صدره
وارفع دواما قدره بأكـــرم الخلائـق

ومألوف استيحاء أسماء الله الحسنى اذ يقول :

قنا البلايـــــا وافتح لنا ، يا
جم العطايـــا ســـبل السلام
وارزق لنا ، يـا بارى البرايـا
عند المنايـــا حســـن الختـــام

---

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٢٢٦ .
٢) محمد سعيد اليدالى : الديوان ص ٦٥ .

ولكن اليدالى مع ذلك نحا فى صياغته لقصيدة التوسل منحى مغايرا لمنحى شعراء الجيل الثانى سنعرض له فى فصل الخصائص لاحقا.

((المديح النبوى))

ان مديح نبى الهدى وصحابته قاسم مشترك من ضمن قواسم أخرى بين جميع حلقات تطور الشعر فى بلاد شنقيط منذ نشأته الأولى وحتى يومنا هذا ، فما من شاعر الا له منه حظ معلوم ونصيب مفروض لابد آتيه اما فى مبدأ صلته بالشعر تيامنا أو على آخر عمره احتسابا ، تبركا أو تكفيرا عما سلف من هزل القول أو مجونه ، هذا ان لم يختص به طوال تلك الصلة أو هذا العمر .

ولايعدل هذه الاثرة سوى مايدمغ قصائد المديح النبوى من تشابه يصل بها أو يكاد الى حد التطابق الذى نوشك معه أن لانتبين شاعرا من آخر .

وعلى الرغم من أن لهذا التشابه أسبابه الجوهرية كصدور الشعراء عن منظومة مرجعية واحدة الا أن درجة عمق وصدق التجربة الدينية لشعراء النشأة ضالعة مساعدة على هذا التماثل بل التكرار ، فنحن قلما نجد من بينهم من مدح أو قل استطاع أن ينقل الينا الاحساس بأنه انما يمدح المصطفى حبا فيه وفناء ، بل تشوب مدحهم باستمرار ظاهرية وسطحية ونفعية ، قوامها دوما طلب المثوبة العاجلة وتأدية الواجب الدينى ابتغاء الجزاء الأوفى .

ولعل الأمر على هذه الصورة من التشابه واجترار قيم قصيدة المديح النبوى ليس بخاص ولابمنحصر فى الشعر الشنقيطى وانما يشيع فى الشعر العربى - الاسلامى عموما وان اخترقته استثناءات ولكننا نضرب له الأمثال من واقع شعر النشأة المحلية بجيليها الثانى والثالث فحسب .

ان أول ماعرض له شعراء النشأة فى مديحهم من بعد المقدمة ان وجدت هو الوقوف أمام صفاته صلى الله عليه وسلم المعنوية وخصاله الحميدة ، وهنا لم يفارق شاعر منهم الآخر اللهم الا فى الصياغة أما الروءية فظلت واحدة ودرجات الانفعال حيال الموضوع آخذ بعضها برقاب بعض ، يقول سيدى اعمر الشيخ (ت ٩٦٠ هـ) :

ياسيد الرسل يامن ضيف ساحته
يبيت بالأمن فى خير وفى نعم
يا أكرم الخلق من حاف ومنتعل
يا افضل الناس فى ذات وفى شيم

فيعيدله ابن رازجة (ت ١١٤٤ هـ) الرجع قائلا :(١)

أيا من سقت الفاظماء بنانه
كما وهبت الفا كما هزمت الفا
يد سميت فى فادح الفقر راحة
كما سميت فى كفها للعدى كفا

ويسمع اليدالى (ت ١١٦٦ هـ) قوله :

جم الخصال جم المعالى
جم النوال نداه هام
ناء مداه هام نداه
مول عداه حد الحسام

وان قال أحمدو بن أحمد (ت نحو ١٠٩٠ هـ) (٢) :

محمد خير داع الى سبيل الرشاد

---

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٥ .
٢) نقلا عن كناش للموءرخ الأديب المختار بن حامد يحتوى على أشعار مختلفة .

استمرأ اليدالى نفس الفكرة فقال :

هادى العبـــاد هادى الأيـــادى

جال الاعبـــادى جـــال الظـلام

وحورها ابن رازجه محبرا فقال :

تأثل منك النجم كيفيـــة الهدى

وشمس الضحى الاشراق والعنبر العرفـــا

ورشدك ما ابداه فانكشف العمـى

ووجهك ما ابهى وقلبك ما أصفـــى

ان من عادة شعراء المديح اذا ما أفاضوا فى خلاله صلوات الله عليه وسلامه وجاءوا بالمستطاع من صفاته ووقفوا حيال سائر ضروب فضله ، أن يعكفوا على باب معجزاته معددين لها فى ترتيب وتوال منذ مولده الميمون والى أن يبعث يقول الحمد بن حامدت :

بدت عجائـــب شـــتى

أيام ذاك المـــلاد

شاعت وذاعت وراقـــت

جازت حدود اعتيـــاد

ويقول ابن رازجه :

لمولدك الميمون آى شـــــهيرة

شفت غلة الراوين من قولها الشـــفا

ويعدد سيد منير بن حبيب ما أجمل ابن رازجة من آياته فيقول :

من منه ساعـــة وضـــع

ضاق العراق القصـــى

ونار فارس طـــــاف

لسيدنا الأبـــــدى

ومنه ســـــــاوة غاضـــــت

أنهارها والزكـــــــــى

ويضيف الحمد بن حامدت قائلا ان :

قصـــــور كســـــرى أضاءت

لأمـــــه فى المهـــــاد

وايقن الكفـــران قـــــد

عدت عليه العـــــــوادى

ويعدد اليدالى مسهبا معجزاته من يوم أن بعث نبيا ورسولا فيقول :

والذئب عنـــــا والجذع حنـــــا

لـــــه وأنـــــا كالمســـــتهام

والصخر ســـــلم والجو أظلـــــم

لـــــه تكلـــــم موتى الرجـام

والشـــــاة أبدت والشمـــس ردت

لـــــه أعـــدت دار الســـلام

والضـــــرع درا والوحش قـــــرا

لـــــه اقـــــرا ضب الاكـــــام

آيات طـــــــه ليست تباهـــى

ولاتناهـــــــى علـــى الدوام

أو هى كما قال ابن رازجه :

فلا الدهر يحصيهن عدا ولو غـــدت

مدادا لياليه وايامه صحفـــــا

لقد اشترك شعراء النشأة بطوريها المعلوميـن لنا - الثانى والثالث - فى طرق صفات ومعجزات الرسول فى قصائد مديحهموفى تضمينها كذلك بعضا من التوسل لكنهم افترقوا فى مسلكهم مرتين : مرة حين عمد الجيل الثالث دون الثانـى الوصف ملامح وجوارح الرسول الكريم فى مثل قول اليدالى :

وجـــــه جميـــــل طرف كحيـــــل

خـــــد أســـــيل فى الفخر ســام

(.....)

وجه كريـــــــم علـــــى ا لدوام

(.....)

خلق صحيـــــــح خلـــــق مليـــح

نطـــق فصيـــــح اســـنى الكـلام

ومرة حين وقف نفس الجيل - اقتداء لا ابتداعا - حيال اخص أشيائـــه ومتعلقاته الشريفة كما فعل ابن رازجه حين ضرب صفحا عما هام بـــــه الشعراء من"ذكر البان والحقف ذى النقى " ليلثم نعله الشريفة فقال :

فان لم تر النعل الشريفة فانخفـــــض

لتمثالها واعكف على لثمها عكفا

وقف رائما اشمام ريا عبيرهـــــــــا

حشاشة نفس ودعت جسمها وقفـــــا

ولاترض فى تقبيل الف تحيـــــــــه

اذا امكن التقبيل ألفا ولا ضعفـــا

بدت روضة مسكيـــة النشر أوشكـــــت

لطيب شذاها العين أن تحسد الأنفـا

***

((شـــعر الزهـــد))

لم نعثر ضمن أشعار النشأة على شعر صوفى حقيق بهذا الاسم، وقد رأينا أن ننظم تحت هذا العنوان مقطوعات وقصائد قليلة وأبيات متفرقة الباعث الى نظمها الورع والتبتل وترد دون شطح أو اغراب وان أومأت من بعيد الى العام المشترك من مصطلحات الصوفية التى قد تعلق بأذهان الشعراء من جراء تكرار المدائح النبوية التى كثيرا ماوردت مصاحبة لها .

ويبدو أن لهذه النوعية من الأشعار وظيفة تربوية يرمى الفقهاء من ورائها الى الوعظ واستمالة القلوب زهدا فى الدنيا وترغيبا فى الدار الآخرة ، يقول اعمر الولى بن الشيخ المحجوب بعد أن فكر مليا فيما خلف وراء ظهره من عمره وقدر لما هو آت :(١)

فعريت للغسال يغسل جثتى
كأنى ماقد عشت يوما من الدهر
والقيت فوق النعش كيما يقودنى
الى بقعة ظلماء مظلمة القعر
ويتبعنى الأهلون كل بجمعهم
ويبكون دمعا خاضعين على قبرى
وادخلت بيتا مظلما مع غربتى
واسكنت تحت اللحد والترب والحجر
وتنهشنى الديدان من كل جانب
وتسكن فى الأحشاء من وسط الصدر

---

١) حمادى بن المرتجى : الشعر فى ولاته فى القرن الرابع عشر الهجرى ، المدرسة العليا لتكوين الاساتذة انواكشوط ١٩٨٠ .

وكنت ببطن الأرض وحدى مجـــــــردا
رهينا بأعمالى الى موقف الحشـــــر
فواجهت عاضين عبوســـــــــــين
واجلست قهرا للسوءال فما عـذرى (هكذا)

وشبيه بهذا اللون من الزهد ذى اللهجة المنكسرة والنغمة الحزينة قـــول الطالب محمد بن الطالب عمر فى جزع [١].

مالى على اللهو واللـــــذات واللعب
عكفت ويحى فما يكون منقلبـــــــى
ولى الشباب واقبل المشيـــب ولـــــم
افق ولست بذى علـــــم ولا أدب
قد ينقضى اليوم ثم اليوم يتبعـه
شهـر وعام بل وأعوام ولـــم أتـب
مرخى العنـــــان بروضة الهوى ولقد
سودت فى نيلها وفرا مـــن الكتب
اظل حلف الأمانى والهوى حكمـــــى
وللمحال من الأيام فى طلـــــــب

وقد تكون رائية الحاج أحمد بن اند عبدالله التى قال ابن بنان البرتلى انها فى علم التحقيق [٢] من هذا القبيل أو شبيه به الا أن ماتبقـــى منها لايتيح لنا أن نحكم عليها حكما نهائيا اذ لايعدو قوله :[٣]

---

١) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ١٢٩ .
٢) ابن بنان البرتلى : نفس المرجع السابق ص ٤٣ .
٣) ابن بنان البرتلى : نفس المرجع السابق والصفحة .

فبشرى اله الصابرين بما لهـــــم

تلاشى بلائى اذ به بان لى ســـرى

فكل بلاء ســـره وصف طرفـــــه

فان ساخطا خط وان راضيا بـرى

وهو ما قد نستشف منه أن شعر الزهد بدأ ينحو منحى أعمق من ذى قبل وأقرب الى التصوف على يد شعراء الجيل الثالث الا أننا نحاذر من الجزم بذلـــك لقلة مابأيدينا من نماذج تقيم الدليل القطعى ، وضوح لايقبل مناكفة ومع ذلك فاليد الى يصف الرسول الكريم بأنه :

عين الكمـــال عين الجمـــال

قطـب الجـلال قطب الكـــرام

وبأنـــه :

قطـب الوجـود مغنى الوفـود

مدنى الأســود الى الحمـــام

(.....)

طود الجلالـــة بادى البسالـــة

رغم الرسالـــة بدر التمـــام

وعلى بن الطالب عمر يشير الى صدور الكائنات عنه فيقول :

من منه الأحكـــام فاضـــت

على العبـــاد فهاضـــت

على النفوس فراضـــــت

ومنه ســـاوة غاضـــــت

أنهارها والزكـــى

ويذهب ابن رازجه الى ذلك أو قريب منه حين يقول :

تأثل منك النجم كيفيـــــة الهـــدى

وشمس الضحى الاشراق والعنبر العرفـــا

(.....)

وما ملكوت العرش عنه مغيبـــــــــا

يعاينه والعين نائمة كشـــــــــفا

***

ثانيا : دائرة الشعر التعليمى :

اعتمد المتعلم الشنقيطى ابان مرحلة الاستيعاب حفظ المتون المنظومة منهجا فى دراسته يتلاءم وظروفه العامة ، فلما صبا الى تشكيل ما استوعب فى قالب خاص به - معلما هذه المرة - وجد من جديد فى الأراجيز المنغمة والمزدوجات الموزونة خير معين وانجع وسيلة فطفق ينظم فيها ما احسن تمثله من علوم الملة بل كل ماعن له وان نظم من قبله ولم تكن به حاجة اليه ملحة .

وقد سار النظم التعليمى المصاغ محليا فى تناسب من حيث الكثرة والقلة مع درجة الهضم والتمثل التاريخيين للثقافة العربية الاسلامية ومن هنا فنحن نميل الى القول بأن نشأة الشعر التى واكبت مرحلة الكمون الايجابى فى الثقافة الموريتانية ، شهدت من اللون التعليمى أكثر بكثير مما بقى لنا، خاصة ان شعراء النشأة بمختلف اطوارها كانوا هم فقهاءها وعلماءها الذين أنيطت بهم المهمة التعليمية .

وتشترك جميع منظومات الشعر التعليمى فى كونها ترمى بوجه من الوجوه الى نظم الضوابط العلمية وحفظها وفقا لميل الفقهاء والتخصص الغالب على ثقافة كل منهم بينما تفترق فقط من جهة المجال العام ومايحوى من موضوعات فرعية : ففى مجال علوم الشرع جاء الشعر التعليمى نصحا وتوجيها موظفا لصالح نظامه من الفقهاء والأولياء كقول الشريف محمد بن فاضل .(١)

واخدم ولا تفتر جميع الأوليا
فهم على منهاج خير الأنبيا

---

١) ابن بنان البرتلى : نفس المرجع السابق ص ٢١٣ .

فرب كلب لذوى التفضيـــــــــل

ذكره الرحمن فى التنزيـــــــــل

فكيف لو يخدمهم انســـــــــان

من وصفه الاســـــــلام والايمـــان

ومنه ماجاء فتوى شرعية فى مسألة من مسائل الحياة اليومية الملحة فـــى مجتمع لم تفلح التعاليم الاسلامية من تخليصه من شوائب العادة ، يقـول الفقيه سيدى أحمد بن سيدى عثمان :(١)

ياطالبا بالوصل نيل الأجـــــر

ليس بوصـــل العيد غيـــر الوزر

أما دخول الدور يوم الفطـــــــر

فليس ممدوحا بهذا القطـــــــر

لأنه يوم تبـــــرج النســـــا

فمن يبحه للورى فقـــــد أســـــا

الا لمن غض عن المحـــــــــارم

طرفا ولم يصـــغ لقول آثـــــم

فكم نساء قد رأيتم ورجـــــــال

يبغون بالعيدين ممنـــــوع الوصال

وليس ذا يحتاج للشهـــــــــود

لأنه من أوضح المعهـــــــــود

كفى من الحجة قوله عـــــــلا

لاتدخلوا بيوتا غيـــر، فاعقـــــلا

واما فى مضمار علوم الآلة التى تأتى فى المرتبة الثانية فقد نظمـــوا وفيات الأعيان والهام من احداثهم فعمدوا باستمرار الى ذكر تاريـــخ

---

١) ابن بنان البرتلى : نفس المرجع السابق ص ٥٢-٥٣ .

الموءرخ له فى عبارة ان حسبت بنظام الجمل (أبجد ، هوز ، حطـــــى) مايقابلها من النقط استطعت الوقوف على معطيات التأريخ كاملـــــة كقول سيدى أحمد بن سيد محمد بن ايجل ناظما وفاة الحاج أحمد اند عبدالله والحاج سيدى بن الأمين المسلمى والودانى الشهير بالضرير أحمد :(١)

ونجل اند عبدالله قطب ولاتـــة
لما شق مايخفى عليها بمحفـــل
وفى عامه هذا من الحاج سيـــدى
تصدع ركن للتقى والتبتـــــل
ومثلهما الشيخ الودانى أحمـــد
الامام الضرير ذو السنا المتهلـل
ثلاثة أعلام مضوا لسبيلهـــم (٢)
وكانوا على الدين القويم المكمـل

واما انظامهم فى اللغةوعلومها فكثيرة متنوعة(٣)ومن أنماطها استفسار سيدى محمد بن موسى بن ايجل قائلا(٤):

الا يا امام النحو قطب زمانـــه
ومن انت ذو ذهن صقيل وذو فهـــم
فهل لأنى ايان آن مصـــــادر
تبدت لكم أنوارها عن ذوى العلم

وجواب عمر بن بابا بن عمر بن على له :(٥)

أيا سائلا مستفهما عن مصـــــادر
لآن أيان مع انى فزت بالغنـــم

---

١) ابن بنان البرتلى : نفس المرجع السابق ص ٤٦ .
٢) والرمز فى شق وميم مـــا
٣) راجع بعضا من الاشارات التاريخية اليها فى ملحق الرسالة .
٤) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ١٨٣- ١٨٤ .
٥) نفس المرجع السابق والصفحة .

فرد لجة القاموس وردا تجد بهـــا
مصادر للفعلين ان كنت ذا كـــرم
فآن له اين فقط وانى لـــــه
أنا وانا من بعد انى بلا وهـــم
وشكلك ذال الذهن بالضم غفلـــة
وحقك لا أنى قصدت اخا الحلـــم
فذهن بكسر الذال خذه تبرعـــا
ولى فادع بالغفران والحسن للختـم

ويتوسع الشعر التعليمى مع شعراء الجيل الثالث توسعا ملحوظا وينحو مع ابن رازجة نحوا جديدا لم نعهده من قبل ، ينبنى هذه المرة لا على التوجيـــه والارشاد وتقرير الأحكام الشرعية والفتاوى وانما على الالغاز والتعجيـز أو التعالم الذى يصل الى حد التباهى ، فهو يقول مخاطبا علماء الزاوية الناصرية بالمغرب بعـــد أن أتى ملغزا على جل ماوعى من علوم الشرع وعلـــوم المتمات .(١)

ان تستزيدوا ازد لكم على عجـــل
سيفى ذا بيدى من غمده ظهـــرا
هل من شجيع وماهر يبارزنـــى
كأنه أسد اقرانه بهـــرا
عادة ثورين دائما اذا التقيـــا
ينتطحان الى هروب من نفـــرا
يحتاج ليث لاخراج مخالبـــه
فذا السوءال الى الجواب مفتقـــرا

---

١) ابن رازجه : الديوان ص ١٥٢ .

فكلكم بجوابه ان أمكنكـــــــم

نظما ونثرا كمـــا اليكم ســـــطرا

ويبدو أن الرجل لم يقنع بتحدى علماء الزاوية الناصرية اذ سارت الركبان بينه وبين حاضرة فاس العلمية بلغز آخر أداره من حول قوله تعالى (ثم استخرجها من وعاء أخيه)(١) وفيه يقول :(٢)

شيوخ البيان الذائقين حـــــــلاوة

من العلم لم تطعم لغير ذويـــــه

سلام من الله السلام ورحمـــــــة

يعمانكم من خامـــــــل ونبيه

سوءال غريب دون شنجيط ارضـــــه

من البعد تيه يتصلن بتيـــــــه

اذا شبه الهادى بها وجه مرشـــد

تشابه فى عينيه وجه متيـــــــه

قراه لديكم اهل فاس جوابـــــــه

بنص جواب فى البيـــــان وجيـــه

سما بكم علم البيـــــان وحقه

اذا ماهوى ظن بمختلجيـــــــــه

اسائلكم ماسر اظهـــــار ربنا

تبارك مجدا من وعاء أخيـــــه

فلم يأت عنه منه أو من وعائه

لأمر دقيق جل ثم يخيـــــــــه

وقد أجاب عالم الزاوية الناصرية سيدى أحمد الهشتوكى الرائيـــة الأولـى

---

١) الآية ٧٦ من سورة يوسف .

٢) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٨ .

بعد أن كلفته لاشك من امره رهقا بينما اعيا أهل فاس اللغز الثانى والعهدة على اليدالى الذى أجابه فقال ضمن ماقال :(١)

معمى قد اعيا أهل فاس وغيرهم
فكنا بحمد الله مفتتحيه
(.....)
فهذا بحمد الله ايضاح لغزه
مساو له فى بحره وريه
فلو قال فرضا ربنا من وعائه
فذالكم بعد التفكير فيه
يوءدى الى عود الضمير ليوسف
فيفسد معناه لمختبريه
لأن الضمير فى الصناعة عائد
لأقرب مذكور هناك يليه
وان قال منه اختل أيضا لأنه
يوءدى لعود مضمر لأخيه
فتنزع منه الصاع لامن وعائه
وتأنف من ذا نفس كل نزيه
لما فى انتزاع من أذى ومهانة
ولم يرد الرحمن ذا بنبيه

لقد خطا هذا اللغز وحله السابق بالشعر التعليمى خطوة الى الأمام ملحوظة قاربت بينه وبين مستوى الشعر ذى المضامين الاجتماعية .

***

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٩ .

ثالثا : دائرة الشعر الاجتماعى :

((المـــدح))

ان من الباحثين من جرى على اعتبار المدح والمديح غرضا واحدا ، ولكننا نفرق هنا بينهما على أساس من شخصية الممدوح ، فحين يكون المعنى خاتم الرسل وصحابته ومبعث نظم الشعر فيهم جياش العاطفة الدينية وما أنيط بها من أداء للواجب رغبا أو رهبا يكون الشعر مديحا ، فان كان المقول فيه بشرا من أهل السلطان أو المال أو الجاه والدافع الى مدحه الاعجاب أو الخوف والطمع فى كسب أو نوال ، يكون الشعر مدحا .

ان هذين الغرضين لو قيست نسبتهما على أغراض الشعر الشنقيطى مجتمعة لعدلا نصف السجل الشعرى للبلاد ومع ذلك فنحن لم نلق من المدح ومايدخل فى مضماره - ضمن أشعار الجيل الثانى - سوى نموذجين يتفقان من حيث المضمون والشكل مع مامر بنا من أشعار ممثلى هذا الجيل ، أحدهما لايعدو بيتين للشريف محمد بن فاضل يزاوج فيهما على غرار الأراجيز التعليمية بين مصراعى كل بيت ، ويدعو - مادحا - للعالم الجليل اعمر الولى المحجوبى فيقول :(١)

وبعد يا ابن ولد المحجـــــوب
لازلت تعطى صفوة القلـــوب
كما الى الوعظ تميـــل ميـــلا
فى زمن صار النهـــار ليلا

وهذا اللون من الثناء - ان جاز لنا أن نعده كذلك - أقرب الى مجاملة الفقهاء والاقران لبعضهم البعض منه الى المدح .

---

١) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ١٧٩ .

وأما ثانى النموذجين فرائية تنسب لمحمد بن مسلم الديسفى وقد قيلت فى مدح قبيلة المحاجيب بمختلف فروعها الرئيسية وهى أقدم نموذج مدحى وصلنا اذ الراجح أنها قيلت فى القرن التاسع الهجرى(١) وقد رجحنا نحن أن صاحبها جكنى من بنى يوسف تحديدا .(٢)

وايا ماصح من هذين الترجيحين فالقصيدة تعتبر من وجوه عدة نموذجا لقصيدة المدح فى الطور الثانى من نشأة الشعر ، فالممدوح فيها - الوجه الأول - أو الممدوحون بمعنى أصح موزعون مابين فقيه مجدد أو قاض عدل أو امام قدوة ويلفهم جميعا نسق متوال من الفقهاء والقضاة والأئمة ، يقول محمد مسلم :(٣)

اذا كنت جوالا وفى الأرض تبتغى
منازل بعض الصالحين ذوى الذكر
عليك بعثمان الفقيه المجدد
وآبائه الغر الأكارم من فهر
(.....)
ولاتنس قاضى القصر جد قضاته
على بن عبدالله نعم اخو الفخر
(.....)
ووال لهم من أمهم فى فضيلهم
بطانا لما قد أم فى ظاهر الأمر
امام ومن كل الأئمة خالص
وقد خلصت منه الأئمة بالكثر

---

١) حسب رواية المحاجيب التى لايخالفها حتى الساعة منقول معلوم .
٢) راجع محمد بن مسلم الديسفى فى ملحق الرسالة .
٣) اعتمدنا نسخة العالم الجليل المحجوبى محمد عبدالله بن أحمد المصطفى من كتاب منح الرب الغفور فى ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور للطالب بوبكر المحجوبى .

شعيب بن ادريس بن موسى بن جعفـــــر

حرى بـان ينمى لخير بنى النضـــــــــــر

حسين بن بنت المصطفى وابن عمـــــــه

لنعم القتيل الشامخ العز والقـــــدر

واما بنو القاضى محمد بن على فمن نسل ابن عم المصطفى صلى الله عليه وسلم محمد بن الحنفية :

وقد كان فى سلك بن خولة منســـــــبا

محمد المشهور بالحلم واليســـــــــر

سليل ابن عم المصطفى ووصيـــــــــه

على ابى السبطين ذى العلم والنشـــــــر

واما أبناء الامام اندغ محمد فينميهم الشاعر لسعيدبن العاص رضى اللـــــه عنه فيقول :

وقد حكم المختار اعدل حاكـــــــم

لجدهم الاعلى على العرب بالفخـــــر

سعيد بن نجل العاص خير صحابـــــه

عليه ســـــلام الله فى آخر الدهـر

ونرى الشاعر لماعممدحه على القبيلة من بعد تخصيص خلع عليها مايتناســـب مع طبيعتها من صفات علمية دينية وما يتفق مع سلم القيم المسيطـــــر اذ ذاك فقال :

وفيهم رقاة للمنابـــــر منهـــــم

ومنهم حكام فى الحكومة كالســـــمر

ومنهم قضاة يعدلون ومنهـــــــــم

أئمة هذا العلم فى النظـــــم والنثـر

وهم علموا الناس الرياسة والتقى

ومن قبلهم كانا ذوى سبل وعـــــــر

وهم قد تكنوا بالمحاجيب جملـــــــة
من العالم المحجوب والعلم الصـــــدر
مصاليت بيض من ذوءابة غالـــــــب
خلائف كل الصالحين ذو الذكـــــــــر

وتتفق القصيدة أخيرا من حيث عناصر التشكيل - الوجه الثالث - مـــــع الخصائص الفنية لشعر الطور الثانى كما سنرى لاحقا فى المكان المناسب من هذا البحث .

ونظن ظنا أن فقهاء الجيل الثانى قد اتخذوا من فن التقريظ - علـــــى قلة وتأخر مابين أيدينا منه - مطية لتهنئة أقرانهم أو الثناء علـــــــى أشياخهم بمناسبة اتمام نظم ، حاشية أو تعليق على كتاب كما فـــــــى قول محمد بن على مقرظا تعليق الشريف حمى الله بن الشريف أحمد علـــــى (وخصصت نية الحالف) :(١)

ابديت ما اخفى الجهابـــــــذة الأول
بعبارة أعيت تلامـــــــذة الجـــدل
ففتقت رتق (وخصصت) متفضـــــــلا
وازحت عن مخبئها سترا ســــــــــدل
واتيت من تيارها بلآلـــــــــــىء
منثورة لايبتغى منها بـــــــــدل
فجزيت خيرا من مقـــــرر كلمـــــة
تقريرها يغنى المحـــــاور ان عـــدل

وأما قصيدة المدح على نحو ما ألفناها فى الشعر العربى فقد ظهرت ابتداء من أواخر القرن الحادى عشر الهجرى وشاعت فى النصف الأول من الثانى عشـــر على أيدى شعراء الجيل الثالث وبلغت أقصى مد لها خلال القرن الثالـــث عشر الهجرى .

---

١) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ٩٠ .

ولابد أن لظهورها وشيوعها فى الحقبة المشار اليها أسبابه المرتبطة من جهة فى رأينا بالشرخ الذى أحدثته حرب شربيه (١٠٥٥ هـ - ١٠٨٥ هـ) فى البنية الاجتماعية التقليدية للمجتمع الشنقيطى ، وبالمدى - من جهة ثانية- الذى بلغته الثقافة العربية الاسلامية على آخر ما اصطلحنا تصنيفا على تسميته بمرحلة الكمون الايجابى فى الثقافة الموريتانية . فالمسافة الفاصلة بين (من جمع أو سطا على مال فعدده) وبين (من شده الفقر الى الدقعاء) قد زادت على أثر التوزيع غيرالعادل لمصادر الثروة فى ظل الامارات الحسانية ، كما زادت بالتالى تبعية الاضعف وحاجته الى الحماية ، وفى الطرف المقابل تفاقم الصراع والتنافس بين أمراء بنى حسان على مصادر رزق شحيحة لبسط نفوذهم وتأسيس سلطتهم وأقامت أرستقراطية الزوايا مشيخاتها على النفوذ المالى والأيديولوجى ومحاباة من والاها من الأمراء ومداهنة من لاقبل لها به ، وقد وجد الشاعر هنا وهناك كنف أميريتحفه ويحميه أو شيخ غنى يطرفه ويبارك فيه أو يبارك له واصطنع فقراء الزوايا الشعر واتخذوا المدح سبيلا ، فكانت القبلة ذات الوفرة النسبية ، مهد حركة ناصر الدين ومسرح حرب شربيه وحلبة صراع امارات بنى حسان الناشئة ، هى التى ستشهد شيوع المدح واحياء أشهر نماذجه ومعارضتها .

ان الومضة المركزة الرامية فى غير موارية الى التكسب المتخذة من اثارة خصلة الجود لدى الكرام سبيلا الى الكدية تلقانا ومقابلها من الهجاء أول مرة على يد الشاعر المجلسى أبى فمين ذى الشعر الضائع أغلبه ، والذى يقول مخاطبا احدى سيدات مجتمعه مستجديا أو على حافة الاستجداء. (١)

أعائش نعم الأخت من لى بحاجة
فانى بعيد الدار نزر الدراهم
قصدتك للعُظمى وانت عظيمة
ومن للعظيم الصعب غير الأعاظم

---

١) نقلا عن أحمد بن الحسن عن محمد يحي بن اللوره .

ويقول موجها حديثه لأحمد الجواد بن عبدالله اليعقوبى : (١)

قد أظلم الليل بالمعروف واعتكرا
وكنت أحمد عند الظلمة القمرا
مازلت تولى الأيادى الناس تمنحها
حتى لقد زعمتك العالة القدرا
والرزق عندك فيما يزعمون ولا
محيد عنه فهم يأتونكم زمرا

ويقول مادحا لسيدى عبدالله بن الفاضل بن بارك الله : (٢)

حضور فعلك أغنانى عن الطلب
وانت أغناك عن وعد وعن كذب

ومخاطبا اعمر بن انتابه : (٣)

ألا فافخر فانك هاشمى
وجر ، واظلم فانك تستطيع
سيحسدك الوضيع ومن قديم
رفيع الناس يحسده الوضيع

وأما قصيدة المدح المطولة التى تنبنى من مقدمة غزلية أو طللية فرحلة وتخلص فوصف للمدوح بأنه " أعدل الناس طرا واكرمهم قاطبة واتقاهم واشجعهم " (٤) فتلقانا فى شعر ابن رازجه واليدالى الذى يعتبر فى مضمار المدح قياسا على الأول مقلا جدا .

---

١) نفس المرجع السابق .
٢) المرجع السابق ، ونفس الصفحة .
٣) المرجع السابق ، ونفس الصفحة .
٤) العبارة للدكتور عبدالمحسن طه بدر وقد وردت فى كتاب "حركات التجديد فى الأدب العربى " القاهرة ١٩٧٦/٧٥ ، ص ١٦١ .

واما ابن رازجه فقد تعدد الذين مدحهم وتباينت مراتبهم فقد مدح الأمير المولى سيدى محمد العالم أمير السوس بقصيدتين على الأقل، كما مدح ولى الله الكورى بن سيدى الفاضل وتربيه العالمين الأديبين محمدا الكريم بن الفاضل ومحمدا سعيدا اليدالى وباد له الاثنان الأخيران مدحا بمدح ، الا أن قصيدة محمد الكريم بن الفاضل فيه ضائعة وأما قصيدة اليدالى فهى التى مطلعها:(١)

براعة استهلال بدر البهى والجمال

ومن الراجح عندنا أن نماذج شعر المدح كانت من واقع ماتبقى من شعر المجلسى وأبن رازجه ومن سيرة حياتهما ، أكثر بكثير مما بين أيدينا منها الآن، فابن رازجه يصرح فىمدحه للأمير سيدى محمد العالم بصلة متينة ربطت بينه وبين بلاط والده السلطان مولاى اسماعيل(٢)، كما كانت له صلات بأعيان المغرب وتتلمذ كما مر بنا على بعض علمائه وأشياخه وأغلب الظن أن هذه الصلات خلفت لا محالة لدى شاعر مشحوذ المدية فى المدح كابن رازجه شعرا شبيها بالذى خص به ابن زكرى محمد بن عبدالرحمن (ت ١١٤٤ هـ) ضمن لغزه الموجه لحاضرة فاس العلمية حيث يقول :

وانت ابن زكرى نبيه محقق
تفردت فى الدنيا بغير شبيه
اذا غصت فى بحث حصلت بدره
وخليت عن سفسافه ورديه
يمدك فى اتقان علم تبثه
قياس أصولى ونص فقيه
وقاك الذى أبداك كالنجم يتقى
به الغى من يبغى الهدى ويعيه

---

١) أحمد الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٢٢٦ ومابعدها .
٢) ابن رازجه : الديوان ص ٨٤ ، البيت رقم ٣٨ .

ومهما يكن فان جميع ماخلع شعراء الجيل الثالث على ممدوحيهم من صفات ومناقب لم يخرج فى مجمله عن قمم المثل العليا التى طالما ألفناها لفرط تكرارها فى قديم الشعر العربى ، الا أنهم استطاعوا فى اطار من التقليد والمحاكاة المواءمة بين ما اختاروا من خصال وبين حقيقة وطبيعة ممدوحيهم : فابن رازجة لما ممدح أمير السوس سيدى محمد بن مولاى اسماعيل أضفى عليهما من الصفات ما أسبغ الشعراء من قبله على الملوك والأمراء فقال :

هما والد ماتوج الملك مثله
ومولود صدق بالمكارم مرتد
عظيمان معنيان بالدين وحده
فأعطتهما الدنيا سلاسة مقود

ويبقى الأمير من بعد تتويجه شجاعا مقداما فارسا مغوارا :

اذا كشفت عن ساقها الحرب والتظت
وساوت صدوق الملتقى بالمفند
سقى الرمح من نحر العدو فديته
وقام بحق المشرفى المهند

وان صال ملوك الكفر ولجوا فى غيهم انبرى لهم :(١)

هزبر غدا فى شرعة الرمح والعدا
غدوا بقرا يستعمل النحر والذبحا
أمير ملوك الكفر اضحوا لسيفه
كما تتبغى الذبح فى عيدها الأضحى

يعينه فى حربه ضدهم وفى سياسة دولته مضاء عزيمة ونفاذ بصيرة :(٢)

---

١) ابن رازجه : الديوان ص ٧٥ .
٢) المرجع السابق ، ص ٧٦ .

هو الكورى بانى العـــــز والمجـ
ـــد للاسلام والشـــــرف العتيـــد
بنصر الموءمنين أتـــــاه نصـــــر
واسرار الجداول والسعـــــــــود
واكمال استقامـــــــة وعـــــدل
وتسوية الأقارب بالبعيـــــــــد
(.....)
وكم خارق ابدى لنـــــا مـــن
كرامات تجل عـــــــن الجحـــود

ويبدو أن مدح الشعراء عندنا لهذه النوعية من الممدوحين هو من جهة استجابة لمعتقداتهم وفى نفس الوقت أداة موظفة من أجل التبرك بهم .

ويتحرر ابن رازجة من ربقة الصالحين وكرامات الأولياء فى مدحه لصديقيه وندية العالمين الأديبين محمد الكريم واليدالى وان لم ينعتهما مراعيـــا التناسب بين النعت والمنعوت الا بصفات الزوايا وخصالهم ، فاليدالى:(١)

علم الكلام يســـمى
فيه حذامـــــى المقـال
قطب اجتهاد مصيـــب
فى الفقـــه عند الجدال
منقوله يحتذيـــــه
معقوله باعتـــــدال
تمييزه فى الأعاريـــب لايوازى بحـال
ذو رتبة بعـــدت عن
تنـــازع واشتغـــال

---

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٢٣٤ .

وأما محمد الكريم فيصفه قائلا :(١)

بيان محمد صبـــــــــح منيـــــر

فأفحم كل ذى جدل خصيـــــــم

مجلى حلبـــــة الأدب المسمـــــى

مسابقـــة المبرز باللطيـــــم

أبو الطلاب لاينفك منهـــــــــم

حنـــــان الأم بالطفل الفطيـــم

ويحلو لابن رازجه مادام ممدوحاه على شاكلته يتعاطيان الشعر أن يطـــرى شعرهما فيقول لمحمد الكريم :

عدمنا قبل شعرك كون شـــــعر

قوافيـــه من الدر اليتيـــم

وللبيدالى :

وجاء شـــــــــعرك سلكـــــا

فيه حســـان اللآلـــــــــى

يوءول عندى بذهـــــــــن

ســـداه حســـن المـــــآل

روض سقـــــاه غمـــــــــام

ملـــورد لامـــــن ســـيال

يقول رائـــــــى حـــــــلاه

بلـــت صداهـــــــا بـــلال

ويكيل البيدالى لابن رازجة على نفس المنوال ومن نفس الصاع فيقف معـــــه مبرزا تارة لورعه وذبه عن الدين الحنيف فيقول :(٢)

---

١) ابن رازجة : الديوان ص ٩٢ - ٩٣ .

٢) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٢٢٩ .

مستمسك من هـــــدى شـــــر
عـــة النبـــى بحبـــــال
وسيف حق على أهـــــــــــ
ـــل الزيغ والاعتـــــــــزال
أمات ريـــــــــح هـــــداه
هـــوج الهوى والضـــــــلال
صارا بـــه دائمـــــا فـــى
مهانـــــة وابتـــــــــذال
ومهيع الشـــــــرع يزهـــو
مطـــرز البرد حالـــــــى
قد صانـــــه فهو دأبـــــا
عن نصـــــره غيـــــر آل
وذب عنـــــه ببيـــــض
من الهـــدى والنصـــــال
حتى غـــــدا مستقيمـــــا
ميزانـــــه باعتـــــدال

وتارة أخرى يعيد ويبدى فى تفننه ودرجة علمه التى لاتضاهيها منزلة فهو :

نور الأئمـــــــة قطـــــب
حبـــر فقيـــد المثـــال
قاضى القضـــاة ســـراج
لســـدفة الجهل جـــــال
به العلوم تحلـــــــــت
أبهى حلـــــى وحـــــلال
قد فـــاز منها بما لـــم
يخطر لانـــــس ببـــــال

رســـت بأرض حجـــــــاه
للعلم يهـــــم الجبـــال
والناس فى كـــــل فـــــن
كانـــوا لـــه كالعيـــال
تهوى له مـــــن بعيـــــد
من موكـــــــب ورجـــال

ويختم اليدالى بدوره مهرجان مدحه بالوقوف حيال شعر ممدوحه فيقـــول انه :

يهدى غرائـــــب أشهـــــى
من قرقـــــف وفضـــــال
يبـــدى الدقائـــق فهمـــا
ينيـــل قبـــل الســؤال

ثم لايلبث أن يتوجه أميرا للشعراء منذ قرنين من الزمان أو يزيـــــد فيقول :

فاهنأ فقد نلت تـــاج الشـ
ـعر العزيـــــز المنـــال

ان بال شاعر الجيل الثالث لايهدأ ومدحته لاتكتمل مالم يوقف - مستجيبـــا لوحى بيئته العشائرية - جزءا من مدحته على قبيلة الممدوح . فابن رازجة - يقول اليدالى - :

من معشـــر فى الورى قـــد
حازوا شـــعار الجـــلال
ذوو نهـــى ووجـــوه
غـــر وايـــد طـــوال
ذوو حـــروف ثـــلاث
ميـــم وجيـــم ودال

هم فى المكـــــارم تبـر
وغيرهـــــم كالمـــــــوالى
هم فى الجلال يميـــــــــن
وغيرهـــــم كالشمـــــــال
هم فى الفخـــــار صميـــم
وغيرهـــــم كالموالـــــى
هم فى العلـــــى كاللآ لى
وغيرهـــــم كالرمـــــــال

وينعت ابن رازجة قبيلة اليدالى قائلا :

أتراب حـــــى لقـــاح
عرندس ذى ظـــــــــــلال
أهل الجيـــــاد المذاكى
والعوذ عوذ متـــــــــــال
والبيض بيـــــض مواض
والســـــمر سمـــــر عـــوال

ويقول ان آل محمد الكريم قد :(١)

كسوا حلل التقى الضفيا واعطـوا
تمام الخلق والخلـــــق التميم
هم الأمثال فى الآفـــــاق سارت
مســـير الشمس بالضوء العميم
لشرحهم خبايا كـــــــل فـــن
جهلنا ما البليد مـــن الفهيم

---

١) ابن رازجة : الديوان : ص ٩١ ، ٩٢ .

فما نخشى الضلال وهم نجوم

ترينا الهدى فى الليل البهيم

وقد خلت مدحاتهم فى أمراء المغرب من أى أثر لهذه النزعة القبلية العصبية وان أشاروا الى شرفهم وطيب محتدهم .

((الرثاء))

لم تصلنا مراث لجيل النشأة الثانى واقدم مايلقانا لهم مما قد يدخل تحت هذا الباب بيتان لسيدى أحمد بن سيدى محمد بن موسى بن ايجل (ت ١١١٧هـ) ملحقان بنظمه لتاريخ وفاة الشريف حمى الله ، وأغلب الظن انهما لم يقصدا لذاتيهما وانما جاءا استطرادا من بعد التأريخ . وفيهما يقول :(١)

وفتياه فى اقليمنا عم نفعها

واغنت " تشيت" عن رواة المفضل

وفيه أراضينا جميعا تزلزلت

وما أحد منا ارعوى بتبتل

وثمة أبيات أخرى تنسب لمجهول لاتحدده مصادرنا كما لاتحدد أهى مدح أم رثاء ، وكل المعلوم لنا عنها وعن ظروف انشائها أنها قيلت فى الحاج أحمد بن اند عبدالله بن على (ت ١١٤٠ هـ) وان الخطاب فيها للغائب وأن أفعالها منصرمة ماضية وانها تسير على النحو التالى مبرزة فضائل الممدوح الاسلامية :(٢)

---

١) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ٩١.

٢) نفس المرجع السابق ص ٤٤.

كم بدع اضحت بـــه سقيمـــه
وســنن صارت بـــه قويمـــة
راعى الذمام لين الكـــــلام
صعب المرام فى حمى الاســلام
المحتمى للجـــار والغريـــب
والحاسد الكاشـــح والحبيب
المنفق العمر لنفع المسلميـــن
محتسبا لقاء رب العالميـــن

ولايزيد بعد ذلك ما بأيدينا لشعراء الجيل الثالث من نماذج فى الرثـــاء، عن مرثيتين لابن رازجه : فائيته فى تأبين الشاب النابغة ، الزاوى الجليـــل أحمد بن يوسف بن المختار الفال الحسنى الشقروى وبائيته التى رثى بهـــا الأمير التروزى اعمر بن هدى بن احمد من دمان المقتول غيلة عام ١١١٤ هـ .

يستهل الشاعر هاتين المرثيتين دون مقدمات زائدة أو خارجة على الوحدة الشعورية للموقف ، فيقر مباشرة أن الموت حق وأن الأجل كتاب موقوت لايوءخر عن حينه اذا جاء ، فيقول فى البائية :(١)

هو الموت عضب لاتخون مضاربـــه
وحوض زعاق كل من عاش شـــاربه
وما الناس الا واردوه فسابـــق
اليه ومسبوق تخب نجائبـــــه
يحب الفتى ادراك ماهو راغب
ويدركه لابد ماهو راهبـــــه

وفى الفائية :(٢)

---

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ١٥ .
٢) المرجع السابق ، ص ١٨ .

هو الأجل الموقوت لايتخلـــــــف

وليس يرد الفائت المتأســـــــف

وتفترق المرثيتان - باعتبار شخص الفقيد - من بعد الاستهلال افتراقـــــ غير عفوى ، ففى الفائية المصاغة فى فقيه عالم من قبائل الزوايا يعلـــــ الشاعر عن رضاه بقضاء الله وايمانه بفضله وعدله وخوفه منه ورجائه فيقول :

رضينا قضاء الله جل جلالـــــــه

وان ضل فيه الجاهل المتعســـــف

هو الحق يجزينا ثواب صنيعـــــه

وننفق من خيراته وهو يخلـــــف

يعافى ويعفو عن كثير ولم يـــزل

حليما ومازلنا نسىء ونســـــــرف

فكيف يوءدى حمده حق حمـــــده

كما ينبغى مجدا لسان واحـــــرف

الهى عجزنا دون ما أنت أهلـه

وخفنا ونرجو مالديك ونرجـــــف

واما فى البائية المنشأة رثاء لأمير من أمراء قبائل بنى حســـــان ذات الشوكة ، القيمة على السلطة الزمنية فى محيطها وحدود اماراتهـــــــا فالشاعر يضرب الأمثال فى تأس بمن غبر من الملوك وتخطفته يد المنون فلـــم تقه عدته ولا عدده فيقول محسنا الاقتداء بقصيدة للقاضى أبى يعلى يعارضها:

فكم لابس ثوب الحياة فجـــــاءه

على فجأة عاد من الموت سالـــــبه

ولم يقه فرعون عون أعـــــده

ولا مرد نمرود حمت وأشـــــائبه

وهل كان أبقى بختنصر بختـــــه

وانصاره لما تحـــداه واجبـــــه

فما صان حبرا علمه وكتابـــــــه

ولا ملكا اعلامـــــه وكتائبـــــه

ولئن كان الشاعر ارتأى الا يسب الدهر لما نعى له الناعون الأمير فانـــــه اتساقا مع روح مرثيته فى أحمد بن يوسف وزهدا فىالحياة من بعده راح يكيـــل للدنيا كيلا ويوسعها ذما فيقول :

أشارت يد الدنيا بتوديع أهلهـــا

وكدنا نرى الاشراط والله يلطـــــف

هى الجسر للاخرى فسر ضيف ليلـــــة

عليها فكل ماتستضاف وتعلـــــــف

تكلفنا أشياء لانستطيعهـــــــا

ونعلق فيها بالمحـــــال ونكلـــف

تصرفت الهوجاء فينا على عمـــى

فلا غرض تبغيه فيما تصـــــــرف

وماذاك الا أنها جد كلبـــــــة

وما طبعت الا على الكلـــــب تصرف

يبش محياها الى كل ناقـــص

وتعبس فى وجه الكريم وتصـــــدف

وتمضى الدنيا غير مأسوف على زرجونها " كما يمضى " مشرق الأيام " لقضـــ الفقيدين نحبهمـــا . ويخلص الشاعر الى غرضه الأصلى فيقصر تأبينـــــا لاحمد بن يوسف أو يكاد على حلمه وحكمته وورعه وتقاه وعلمه أو ماناســـب الزوايا من الصفات فيقول :

حكيم تلاشى فيه سحبـــــان وائل

وقس وافعى الجرهمى وقلطـــــف

ورسطا وقسطا وابن سينا وهرمـــس

واقليدس ذو الجوسقين واسقـــــف

تملك أطراف القضـــــاء وفقهـــه

وماهو الا مالك ومطـــــــرف

درى فى اللغى والنحو ماشاء فى الصبا

فشب على تحقيقه يتفلســـــف

يجود آيات الكتاب فصـــــــدره

لمجموع ذى النورين عثمان مصحف

وأما تأبين الأمير اعمر بن هدى فعماده ما اسبغ الشاعر نفسه من قبـــل على ممدوحيه من أمراء البلاط المغربى وما أضفى الشعراء من قبله علـــى الملوك والأمراء من مثل عليا يقول ابن رازجة :

هو السيد الممتد فى الناس ذكـــره

وفى البوءس كفاه وفى البأس قاضبـــه

يلاين مرتاضا أريبا وينبـــــرى

هزبرا أبا أجر على من يغاضبـــــــه

فتى يهب الآلاف عفوا وتنكفـــــى

مخافته الآلاف حين تحاربـــــــه

تنوع فيه الناسبـــــــون فكلهم

الى كل جنس كامل الوصف ناسبـــــه

فللأبحر الراوون اخبار جـــــوده

وللقمر الراوءون كيف مناصبـــــــه

وللأسد الواعون شدة بأســـــــــه

ومادافعت فى كل هيجا مناكبـــــه

وتسير كل مرثية من بعد التأبين فى الوجهة الملائمة لمقتضى حالها والمناسبة لما أحاط بها من ظروف وملابسات فواسى الشاعر فى الفائية - بعد أن قابل وفاضل بين الدنيا والآخرة التى هى " خير وابقى - والدى الشاب النابغة فقال:

توغلت سجـــن الهم فاصبره حســـبة
يجازيك من مجزى يوسف يوســـف
أراد بك الله التى هى عنـــــده
احظ واحظى بالمفاز واشـــرف
وبخ وبخ وبشر ام أحمد بالـــــذى
يثنى لها من أجـــره ويضعـف
فلا تجزعا ياوالديه فربـــــه
ابر به من والديـــــه وأرأف

وأما فى البائية فقد استسقى المطر لقبر الأمير ودعا له بالرحمة والغفران والجنة والريحان ثم اجتاز مزاوجا - دون أن يخرج عن جو القصيدة - بين عزاء خليفة الفقيد واخيه (على شنظوره) ، وبين تهنئته بتولى الامارة من بعده وتحريضه على الثأر ممن غدروا به فقال :

فما حان حتى بان منك سميـــذع
يجاريه فى ميدانه ويجاذبـــه
هو الفاعل الخيرات قدر حذفـــه
فثق بوجوب الرفع انك نائبـــه
تباريتما بدرين فى أفق العلـــى
وقد سر باديه واحزن غائبـــه
وما قلدوك الأمر الا تيقنـــا
لادراكك الأمر الذى أنت طالبـه
فقم راشدا واقصد عدوك واثقـــا
بفتحكه اذ هم خوفك ناصبـــه
فيوءدك الله الذى هو باســـط
يديك فمغلوب به من تغالبـــه

((الهجـــــــــاء))

على الرغم من أن المجتمع الشنقيطى التقليدى يقوم منذ القدم على العصبية القبلية التى كثيرا ما أدى استعارها الى تأجيج نار الهجاء ، الا أن نصوص هذا الغرض منعدمة فى الطور الثانى من النشأة قليلة فى الطـــور الثالـــث .

ان لهذه الندرة مايبررها ، فالاسلام فى شموليته استطاع أن يخفـــف الى حد بعيد من حدة النزوع العشائرى لقبائل صنهاجة منذ أن انتمت اليه حق الانتماء وتمثلته سلوكا لا قولا فابدلها خيرا مما عاشت عليه من قبلـــه ، والاسلام من منظور شرعى ينهى عن أكل لحوم المسلمين وهتك أعراضهم ، وشعـراء النشأة فقهاء علماء توخوا الشرع قبل الشعر فلم يعتنوا - فى مبدأ الأمـــر على الأقل - الا بما لاشبهة فيه من أغراضه أو ما اتسق ولم يخل بضوابـــط علم الرجال . كما أن النشاط الثقافى ابان مرحلة الكمون الايجابى علـــى الرغم من تميزه النسبى ، لم يحتدم الى الحد الذى تتنوع من جرائـــــه الاجتهادات وتتغاير قراءات التراث وفهم مقولاته وتمثلها فيتمذهب النـــاس ويتعصب كل فريق لتوجه دون آخر فتستعر المشاحنات وتنقلب الـــى مناظرات لاتلبث أن تستحيل الى تعريض ومهاجاة ونقائض ، وهو ماستشهـــده مرحلة النهوض لاحقا [1] وماتلقانا بواكيره الأولى ممثلة فيما دار بيـــن الفقيه مينحن بن مودى مالك وتلميذه الشاعر ابن رازجة من خلاف لما أفتـى الشيخ بتكفير من لايعرف العشرين الواجبة وتلك المستحيلة فى حق الله تعالى فقام معه ابن رازجه وقعد رادا عليه فتواه ودا حضا لها ، واستفحـــل

---

١) وعرف تاريخيا على المستوى العقائدى فى جدل ابن بونه والمجيدرى بـــن حيبلـــه وعلى المستوى الفقهى فى مسألة مرجع الحبس بين محنض بابا ابن اعبيد وبابا بن أحمد بيبه من جهة وحرمة بن عبد الجليل والديـــج ابن عبد الله من جهة ثانية ، وعلى المستوى اللغوى فى الجدل الذى أدير من حول القراءة بالجيم المتفشية والجيم الشديدة ثم أخيرا فى الصـــراع بين أهل الظاهر والآخذين بالطرق الصوفية .

الأمر ووصلت القطيعة بين الرجلين حدا جعل التلميذ ينظم قصيدة أقل ماتوصف به انها تعريض فى غير رفق بشيخه اذ يستهلها معتصما بالله من دهر عمت به البدع وطفحت الآثام فأفتى العلماء على غير بصيرة فزاغوا ، وضلوا وأضلوا عن الصواب ، يقول :(١)

ياعاصمى ياسالمى ياقاسمى
للأزلم الجذع الذمول الراسم
وظهور دهد الرين سعد القين فى
قوم تلقوه بثغر باسم
فيه ابتداع ماسمعنا مثله
من فاتح الدنيا لهذا الخاتم
فتوى قضى الدين الحنيف بأنه
منها برىء فهى زلة عالم

ثم يلمح فى سخرية لاذعة الى خروج شيخه عن الاجماع فيقول :

طيف من الشيطان مس فمن لها
بتذكر فتكون طيف الحالم
مرقت على الاجماع والنصين والـ
ـفقه الذى بهما مروق مصارم
ابليس عاطاه خرافته الهوى
كالكاس بين منادم ومنادم

ويعرض لمسألة الخلاف ويبدى فيها باسهاب رأيه ويدعمه بالأدلة والبراهين والاحالات المرجعية ، حتى اذا بلغ من الحجاج مبلغه عاد فمعد لهجته منذرا متوعدا شيخه فى غير مواربة فقال :

من حاد عن سنن النبى وصحبه
والتابعين الغر ليس بسالم

---

١) ابن رازجه : الديوان ص ١٣٣ .

ورمى المذاهب كلها ظهريـــــــة

كالشاة شذت خلـــف شاء ســـالم

ان راجع المفتى الصواب تراجعت

فيه اعتقاداتى وكنت كخـــــادم

ولئن تمادى أن يعيش ليقرعـــن

وليقرعن ان مات سن النـــــادم

ومن التعريض فى هذه الحقبة ماجاء مزيجا من حيي المرارة والصفح المتعفـــف فى استعلاء كما فى قول الحاج أحمد بن اند عبدالله حين احفظه الحســـــاد والواشون لمشيهم بالباطل بينه وبين الناس فاضطروه - وهو الورع - الـــى التعريض بهم ضمنا فقال :(١)

اذا لبس الأصحاب ثوبا من الحيـا

لبست لهم ثوبا من الســـتر مسـدلا

اذا هتفوا فى القول بالزور والخنا

حبست لسانى عن مقال تفضـــــلا

اذا هتكوا عرضى عفوت تكرمـــــا

واصفحت عن ايذائهم متحمـــــلا

وقد قيل ماقالوا وربى شاهـــــد

فحاشاى من بهتان من ساء مقـــولا

واستغفر الرحمن لى ولمن بغـــــى

على من الاخوان منـــى تفضـــلا

فبرأنى الرحمن رغمـــا لأنفهـــم

بالسنهم بالقول يمحـــون أولا (هكذا)

---

١) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ٤٤ .

وقد أفسدوا بينى وبين أحبتـــــــى

الا فهم السعاة اذا تهـــــــرولا (هكذا)

ليحذرهم من كان للود حافظـــــا

ويلق مقال الحاسدين ومن قـــــلا

فالسنهم كالسم فى الشهـــــد داوءها

مضر ولايخفى على من تعقـــــلا

ان المجلسى ابا فمين هو أول شاعر احترف الهجاء واشتهر به فأرهب وتكســـب وكان "هجاء ما نجا منه أحد"(١) ،، ماطله أحدهم زمنا فاستعجل هبته معرضـــا به فقال :(٢)

قد طال ما اومضت لى منك بارقـــــة

يا ابن الأمين ولا يرجى لها مطـــر

انت السحاب ولكن لست تمطرنـــــى

وليس ينبت فى ارض لك الشكـــر

وقد كان فيما يبدو فقيرا يعيش على الكدية متنقلا بين احياء الزوايـــــــا وامارات بنى حسان فى القبلة منطقة جذب الشعراء ومرتع السنتهم مدحـــــــا وهجاء .

حل ذات يوم ضيفا على حى من قبيلة انتابة ، فما أعاروه اهتمامـــا فقال :(٣)

دهر الدهارير لا أقمت فيـــــه لدى

(انتاب) يوما ولابقرب (انجـــول)

---

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٣٤٩ .
٢) نقلا عن محمد يحيى بن اللوه
٣) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٣٤٩ .

يوم الاقامة فيهم خلته ظمـــــــأ

يوم القيامة اذ يحكيـــــه فى الطول

حتى تذكرت ان الناس قاطبـــــة

اذا تسأل وانى غيـــــر مسئـــــول

وأخلت مرة قبيلة بنى ماجك تجاهه بقواعد قرى الضيف فى الصحراء ، فهجرهـــا غضبا ، ومضت ازمان من بعد هجره فمر بديارهم فاذا هى خالية الا مـــــن قبر اقذع فيه فقال :(١)

اذا فقد المفقـــــود من آل ماجك

فمن فقده فقـــــدان بعض الخسائس

فلو فاه مغناهم بذى الدرس عنهـــم

لأنبأ عن لوءم جديـــــــــد ودارس

ونزل ذات ليلة ضيفا على أحد ادوداى فأرقه الجوع وأمض عليه نومه فلمـــا لاح الصباح افطر على لقيمة من العصيد أتى عليها فلم تف بحاجته فأنشـــــد يقول :(٢)

يارب ليل بهيم أليـــــل داج

قد بت فى ضيعة لـــــدى (ادوداج)

حتى اذا مادنى الاصباح نبهنـى

وغد على لقمة فى قعـــــر مجاج

وقد عرفنا فى زمن أبى فمين هذا وعلى لسانه ربما أقدم نقيضتين صيغتا محليا غير أن معرفتنا بهما ظلت ناقصة لتكتم رواة القبائل عليها ولادعائهـــــــم سقوطها من الحافظة بل ورفض بعضهم اليوم البوح بها .

ونحن لانعلم عن هاتين القصيدتين سوى أن أبا فمين لأمر نجهله هجـــا

---

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى . نفس المرجع السابق والصفحة .

٢) نفس المرجع السابق والصفحة .

قبيلة ادا بالحسن بقصيدة مطلعها :[١]

أيحسب أن لايزأر الأســـــد الورد

ذئاب عوت لما تغافلـــــــت الأســـد

ولم يتوان شاعر من نفس القبيلة بأن نقضها[٢] بأخرى مطلعها :[٣]

سل الدين والدنيا من الأســـــد الورد

سوانا وما العلوى سواك وما القـــــرد

((الفخـــــــــر))

جاء الفخر على ندرة نماذجه خلوا من أى ذم يصحبه ، وانقسم قسمين :

تيه بالذات الفردية كقول ابن رازجة لما ازدرت به الودانية يوم خاطبهـــــا متصابيا فلم تعره اهتماما :[٤]

لقد شمخت أنفا علينا خديجـــــــة

وقالت بآزار لهـــــــا (ادوارن)[٥]

ونحنْ الأنوف الشامخات على الورى

تقاصر عنا كل انف ومـــــــارن

ودل بالذات الجماعية للقبلية متئد لا اغماط فيه لحق الغير كقول اليدالى[٦]:

---

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى : المرجع السابق ص ٣٤٨ .

٢) نستبعد أشد الاستبعاد ما المح اليه أحمد بـن الامين الشنقيطى من أن ولد رازجه هو الذى صاغ قصيدة ادا بالحسن ، فهذه القبيلة قد تستنجد وتطلب العون فى كل شىء الا فىعلوم اللغة العربية والشعر ومطالع القصيد .

٣) أحمد بن الأمين الشنقيطى : نفس المرجع السابق والصفحة .

٤) ابن رازجه : الديوان ص ١٢-١٣ .

٥) الآزير احدى لهجات المنطقة البائدة وادوارن بمعنى الأوباش .

٦) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٢٣٦ .

انا بنى ديمان ان ذكر العلـــى
نذكر وان ذكر الخنـــا برآء

أو جامح يحسر - لصالح القبيلة - كل ايجابى القيم عن الناس طـــرا كقول اليدالى :(١)

ديمان فى النـــــاس تبـــر
وغيرهـــــم كالفخـــار
فيومهم يوم عيـــــــــد
وليلهـــــم كالنهـــار

((الغـــــــزل))

لم يحظ الغزل باهتمام خاص من شعراء النشأة مثله فى ذلك مثل غرضـى الفخر والهجاء وربما أهمل لنفس الأسباب التى حالت دون التوسع فيهمـــا ، فالجيل الثانى عزف عنه فلم ينفذ الى دائرة اهتماماته مطلقا ، واما شـعراء الجيل الثالث فقد كانوا لعلمهم ومكانتهم أقدر على الفكاك من ربقة المثالية الدينية الأخلاقية المسيطرة ، فعرف شعرهم الغزل لا من حيث هو تجربة انسانية يصدر عنها الشاعر وانما كعنصر من معمار القصيدة يوءتى به على نحو ما عهـد فى النموذج المعارض من الشعر العربى ومن هنا فسنلاحظ أن غزلهم فاتر العاطفة باهتها وان المحبوبة يكنى عنها دوما بالغريب على البيئة من الأسماء وانها من أوصافها المادية وسلوكها واحدة لدى هذا الشاعر أو ذاك ، وان لا أحد منهـم يرتبط بها أكثر من غيره وان الغالب على صنيعهم معها - اذا ما استثنينـا المجلسى ابا فمين - المرور بها فى طريقهم الى الممدوح مر الكرام .

ان تشبيب ابن رازجه بخرائد من جنس " الزوايا " بنات عم ممدوحيـــه محمد سعيد اليدالى ذى الموقف الصارم من أغراض الشعر الماجن ومحمد الكريم ابن الفاضل لايمثل فى رأينا شرخا حادا فى الموقف المحافظ من الشعر، وان

---

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى : نفس المرجع السابق والصفحة .

جـــــاز اعتباره سابقة انفراج تمت فى غفلة من الزمن بين فقهاء ـ علمـــــاء ـ شعراء يسدون الذرائع ولاتسد عليهم ٠

وان لنا منطقيا بعد هذا التشبيب المبكر ببنات الزوايا ان نتوقـــــع غزلا أصيلا تبرز فيه خصوصية البيئة المحلية على نحو معين لولا أن حضـــــور المرأة ـ النموذج كما شكلها الشاعر العربى ـ الجاهلى منه خاصة ـ وزيـف التجربة الغزلية فى اطار المدحة لدى شعراء هذا الجيل اخلفا ماتوقعنا فاذا نحن أمام محبوبة طالما ألفناها تطيل سهاد المحبين وتمض ليلهم وتقـــــض مضاجعهم فتخرج بشرعة الهوى الحكيم المتبتل منهم عن صوابه فتعيده كمـــا فعلت بابن رازجه صبا متصابيا يقول :(١)

أثار الهوى سجع الحمـــــام المغرد
وارقنى الطيف الذى لم اطـــــرد
ومسرى نسيم من أكيناف حائـــــل
وبرق سقى هاميه برقة ثهمـــــــد
وذكر التى فى القلب خيم حبهـــا
والبسنى قهرا غلالة مكمـــــــد
فبت أقاسى ليلة نابغيـــــــة
تعرفنى هم السليم المسهـــــــد
طويلة اذيال الدجى دب نجمهـــــا
الى الغرب مشيى الحائر المتردد

وقد يوءرق طيف الحبيبة الشاعر ويشقى به قبل أن يسعد بلقيـــــــــاها ، يقول اليدالى :(٢)

---

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٢٣ ٠
٢) احمد بن الأمين الشنقيطى : المرجع السابق ص ٢٢٦ ٠

لما غدا الطيف يوما
يزورنى للوصال
كان السهاد على مقـ
ـلتى رقيب الخيال
فبت ليلى كأنى
فيه سليم الهلال
أجر ذيل الهوى طا
ئعا له باختيال
لو لم أجبه أجابت
محاجرى بانهمال

وليس أمضى من سلاح المحبوبة فى حربها على من هام بها فهى كما يقول اليدالى :

قتالة بهواها
لا بالقنى والقتال
ولا بضرب المواضى
ولا بطعن العوال
ولا برمى الزبار يـ
ـط لا ورشق النبال

وأما شيمها الخلقية فقد تراوحت بين مألوف الدل والخلف فى الوعد والبخل والغدر والهجر وكثرة العذال واستحالة الوصل ،يقول ابن رازجه :

رمنا رضاها فرمنا
حصول رى بآل
فوصلها ذو انصرام
وصرمها ذو اتصال
دامت بكسر نصال
فى القلب فوق نصال

محمودة ماذممنـــــــــــا

لجاجهـــــا فى الـــدلال

ماطاف أبخـــــل منهـــــا

حتى بطيـــــف الخيـــال

ولمحبوبة اليدالى بدورها نفس الصفات الخلقية والمعنوية اذ يقول عنها :

تجلدى واصطبـــــــارى ووصلها فى انفصـــــال

ولوعتى وغرامـــــــى وهجرها فى اتصـــــال

وصرمها للمحبـــــــــين دائما متـــــوال

ووعدها وهواهـــــــا للحب رقـــــراق آل

ومن نعوت المحبوبة الحسية انها الجمال المصاغ على النسق البدوى الجاهلى فمنها تستمد كواكب السماء الضياء والبقر الوحشى جمال المحاجر يحاكى عود البان تأودها وهى الى ذلك حيية ، لينة الأعطاف ضامر ، فخمة ترفل فى الحرير ، مهفهفة الكشح ريانة الجيد ذات غنج ودلال ، يقول ابن رازجة :

فتاة حكاها فرقد الجو منظـــرا

كما ناسبتها نظرة أم فرقـــد

مهفهفة الكشحين لم يدر طرفهـــا

من الكحل الخلقى ما كحل اثمد

اذا ماتثنت واسبكر قوامهـــــا

علمت بأن البان لم يتـــأود

ويقول فى مكان آخر :(١)

أثيثة وحفها الحاكـــــى اسودادا

وطولا ليل عاشقها السليـــــم

---

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى : نفس المرجع السابق ص ١٢ .

ربوع (بتنيافيل) منها محيلـــــة
حنينى الى أيامهـــن طويـــــل
ويجمع بالحققين بين كواعـــــــب
وفتيان صدق بكـــــرة وأصيـــل

((شكوى الزمان والعتـاب))

نعرض تحت هذا العنوان للنموذج الأوحد المتخلف عن شعراء الجيـــــل الثالث وهو قصيدة ينقد فيها ابن رازجه فقهاء عصره لعجزهم عن دمغ الباطل بالحق وتعقب الجور بالعدل لاصلاح مافسد ، مما حدا به الى استنكار سلوكهم والتعريض بهم وبتخاذلهم عن نصرة الحق وما اعقب له عجزه عن الاصـــــلاح أو مواجهة الظلم من تبرم وشكوى الى أن قال عاتبا على زمانه وأهله :(١)

زمان توانى فى المصالـــح أهله
وكلهم نحو المفاســـــد راكـــض
يقولون خير الدين والعلم سعيهم
وسعيهم للدين والعلم هائـــــض
عجزت فاظهرت القبول كتابـــــع
عجوزا يصلى خلفها وهى حائـــض
الى كم وهذا الجور يبرم حكمـــه
ولم يتعقبه من العدل ناقـــض

---

١) ابن رازجه : الديوان ص ١٣١ .

اننا لاندرى على وجه اليقين طبيعة الدوافع المباشرة التى حدت بالشاعر لأن يصب زفراته لعنات على زمانه واهله لكن الشىء الذى لاجدال فيه ان الرجل طموح عاش قلقا فى محيطه الصحراوى نقلة لايقر له قرار وحين لم تسعه الصحراء و" تصاغرت هى وأهلها " (١)فى عينيه هجرها مرارا الى البلاط الملكى فى المغرب ، ولسنا فى حل لغياب الدليل القطعى من المقاربة بين احدى هذه الرحلات وبين هجرته التى قرر مباشرة بعيد تبرمه السابق من الحالة الاجتماعية لما قال :

سأعصى عذولى فى السرى وهو ناصح
واغتشه فى نصحه وهو ماحض
وتطوى عواصى الفقر عيسى بأذرع
طوال التمشى بالخضم النضانض
الى حيث صير الشرع لانهج ظاهر
ولا باطل من حكمه متناقض

كما لايحق لنا كذلك ، لتعتيم مصادرنا-لاعتبارات عشائرية-وبعض الدراسات الحديثة على جوانب من حياة الشاعر ، أن نربط أو نقارب بين هذه القصيدة وبين ما استتبع قتل الشاعر نفسه لأشخاص قيل انهم سبوا والده فى مشادة غامضة ، من خلاف بين الفقهاء فى زمنه ، وجدل ذهب فيه بعضهم الى تجريم فعله وربما انتصر البعض الآخر للضحايا فحمل عليه ، وقد أثر عنه قوله انه فعل مافعل لا دفاعا عن أبيه وانما انتصارا للعلم الذى فى صدره ، وقد يكون فى استمرار جدل العلماء من حول نفس الواقعة فى القرن الثالث عشر الهجرى خير دليل على مدى مابلغت فى زمنه هو نفسه ، فالشيخ محمد المامى يجهد نفسه ليجد تبريرا شرعيا مقبولا لما بدر من الشاعر، فيصل به البحث الى حد القول ان الرجل ربما اعتبر نفسه واليا من قبل سلطان المغرب على اقليم شنقيط .(٢)

---

١) العبارة لأحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ١ .
٢) الشيخ محمد المامى : كتاب البادية ، مخطوط ص ١٦ .

ومهما صح مما ألمحنا الى ظنه الماحا فابن رازجه نفسه يتكتم أسباب ضجره وتبرمه ، فلا يشير اليها الا لماما ومجملا معمما وان لم يخف توتر علاقته بالذين عناهم حين أنشأ قصيدته أصلا ، فهو يقول :

فلو كنت أرجو الود منهم تواخيا
وما منهم الا عدو مباغض
لكنت كراج للنوافل حفظها
لدى من مضاعات لديه الفرائض
وراج لداء طب منه هو مشكل
عليه مريض الماء والمتمارض

((الاخوانيات))

ان من عادة بعض مثقفى العصور الماضية بدء أو ختم رسائلهم النثرية - بعد الاتيان على الغرض الأصلى منها - بأبيات شعرية لا ليعبروا فيها عن صادق ونبيل عواطفهم تجاه مراسليهم فحسب وانما ليتخذوها كذلك سبيلا لاظهار قدرتهم على النظم والتأنق فى المكاتبة ، فمن ذلك ان العالم الجليل عبدالله بن محمد بن أحمد بن عيسى الحسنى كتب مرة بعد أوبته من أرض الحجاز الى العالم الجليل محمد بن المختار الأعمش (ت ١١٠٧ هـ) مرغبا له فى أن يضع شرحا على اضاءة الدجنة ، فورد بكتابه اليه قوله :(١)

أسيدنا إن عاق عما أريده
وانويه من تجديد عهدك عائق
وحالت صروف الدهر دون ارادتى
فان اعتقادى فى المحبة صادق

قال ابن الأعمش " فأجبته رجاء محصوله بعد أن أثار قوله الفائق ماكمن

---

١) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ١٦٠ .

فى الفؤاد من الاشتياق فقلت :(١)

بنا ضعف ماتشكو من الحب دائما

وان حال عن وصل صروف طوارق

عسى طول هذا البعد يعقب راحة

من الوصل أو تفنى لدينا عوائق

وان من الاخوانيات مايأتى دعابة بين الشيخ وتلميذه خاصة ان كان الأخير أثيرا - كما كان ابن رازجه لدى شيخه الفقيه مينحن بن مودى مالك - اثرة جعلته يمازحه معرضا ببرذونته فيقول :(٢)

لسيدنا مينحن برذونة اذا

خطت أخطأت سير المراخى الأمالح

تباشر الاعراف منها ذوابة

على نافع بن التونسى بن صالح

ويجيبه الشيخ على نفس الوتيرة فيقول :(٣)

لئن كان عبدالله قد عاب عرفها

واخطأها سير المراخى الأمالح

فقد زانها تبليغها واصطلاؤها

اذا ارتكبت يوما أمام الملائح

عليها فتى لاينثنى لكريهة

وليس بذى سيف وليس برامح

---

١) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ١٦٠ .

٢) ابن بنان البرتلى : المرجع السابق ص ٦٣ .

٣) ابن بنان البرتلى : نفس المرجع والصفحة .

((الحنيـــــن))

يرتبط البدوى بالمدار الحيوى من أرضه ومجاله المحمى منها ارتباطا حميما ، فهو وان شام البرق وانتجع العشب والكلأ ولم يقر له قـــــرار فانه - على عكس ماقد يتصور - يألف الأرض وتألفه ويأبى التنائى عـــن الأهل أو الغربة عن الأوطان ، ومع ذلك أو ربما لذلك لايتعدى مابين أيدينا من نماذج شعر الحنين الى الأوطان ، نموذجين يمثلان تاريخيا وفنيا شـــــعر جيلى النشأة الثانى والثالث : أولهما وليد الظروف الاستثنائية التى تعرض لها العالم الجليل أحمد بابا التنبكتى لما اقتاده القائد العسكرى زرقون عام ١٠٠٢ هـ بأمر من السلطان السعدى مولاى أحمد المنصور الذى فرض عليـــه الاقامة الجبرية بالمغرب فقال بعد أن أمضه الحنين الى أهله وصحبه : (١)

أيا قاصدا (كاغو) فعج نحو بلدتى
وزمزم لهم باسمى وبلغ احبتـــى
سلاما عطيـــرا من عذيب وشـــائـق
الى وطن الأحباب رهطى وجيرتـــــى
(.....)
ابى زيدهم شيخ الفضائل والهـــدى
وصنو أبى عمى وأقرب أسرتـــــى
وسيفى فسيف البين سل لفقدهـــم
على وهذا الموت ركنى وعمدتـــى
ولاتنس عبدالله ذا المجد والهـــدا
فقد مد حزنى فقد موتى وعشرتـــى
فوا اسفا منهم وحزنى عليهـــــم
فيارب فارحمهـــم بواسع رحمـــة

---

١) محمد الصغير الافرانى : نزهة الحادى باخبار ملوك القرن الحـــادى طبعة وترجمة هوادس باريس ١٨٨٨ ص ٩٨ من النص الأصلى و ص ١٧١ مـن الترجمة .

وأما النموذج الثانى فومضة من ومضات الشاعر المطبوع المجلس ذى الفمين قيل انه أنشأها لائذا بالفرار ممن توعده بعد أن أقذع فى هجائه ، وفيها يقيم فى حنو علاقة وجدانية بينه وبين قبرة شبيهة به فى غربتها عن وطنها ونأيها عن الأحباب ، ويدير تشابههما من حول شدوها واغبرار بدنها الظاهرى وبين حاله الداخلية وهو غريب فيما لاعهد له به من الديار فيقول :(١)

اصخ لقبرة نأت عن الوطن

كما نأيت ويبكى ساكن الوكن

مغبرة الطوق والمنقار جوءجوءها

تشوبه حمرة معفرة البدن

لما شدت خلت انى كنت أعهدها

بذى ذوى مائة تشدو على فنن

ولئن كانت القطعة الأولى من نهجها ، مضمونها وصياغتها نموذج لشعر فقهاء الجيل الثانى فان المجلس يوءكد من جديد فى هذه الأبيات تميز شعره بصدق العاطفة وتركيزها وبالتعبير الايحائى ويسر وبساطة المعجم اللفظى مما غاب عنا فى شعر الجيل الثانى وعرفنا عكسه عند أترابه من الجيل الثالث أو قريبا من عكسه وهى سمات تحيل مباشرة على خصائص شعر النشأة .

***

---

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٣٤٨ .

الفصل الخامس

الخصائص الفنية لشعر النشأة

ان شعر النشأة ، على نحو ماتبدى من اغراضه ومعانيه ، حصيلة طبيعية لتفاعل الانسان الشنقيطى تاريخيا مع معطيات الثقافة العربية الاسلامية فى اطار بيئته بمختلف خصوصياتها النوعية واشكالاتها التاريخية .

وقد قادنا تتبع تجربة هذا الانسان فى مضمار الشعر - نشأته الاولى - الى رصد فترات ثلاث ، افضى بنا الوقوف حيالها الى تحديد تيارين ، عللنا التوجه الغالب عليهما ، وبينا كيف اختص كل منهما او كاد ، بدوائر محددة من أغراض الشعر.ونحاول فيما يلى ان نتبين اهم السمات المميزة لكل منهما ولكننا قبل ذلك نرى ان نقدم لما نحن بصدده بتحديد اجرائى لازم ، مؤداه أننا سنعنى فقط بالخصائص الفنية العامة الغالبة على شعر أكبر عدد من شعراء الجيل وأكثرهم تمثيلا للاتجاه الواحد ، لاتلك التى قد تبرز لدى شاعر من مثال واحد او اثنين ،ومن البديهى ان مجال دراسة مانحن بصدده الى الخصائص هو المتاح الباقى والمعروف لنا حتى الساعة .

أولا : تيار التلقائية او ماقبل الاحتراف :

تطبع شعر هذا التيار سمات غالبة متداخلة متراتبة بعضهاعلى بعض مطردة قلما اعترضتها استثناءات او شذ عنها شاعر ، لعل من ابرزها للعيان وأهمها مانعرض له تباعا على النحو التالى :

ان اغلب نماذج شعر الجيل الثانى - اذا ماستثنينا بضع قصائد معدودة - مقطوعات قصيرة لاتزيد على خمسة أبيات الا قليلا ، وتسامت احيانا الابيات العشرة ، متخففة من كل استطراد ، اطناب ، أو تفصيل .

وليس مرد هذه السمة فى شعر النشأة الاولى الى حياة التنقل

وعدم الاستقرار ونقص أسباب الكتابة وشظف البداوة فحسب ، وانما يعود أيضا الى قدرة شعراء هذا الجيل على النظم والى درجة امتلاكهم لناصية أدوات التعبير . فما أظن أن النظم المطول المتسع للاحاطة بموضوعه والوقوف عند دقيق الجزئيات كان متاحا لفقهاء تيار التلقائية ،أو مناسبا لغاياتهم أو حاجاتهم التعليمية الدينية المحدودة .

وقد أدير شعر هذا الجيل فى الغالب الأعم حول موضوع واحد ، وخلا من كل تعقيد أو غموض فى المعانى ، بل كان قريبا فى مشاربه ، غير بعيد فى مراميه ، يميل الى التبسيط فى الطرح ، ويعزف عن التدقيق ، أو التأمل ، والتوليد ، فينزع نحو التقرير ، ولايعمد الى التبرير أو التحليل أو التجريد . والحق أنه فى كل ذلك انما عكس بساطة المحيط الصحراوى فى مختلف أبعاده واعتماد الشعراء على البديهة لا على العقل المكون ، ومن ثم فقد مال شاعر ما قبل الاحتراف الى الاخبار قبل الانشاء ميلا فرضته عليه طبيعته كفقيه معلم ، وامكاناته الثقافية ، وحاجات محيطه التى لم تكن فى مبدأ أمرها جمالية بل كانت تربوية ، تتوخى التعليم وتحرص على التوجيه ، فكان جمال الشعر ، بالتالى ، يقاس بمدى وضوح فكرته ، وابرازه لما وافق العاطفة الدينية وحقق نفعا .

ان الزام الشعر بوظيفة أخلاقية لايحيد عنها الشاعر ، قد أدى الى خلوه من ماجن القول وماقد يوءدى اليه من الأغراض والى التشبث بالصدق ، أو الحرص على عدم العدول بالحقيقة عن معطياتها الماثلة الى امكاناتها الاحتمالية غير المتحققة فى الواقع المباشر ، مما قد يعنى فى نهاية المطاف سقما فى الخيال ، وسطحية فى العاطفة ، وأحادية فى معايير الحكم على الشعر .

وقد عكس نظام القصيدة لدى هذا الجيل ماسلف من خصائص على النحو التالى : خلت المقطوعات والقصائد من أى أثر للمقدمة الغزلية أو الطللية خلوا تاما ، فمن الشعراء من طرق ، مباشرة ، غرضه الأصلى دون مقدمات ، كما فى مدح محمد مسلم الديسفى للمحاجيب ، الذى ابتدأه بقوله :

اذا كنت جوالا وفى الأرض تبتغى
منازل بعض الصالحين ذوى الذكر
عليك بعثمان الفقيه المجدد
وآبائه الغر الأكارم من فهر

ومنهم من استعاض عنها بالحمد والصلاة على النبى ، على نحو ما استهل محمد قللى قصيدته قائلا :

الحمد لله مادام الوجود له
حمدا يبلغنا منه الرضا أبدا
ثم الصلاة على خير الورى أحمد
وآله الكرما وصحبه الزهدا

أو بالاستبشار كقول سيدى اعمر الشيخ :

بشراك ياقلب هذا سيد الأمم
وهذه حضرة المختار فى الحرم
وهذه الروضه الغّراء طاهرة
وهذه القبة الخضراء كالعلم
ومنبر المصطفى الهادى وحجرته
وصحبه وبقيع دائر بهم

ويخلص جميع شعراء هذا الجيل الى مضامين قصائدهم دون واسطة من رحلة أو اضطرار الى التمهيد من بعد المقدمة التى تحيل مباشرة على موضوعات ومعانى القصيدة التى ترتكز عليها ، كما درجوا على ختم ابتهالاتهم ومدحاتهم بالصلاة على النبى وآله والدعاء لخلفائه الراشدين بالرضوان كقول سيدى اعمر الشيخ:

ثم الصلاة وتسليم الالـــــــه علـــى

هذا النبى رفيع القـــــــدر والشيم

محمد المصطفى والآل ثم علـــــــى

أصحابه ماسرى ركـــب لربعهـــــم

أو كقول محمد مسلم الديسفى :

عليهم من الله الكريم تحيـــــــــة

ومنهم عليهم صفوها سالف الدهـــــــر

وثم على المختار أزكى تحيـــــــة

مع الآل والصحب الكرام ذوى الشكر

أو كقول عمر الولى :

عليكم سلام الله ماهبت الصبـــــــا

وما كشف الرجا عن مطلع الفجـــــــر

أو كقول محمد قللى :

وابعث من الصلوات الزاكيات لهـــم

ومن سلامك مالاينتهى عـــــــــددا

وقد يحدث أن تقرن الصلاة الختامية بالاستغفار ، كقول الطالب أبى بكر بن على ابن الشيخ :

أستغفر الله فيما كتبـــــــــــت

ومابه من قول قد نطقـــــــــت

فى هذا الرجز أو فى غيـــــــــره

غفرانه سبحانه فـــــى أمـــــره

أو بأن يستودع الشاعر الله الحفيظ أعز مالديه ، كقول محمد قللى :

أستودع الله أولادى وأمهـــــــــم

والدين والعلم والآبـــــاء والجسدا

والمال والجاه والاخوان كلهم

والصهر والصحب والجيران والبلدا

وكل ما أنعم الباري على به

فهو الحفيظ لما استودعته أبدا

ان بناء قصيدة ماقبل الاحتراف بناء بسيط غير مركب ينبنى على مقدمة حمدية تستبقى النعماء ، فجسم يختلف فى مضامينه باختلاف أغراض القصيدة ، ثم صلاة ختامية على النبى الحبيب ودعاء بالرضوان لصحابته الأقربين .

لقد كان الحقل المعرفى العام لشعر هذا الجيل حقل دينى ، يقوم معجمه فى بعده الدلالى ،على استيحاء ألفاظ ومعانى القرآن الكريم كماتتبدى فى ظاهريتها ، وبعدها عن الاغراب والتأويل . ونستطيع مادمنا لن نتمكن فى هذا المقام من تقديم دراسة لغوية وافية لمعجم هذا الجيل ، أن نلحظ بصدده مايلى :

(١) كثرة الاقتباس من القرآن الكريم ونظم آياته ، كقول محمد قللى :

انا سألناك يامن لم يزل صمدا

ولم يكن والدا ولم يكن ولدا

(٢) الاعتماد على كتب السيرة فى صوغ معجزاته صلى الله عليه وسلم ،وسائر أخباره فى باب المديح ، وقد مر بنا من ذلك مايغنى عن ضرب الأمثلة .

(٣) نظم مألوف الدعاء ومأثوره كقول محمد قللى ناظما قولهم (اللهم اجعل لنا من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا) :

وافتح لنا منك فتحا غير منقطع

واجعل لنا فرجا وابعث لنا مددا

(٤) تناهى العبارة فى البساطة وقرب المأخذ ، اذ توشك أن تكون ان لم تكن فعلا ، من مستوى اللغة الاصطلاحى التواصلى ، على أن نفهم أن يسر العبارة

هنا ليس اختيارا يفاضل به صاحبه فيتوخى الجمال من جهة التبسيط والعـــزوف عن التعقيد ، وانما هو من قبيل الممكن المدرك الذى لامحيص عنه ، اذ كثيرا ماحدث أن العبارة نفسها لم تف بالمقصود كقول محمد مسلم فى معرض المدح :

ولو أن نفسى راجعتنى حصـــــاءها

مناقبهم كلت عن العد والحصـــر

أو شابها غموض أو ضعف فى التركيب كقوله أيضا :

أولئك من خير الأسالف عـــــادة

قديما بطيب الأصل فى أكمـــل الحضر

ان شعر تيار التلقائية يخلو تماما أو يكاد من صور البديع كاجراء جمالى فى الشعر ، فمهمـــا أطلنا الوقوف مع شعر هذا الجيل فلن نجد مما يمثـــل خاصية مشتركة سوى تشبيهات قليلة مألوفة مستمدة من التراث ولكنها تتناســب - ليسرها - مع قدراتهم العقلية وخبراتهم بالشعر ، يقول الحاج أحمد بن انـد عبدالله معرضا بالوشاة والحاسدين:

فألسنهم كالسم فى الشهـــد داوءها

مضر ولايخفى على من تعقـــلا

ويقول محمد الديسفى متحدثا عن يحي الكامل فى معرض مدحه للمحاجيب الذيـــن شبههم بالمصاليت البيض :

وكان لهم حصنا حصينا ومعقـــــلا

وكان لهم كالنجم والشمس والبـدر

ان جل ماوقفنا عليه من نماذج شعر ماقبل الاحتراف قد نظم فى بحور ثلاثـــة من أصل ستة عشر بحرا ، توالت تبعا لنسبة ورودها على النحو التالى : الرجـــز فالطويل يليهما البسيط . ونحن اذ نعلل شيوع بحر الرجز بما اشتهر به مـــن سهولة وبكثرة الأراجيز التعليمية فى الوسط الشنقيطى ، لاندرى سببا معقولا يسوغ كثرة نظم شعراء النشأة فى بحرى الطويل والبسيط ، الا أن تكون نسبة تداولهما

والأنبيا كلهم والآل أجمعهـــــم

وصحبهم ومن اهتدى بهم وهـــدى

حيث جاءت تفاعيل الشطر الأول :

مستفعلن / فاعلن / مستفعلن / فعلـــــن

وجاءت تفاعيل الثانى :

مفاعلن / فعلن / مفاعلن / فعلـــن

وقد اضطر رواد هذا الجيل الىارتكاب الضرورة التى لاعذر فى ارتكابهـــا كنصب نائب الفاعل فى مثل قول محمد قللى :

وقد مددت يـدا بالذل مشتكيـــا

اليك ياخير من مدت اليه يـــدا

وتنوين المضاف فى مثل قول محمد مسلم الديسفى :

على أنهم من خيـــر عدنان قومـوا

ومن رحـــم قربى له من ذوى الخيـــر

ونعت الجمع بالمفرد فى مثل قوله أيضا :

وهم علمـــوا الناس الرياسة والتقـــى

ومن قبلهم كانا ذوى سبل وعـــــر

* * *

ثانيا: تيار الصنعة واحتراف الشعر:

شهدت بلاد شنقيط ابتداء من منتصف القرن الحادى عشر الهجرى - على نحو ما بينا تفصيلا فى المكان المناسب من هذا البحث - تحولا على المستوى الاقتصادى والاجتماعى (حرب شربه وماتلاها من توزيع غير عادل للثروة وتخصص لفئات المجتمع) مهد له وصاحبه تحول فكرى ثقافى جذرى (تعميم الاسلام وتعريب اللسان الشعبى) انعكست آثاره ايجابا على الشاعر ومكانته وحريته فى التعبير . وقد ألمحنا مرارا الى أن شعراء الجيل الثالث كانوا علماء هضموا العلوم الشرعية هضما وغاصوا فى دقائقها فألموا بأوجه الخلافات المذهبية عامة ، وقتلوا الخلافات الفرعية حول المسائل بحثا ، وقد قادتهم قراءاتهم المتأنية لعلوم الشرع الى العناية المتزايدة بعلوم الآلة والمتمات ، فاستطاعوا لمكانتهم الاجتماعية المرموقة بواسطة من علمهم ، أن يخترقوا فى شعرهم حاجز الأخلاق والسد المنيع الفاصل بين غرض دينى أخلاقى لائق وآخر بالعلماء يزرى .

وقد نحا الشعراء الى التأمل والعقلانية النسبية - قياسا على الذين قبلهم - فاتجه الشعر بموجب هذه النزعة نحو دلالات عقلية أبعد وفارق ما ألفناه من قبل من تبسيط . ولعل من أبرز مظاهر منزعهم العقلى أن دلالات شعرهم أضحت محتاجة الى حد أدنى من اعمال الذهن لاستنباطها ، اذ لامباشرة فيها وانما ترد المعانى ايحاء يقول المجلسى أبوفمين :

قد طال ما أومضت لى منك بارقة
يا ابن الأمين ولايرجى لها مطر
أنت السحاب ولكن لست تمطرنى
وليس ينبت فى أرض لك الشكر

ويقول ابن رازجة :

بك الله نادى عالم الغيب باليا

فأغواهم عدلا ووفقهم لطفا

ومن مظاهر نزعتهم العقلية محاولتهم الاستدلال واقامة الدليل على آرائهم فى المسائل الخلافية والزام خصومهم الحجة ، يقول اليدالى :

ولقد علمت بأن الهجو حرمته

أتت حديثا واجماعا وقرآنا

ويقول ابن رازجة داحضا فتوى شيخه بتكفير من لايعرف العشرين الواجبة وتلك المستحيلة فى حق الله :

فتوى قضى الدين الحنيف بأنه

منها برىء فهى زلة عالم

شرع النبى منوطة أحكامه

بظواهر مضبوطة ومعالم

لافى بواطن خافيات علمها

للعالم الأسرار والمتعالم

فمناط اسلام الورى نطق بما

يدرى وتنطق فى انعدام عادم

والكل فى الدنيا على اسلامه

يجرى بملزوم الخطاب ولازم

ومن مظاهرها أيضا الوقوف فى شعرهم حيال قضايا كلية كالموت والحياة والدهر وآثاره ، يقول ابن رازجة :

ولسنا نسب الدهر فيما يصيبنا

فلا الدهر جاليه ولا هو جالبه

كما ضمنوا أشعارهم آراءهم فى زمانهم وأهله ونظراتهم الى الناس وطباعهم ، يقول المجلسى :

سيحسدك الوضيع ومن قديـــــم

رفيع النـاس يحســـده الوضيع

وكان من الطبيعى على ضوء المعطيات السابقة أن تتوسع دائرة الشـــــعر توسعا ملحوظا تبدى فى المظاهر التالية :

(١) توسعت دائرة الأغراض لتشمل جل أغراض الشعر العربـــــــى المألوفة بما فى ذلك تلك التى كانت منفية فى عهد الجيـــل الثانى .

(٢) أضحت المعانى تفصل فى جزئياتها وتعرض فى اطناب واسهـــاب من أوجه مختلفة.

(٣) أضحت القصيدةنفسها ـ كنتيجة لازمة ـ مطولة ، كثيرا ماجاوزت ثمانين بيتا ، وجمعت الى غرضها الأ صلى موضوعات رديفة كانت مستغنى عنها ، وهو مايقودنا الى الحديث عن هيكل القصيـــدة عند هذا الجيل .

ان ما أصاب القصيدة من تطور على يد شعراء الجيل الثالث تمثل فـــى ربطها لأ ول مرة بنظام القصيدة العربية كما استقر فى التراث العربـــى ، الأ مر الذى لم يحدث فجأة ولا أصابها دفعة واحدة ، وانما سلك-فيمـــا يتراءى لنا- تدرجا بطيئا ؛ نلمسه من آثاره المتخلفة عن تجارب الجيـــل الماضى فى قصائد المديح النبوى ومقطوعاته وبعضا من مدحات هذا الجيل . فاليدالى مثلا كثيرا ما قدم لقصائد المديـــح وختمهـــا بالصلاة على النبى ، كقوله فى البدء :

صلاة ربـــــى مع الســـــلام

على حبيبـــــــى خير الأ نـــام

وفى الختم بعد أن أتى على شمائله ومعجزاته وطرفا من التوسل :

على الامام أعلى الأ نـــام

أنمى الســـلام من الســـلام

ويذهب المجلسى الى هذا أو الى قريب منه فى مقطوعاته الباقية التى يستهلها بالمناجاة ويختمها بالصلاة على النبى كما فىقوله :

عليك من صلوات الله أشرفهـــا

مادامت الأرض يحى وجهها المطـــر

وقد جاءت قصيدتان من شعر ابن رازجة - لعلها من أوله - على نفس المنوال احداهما فىالمديح النبوى(١) والثانية فى مدح ولى الله الكورى بن الفاضل وقد استهلها - فيما يذكرنا بتقاليد شعراء ماقبل الاحتراف - بالحمد والثنـاء فقال :

حمدنا الله ذا العرش المجيـــد

على الانعـــام والشرف الفريـــد

هو الكورى بانى العز والمجـــ

ـــد للاسلام والشـــرف العتيـــد

وختم بعد أن أدى حق الرجل فى المدح فقال :

وجازهم بغفران ورحمـــــى

ورضـوان وجنات الخلـــود

بجاه رسولنا المختار أعـــلا

وسائلنـا المشفـــع فى العبيد

عليه صلاة ربى مع ســـــلام

يفوح شذاهما أبد الأبيـــد

ان هذه الثوابت المتخلفة عن طور سابق من أطوار الشعر الشنقيطى لـــم تمنع شعراء الاحتراف من السير قدما بخطوات حثيثة نحو بنـــاء مركب للقصيدة تجلى أكثر ماتجلى فى قصيدة المدح .

---

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٤-٦ .

ان أربعا من بين مدحات خمس ورثناها عن جيل الاحتراف جاءت مدبجة بمقدمات تطول حتى تنيف على ثلاثين بيتا كما فى لامية اليدالى.(١) . وتقصر الى خمسة أبيات كما فى دالية ابن رازجة فى مدح أمير السوس سيدى محمد العالم (٢)، وجاءت ثلاث مقدمات ،من أصل أربع ، غزلية خالصة . أما الرابعة فجاءت أشبه ماتكون بالمونولوج الشجى بعد أن بيت الشاعر نية السير والسرى الى الممدوح حيث خلاصه .(٣)

ان موقع المقدمة الغزلية بين عناصر المدح مضطرب غير ثابت ، فلئن كانت قد جاءت فى مكانها المعهود فانها أيضا قد جاءت مسبوقة بمدح عام فى قبيلة الممدوح تلاه وقوف الشاعر غزلا قبل ان يتخذ من لفظ الخلاص ومشتقاته سبيلا الى غرضه الأصلى ، كقول اليدالى :

عن التخلص منها

كلت وجوه احتيالى

ان لذت بالسيد الملـ

ـك لست بعد أبالى

أو قول ابن رازجة :

سبتنى فقبلت الثرى متخلصا

أمام امتداح ابن الشريف محمد

ويقابل حضور المقدمة الغزلية فى مدحات شعراء الجيل الثالث غياب شبه كلى للمقدمة الطللية التى لانجد لها فى أشعارهم من ذكر(٤) سوى

---

١) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٢٢٦-٣٣٦ .
٢) نفس المرجع السابق ص ٢٣ .
٣) نفس المرجع السابق ص ٢١ .
٤) لايعنى غياب المقدمة الطللية فى مدحات هذا الجيل أن أحدا منهم لم يذكر ديار الأحبة أو يبك آثارهم فالمجلسى أبوفمين يقول :
أمربع حول ذات الرمل غيره
مر السوارى وترداد الصبا فيه

تقديم ابن رازجة مرة واحدة احدى قصائده بمقدمة نحا فيها نحو التشبيب بالديار والبكاء على أطلالها فى مثل قوله :(١)

سقى دمن الحى الحيا المتفائض
وفى وجهه برق من البشر وامض
يصب عليهن المياه كأنه
لما دنس العصران منهن راحض
معاهد آرام الأنيس فأصبحت
وفيها لآرام الفضاء مرابض
رياض لوى بيض العمائم حزنها
كما قمصت خضر الملاء الربائض
تذكرنا هاتى بتلك تشابها
يبين فيخفيه الشوى والمآبض
فتلك التى يغذو صناب وناطف
وهاتى التى يغذو كباث وبارض

ان عناصر معمار المدحية لاتنقضى بانقضاء حبل المدح فكثيرا ماوقف شعراء الجيل الثالث حيال شعرهم مدلين به على الممدوح مفتخرين به مانين عليه بمدحاتهم . يقول ابن رازجة فى معرض مدحه لأمير السوس :

= قد طال فيك على الادمان ما اجتنبت
أوامر الله واعتيدت نواهيه

وللذئب الكبير قطعته التى مطلعها:

ربع الأحبة بعد الظاعنين عفا
وحسبنا الله لما أن عفا وكفى

١) ابن رازجة : الديوان ص ١٣٠ .

اليك بها ياكعبة المجد كاعبـــــا
من الشـــعر لاتستطاع أركانها مسحـــــا
اذا شهدت زكى الأعـادى حديثهـــا
وان أثخنت عنا قلوبهم جرحـــــا
أكلفها فرض المحال لدائهـــــا
لشكر ندى لاينتهى مزنه سحـــــــا
فخذها ابنة الحاء التى الحمد مبتدا
لها وبها خلاقها كمل المدحـــــا

ويقول أيضا زافا داليته الى نفس الممدوح :

أمكنه من بكر شعـــر خريدة
نتيجة فكر سلسل الطبع جيـــــد
عروب عروس الزى أندلسيـــة
من الأدب الغض الذى روضه نـــــد
من اللائى يستصبين (مينحن)عنوة
ويعهدن فى (الحراق) أطيب معهـــد(١)
ويسلبن معقول ابن زيدون غبطة
بأسلوب مايسقين من خمر صرخـــــد

ولايلزم أن تكون مدحة الشاعر دوما من الكواعب والأبكار ، فقد تكـــون عجوزا أفادت من ضروب التوقيع لدى الأمم البائدة ،فابن رازجـــــة يقول أيضا فى معرض مدحه لمحمد الكريم بن الفاضل :

اليك فاغض جحمرش عجـــــــوز
تقص معالم الزمن القديـــــــم
لها فى اللهو ضرب بعد ضـــرب
على آذان أصحاب الرقيـــــــم

---

١) مينحن والحراق شيخان من شيوخ الصحراء والسوس معاصران للشاعر.

فتاة حين جرهم استعـــــادوا

وطافوا بالمقام وبالحطيـــــم

واذ بكرت على طسم جديـــس

واذ خربت ديار بنى أميـــــم

واذ صليت تميم نار عمـرو

مضيف البرجمى الى تميـــــــم

ويذكر اليدالى شعره ولكن فى تواضع واتساق مع غرضه الأصلـــــى اذ يجعل من خصال ممدوحه مصدرا لما حوت المدحة من المحاسن فيقول :

اليكها بكـــــــر فكـــر

ياسيـــــدى ذى كـــــلال

أضحت بذكرك فيهـــــــا

تبأى بحلـــــى وخـــــال

يثنى عليك لســـــــان

منها صـــــدوق المقـال

بنظم فضلك تشـــــــــدو

دأبا بغيـــــــر مـــلال

ومن العادات الأثيرة لدى شاعر الجيل الثالث أن يلجأ - بعد الأطناب فى الحديث عن شـــعره - الى ممدوحه مستعطفا له كـــى ينظـــــر الى شـــعره بعين الرحمة ويتجاوز عما حوى من هفوات ، يقـــول ابن رازجة :

تخادع وان كنت اللبيب لبهرجى

ولاتنتقد ياسيدى وابن ســـيدى

ويقول اليدالى :

فاعذر لها والحظنهـــــا

بمقلـــــــــة المتبالـى

واسمح ولاتنقدنهـــــــــا

وابسط لها وجه خـــــال

لقد أهملنا حتى الآن الرحلة الى الممدوح ، كعنصر من عناصر معمـــــــار القصيدة العربية التقليدية ، التى صدر عن محاكاتها شعراء جيل الاحتراف والحق أنهم هم الذين أهملوها فلم نعثر لها-بالتالى-على أثر ، عدا اشارة مقتضبة غايرت ، من حيث الموقع ، المكان الاعتيادى للرحلة فى القصيدة العربية ، قد أوردها ابن رازجة بعد أن خلص من الغزل الى المـــــدح وأتى بالعديد من شمائل الممدوح وانتصفت قصيدته ، فقال :

دأبت على الســـير المبرح والسرى

أجوب الفيافى فدفدا بعـــد فدفد

مهامه للسارين فيها توقـــــــع

لأهوال أغوال طواغيـــــت مـــــرد

يطيـــــر لما يبدينـــه من تلون

شعاعا فوءاد الضابط المتجلـــــــد

الى حضرة سنية حسنيـــــــــــــة

منيرة آلاء الهدى المتصعـــــــد

وكأنما قصد الى توظيف الرحلة فى هذا المستوى من القصيدة توظيفـــــا نفعيا اذ نراه يختمها مركزا على جود وكرم الممدوح مستميلا لـــــــه فيقول :

وبحر ندى ما للفرات انسجامـــــه

ودجلة لا تحكيـــــه فسحة مـورد

فأعتاد منه ماتعودت من يـــــدى

أبيه أمير الموءمنين المؤيـــــد

ان اتساع وتنوع الدوائر الفرعية للحقل المعرفى العام الذى استقـــــى منه شعراء هذا الجيل ثقافتهم قد انعكس على معجمهم اللفظى الـــذى

لم يتوسع كميا فحسب وانما أضحى أقوى سبكا وأمتن رصا، فنحا منحى ابن رازجة الى الجزالة والفخامة فى غير قليل من الصعوبة والغرابة خاصة فى مجال الغزل (١) والمدح أحيانا(٢). وخلا أو كاد مع اليدالى والذيب والمجلسى أبى فمين مما يستغلق بموجبه على الفهم بل قارب مع الأخير حد السهل الأصيل الممتنع .

وقد أدى بعد بصر جيل الاحتراف بعلوم الشرع وقدرته على سبر أغوار اللغة - نحوا وصرفا - الى ادخال المصطلح العلمى ضمن معجمه الشعرى وتوظيفه فى سياق أغراضه(٣) كقول ابن رازجة مهنئا فى رثائه لأعمر آكجيل الأمير على شنظورة بتوليه الامارة :

هو الفاعل الخيرات قدر حذفه
فثق بوجوب الرفع انك نائبه
فقم راشدا واقصد عدوك واثقا
بفتحكه اذ هم خوفك ناصبه

ولئن كان شعر الجيل الثانى قد خلا من الصور ولم يحو منها سوى أقرب أنواع التشبيه ، فان شعر الجيل الثالث لايزخر بالصور البيانية فحسب وانما أيضا بألوان البديع ا لتى قصد اليها الشعراء قصدا وتكلفوها فى مشقة وأرادوها لذاتها باعتبار أنها زينة الشعر،ان لم تكن هى الشعر يقول ابن رازجة - مفتخرا - ان قصيدته :

ترقت لما فاقت و راقت تبرجا
على معتلى برج البديع المشيد
وجانستها لفظا ومعنى كما اكتسبت
نقى السيراء البضة المتجرد

---

١) ابن رازجة : الديوان ص ٨٩ .
٢) نفس المرجع السابق ص ١٠٨ فما بعدها.
٣) سيكون لهذا النوع من التورية بالمصطلح النحوى أثر بالغ فى أطوار الشعر اللاحقة على النشأة ، راجع بحث ابن البرا : ألفية ابن مالك وأثرها على الثقافة الموريتانية ، انو اكشوط ٨٠ .

ويعزف اليدالى علىنفس الوتيرة مفتخرا فيقول ان أشهر قصائده (صلاة ربى) قد حوت " لطائف بيانيةودررا من البديع مكنونة وجواهر منه عن أيدى الابتذال مصونة ".(١)

وتتمثل صور هذا الجيل الغالبة فى التشبيه بمختلف أنواعه وأغلبه البليغ كقول أبى فمين على سبيل المثال لا الحصر :

أنت السحاب ولكن لست تمطرنى
وليس ينبت فى أرض لك الشكر

وقول ابن رازجة :

فما نخشى الضلال وهم نجوم
ترينا الهدى فى الليل البهيم

أو قول اليدالى :

هم فى المكارم تبر
وغيرهم كالطفال
هم فى الجلال يمين
وغيرهم كالشمال

والاستعارة بنوعيها كقول ابن رازجة :

وبحر ندى ما للفرات انسجامه
ودجلة لاتحكيه فسحة مورد

أو قول اليدالى :

فاهنأ فقد نلت تاج الشـ
ـعر العزيز المنال

أو المجلسى :

أرين ما أبقت يد الحدثان
وليس على ريب الزمان يدان

---

١) محمد سعيد اليدالى : المربى على صلاة ربى ، تحقيق محمد مبارك ، انواكشوط ٨١-٨٢ م ، ص ٤ .

وان كان لنا أن نسم صور هذا الجيل بسمة غالبة فاننا نصفها فى اطمئنان بالتقليد.فهى من جهة لاتبدو فيها أية خصوصية لبيئة الشعراء المغايرة - على الرغم من التشابه الظاهرى - لبيئة شعراء الجزيرة والمغرب والاندلس ، وتستوحى من جهة ثانية المشاع المشترك من صور التراث العربى بمختلف مراحله وفقا لترتيب عناصر الثقافة الشنقيطية على نحو ما أسلفنا فى فصل الثقافة وتبعا لدرجة حضور الجدول الذى يستقى منه الشاعر تجربته على نحو ماسنرى فى آخر هذا الفصل ، أضف الى ذلك أن نسبة تصرف شعراء هذا الجيل فى موروث الصورة العربية زيادة أو نقصا ، تعديلا أو تحويرا نسبة ضعيفة جدا من الصعب اثباتها.

وأما البديع الذى كلف به شعراء هذا الجيل فألوانه كثيرة متعددة فمنه على سبيل المثال :

التورية :

فى مثل قول ابن رازجة :

تملك أطراف القضاء وفقهه
وماهو الا مالك ومطرف
تخاطبنا كبرى ابن يوسف عنده
دعوا كثرة الآراء هذا المصنف (١)

والطباق :

فى مثل قول المجلسى :

قد أظلم الليل بالمعروف واعتكرا
وكنت أحمد عند الظلمة القمرا

---

١) للشيخ سيدى محمد السنوسى التلمسانى المشتهر ببلاد المغرب عقائد تعرف بالصغرى والوسطى والكبرى .

أو اليدالى :

وسيف حق علـــــــــــى أهـــــ

ـــــل الزيغ والاعتـــــــزال

أمات ربح هـــــــــــــداه

هوج الهـــــــوى والضـــلال

وابن رازجة :

ترى عين الفتى جنـــــــات عدن

وتصلى قلبـــــه نار الجحيم

والمقابلـــــة:

كما فى قول أبى فميـــــن مخاطبا مربع ذات الرمل :

قد طال فيك على الادمـــــان ما اجتنبت

أوامر الله واعتيدت نواهيـــــه

أو قول ابن رزاجة :

تفرق مايكفى البريـــــة كفـــــه

وتجمع من فوق التراب ترائبـــه

اللف والنشـــــر:

فى مثل قول المجلس :

وساعدتك من الأ يـــــام أربعة

اليمن والنصـــــر والتوفيق والظفر

والتعديـــــــد:

كقول ابن رازجة :

فأعطيتنى الأعيان والعين والكســـا

وبيض الظبا والنوق والخيل والطلحا

ولم تكن موسيقى شعر الجيل الثالث بمعزل عما جد من معطيات ومتغيرات فعلى مستواها الخارجى كثرت البحور المستعملة وتنوعت ، فكما نظموا فى الأبحر ذات المدى المقطعى الفسيح وفقا للترتيب التالى : الطويل ، البسيط ، الوافر ، الكامل ، المتقارب ، الخفيف والرمل نظموا كذلك فى الأبحر المجزوءة والمنهوكة ، وخمسوا قصائدهم ، بل خرجوا على مألوف الأوزان الخليلية وشكل القصيدة العربية ، فاليدالى له قصائد مشهورة جاء بها على أربعة أشطر متساوية الأوزان فى البيت الواحد ، يغير من بعد المطلع روى الأشطر الثلاثة الأولى ويحافظ فى الرابع على الروى الكلى للقصيدة ، ومن أشهر ماجاء عنده مصاغا على هذا النمط قصيدته :

صلاة ربى مع السلام
على حبيبى خير الأنام

التى تسير على هذا النحو :

ذاك الرفيع الغوث المنيع
ذاك الشفيع يوم القيام
عين الكمال عين الجمال
قطب الجلال قطب الكرام
بدر السعود وافى الوعود
وافى العهود وافى الذمام

ويشرح اليدالى بنفسه ما أحاط بانشاء هذه القصيدة من ملابسات فيقول " مررت يوما و أنا على جناح السفر ببعض أرباب الملاهى يرددون نغما من الألحان المطربة الملحونة وفنا من الأغانى الحسنة الحسانية الموزونة ... فاستحسنت أن أمدحه عليه الصلاة والسلام بقصيدة عربية على أسلوب تلك الأنغام ، فنسجت على منوالها وحذوت على مثالها ، فأتيت

الى ذلك الأسلوب بقصيدة عربية أعجوب ".(١)

وتخرج القصيدة - يقول اليدالى - على أوزان بحور الشعر العربى الستة عشر ، وتلتزم مستفعلاتن مرة فى كل شطر ، وان أقرب بحور الشعر العربى اليها مخلع البسيط .(٢)

وايا ماكان وزنها أو سبب انشائها وماتحتذيه من مقامات الغناء الحسانى فان تشابها قويا يربط بينها من جهة وبين نظام المسمطات المربعة كما فى قول أبى نواس (٣):

سلاف دن كشمس دجن
كدمع جفن كخمر عدن
طبيخ شمس كلون ورس
ربيب فرس حليف سجن
يامن لحانى على زمانى
اللهو شانى فلا تلمنى

وبينها وبين نظام الموشحات من جهة ثانية .(٤)

ومن السمات البارزة التى تغلب على الموسيقى الخارجية لشعر الجيل الثالث مايلى :

١) ان جميع حروف الروى الا قليلا جاءت مجهورة لا مهموسة وان القوافى مطلقة لامقيدة ، وهو مايتفق مع نسبة شيوع الجهر فى الشعر العربى القديم (٥) وماقد يتناسب مع جزالة الموسيقى

---

١) اليدالى : المربى علىصلاة ربى ص ٢٥-٢٦ .
٢) نفس المرجع السابق ص ٨٠ .
٣) د.شوقى ضيف : العصر العباسى الأول ط الثامنة ١٩٨٢ دار المعارف ص ١٩٩ .
٤) راجع مقارنة لويس ماسينيون بين هذه القصيدةونظام الموشحات الأندلسية فى :
Louis Massignon: Un Poete Saharien:
La quasidah d'AL YEDALY, in Revue du M.M. T. VIII 1909, PP. 203-204.
٥) د. ابراهيم أنيس : موسيقى الشعر ص ٣٥-٣٦ .

وقوة الجرس وهى صفات وسمنا بها من قبل معجم بعض شعراء هذا الجيل .

٢) ان الشعراء مالوا الى التصريع فى الابتداء ميلا بينا من ذلك قول الذيب الكبير :

ربع الأحبة بعد الظاعنين عفـــــا

وحسبنا الله لما أن عفا وكفـــــى

وقول اليدالى :

براعـــــــة استهـــــــلال

بـــــدر البهى والجمـــــال

وقول أبى فمين:

قد أظلم الليل بالمعروف واعتكرا

وكنت أحمد عند الظلمـــــة القمـــرا

أو قول ابن رازجة المغرم به :

تخافقت البروق على الغميـــــم

شـــفاوءك يامقيلة أن تشـــيم

أو قول الحمد بن حامدت :

بمطلـــــــــع السعد بـــــاد

ونيـــــل نيل المـــــراد

٣) ان التدوير يكثر فى شعرهم الى حد التواتر وهى ظاهرة لم نـــدر لها تأويلا محددا يفضى الى حكم ، وان كان ابن رشيق يعتبره دليـــــــلا على قوة الطبع وكثرة المادة [1]، ويرد التدوير فى شعر اليدالـــــــى متواليا كما فى قوله :

ان لذت بالسيد الملـــــــــــ

ـــــك لست بعـــــد أبالـى

---

١) ابن رشيق (أبو على الحسن) : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقـــده تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ط . الرابعة بيروت ١٩٧٢ ج١ ص ١٧٤.

يجود سمحا بحسن الـــــــــ

ـــخلاص من مكرهـــــا لـــــى

عبد الالـــــــه الأديـــــب الصـ

ـــدر العريق الأثـــــــــــال

صدر الأفاضل غـــــــوث الـــ

ـعباد بدر الكمـــــــــــال

وقد أقام شعراء الاحتراف ايقاع موسيقى شعرهم الداخلية على الاجـــــراءات التالية :

أولا: على المستوى الصوتى :

عمدوا الى تكرار الحرف الواحد على مسافات موسيقية متناسقـــــــــة أو قريبة من التناسق من حيث المدى الزمنى الفاصل ـ سماعا ـ بينهـــــا . ولانستطيع أن نخلص فى اطمئنان من هذا الاجراء الى توظيف فنى قصدوا اليه وتنعكس آثاره فى دلالات شعرهم وسياقه العام ، ولكننا نلاحظ فقـــــــط أنه جاء فى شعرهم على ضربين :

آـ ضرب تكرر فيه حرف الروى مرارا داخل القصيدة الواحدة :

ومن هذا القبيل تواتر حرف اللام فى لامية اليدالى فى مثل قوله :

فخر الأنـــــــام جمـــال الـ

اسلام حـــــلو الشـــمال

أو تواتر نفس الحرف فى لامية ابن رازجة كما فى قوله :

والفرد فى العلم والحلـــــــــ

ـم والحجـــــــا والفعـال

أو تواتر الفاء فى فائيته فى مثل قوله :

تخذتك كهفا دون ما أنا خائـــف

فلم أخش فى أعقاب حادثة لهفـــا

ب - ضرب تكررت فيه حروف مغايرة لحرف الروى فى حشـــــــــــو أبيات القصيدة الواحدة ، ومنه على سبيل المثال تواتر حرف الظـــــاء فى مثل قول المجلسى أبى فمين مفخما ومعظما من شأن ممدوحته :

قصدتك للعظمى وأنت عظيمـــــــة

ومن للعظيم الصعب غير الأعاظـــــم

وتواتر حرف اللام فى فائية ابن رازجة حيث يقول :

يحاول سلوانى الأحبة عذلـــــــى

وهل يجد السلـــــوان من يفقد الا لفـا

ثانيا : على مستوى الكلمة :

عمدوا فى شعرهم الى تكرار مجموعة أصوات بعينها فى كلمة أو أكثـر داخل البيت الواحد أو البيتين المتواليين وقد كلفوا بهذا الاجـــــراء أيما كلف ، وجاء بدوره عندهم على ضربين :

ضرب غالب يقوم على الاشتراك فى المادة الأصلية ، ومنه قـــــول اليدالى :

وحملتنى من اعبـــــــــــــا

ء الحب فوق احتمـــــــال

قتالة بهواهـــــــــــــا

لا بالقنا والقتـــــــــال

أغرت هموما توالـــــــــت

على أى تـــــــــوال

وقول ابن رازجة :

قواطع فى حشا المضى اليهـــــا

مقاطع در منطقها الرخيـــــم

وضرب يقوم على التشابه فحسب ، ومنه قول الذئب :

ربع الأحبة بعد الظاعنين عفـــــا

وحسبنا الله لما أن عفا وكفـــــى

أغرى به الأوطف الهتان هيدبـــــه

وعارض هزج لم يعد أن وكفـــــــا

وله أيضـــا:

ألا جـلد يـــوم النوى أســـتعيره

لبين حبيب زم للبيـــن عيـــره

ومنه قول ابن رازجة :

لآل الكور كور فى المعالـــــى

يدل عليه اقـــرار الحســـود

ثالثا : على مستوى البنية النظمية للقصيدة :

تخللت أشعارهم ظواهر مختلفة ، لعل أهمها:

رد الاعجـــــاز على الصـــدور

ومنه قول الذيب الحســـــنى :

قد ردنى كلفا لما وقفت بـــــه

ولست أول من قد رده كلفـــا

وقول المجلسى أبى فمين :

سيحسدك الوضيع ومن قديـــــم

رفيع الناس يحسده الوضيـــع

التقطيـــــع :

ومنه قول ابن رازجة :

ورأى يريه اليوم مافى حشا غـــــد

ويكشف عنه من دجى ليله جنحـــا

وحزم يهز الراسيات ثباتـــــه

وعزم يحاكى الزند ماضيةً قدحـــــا

وقول اليدالى :

والجسم منهـــــا لطيـــف

والقـــد مثل الهـــــدال

والفرع منها أثيـــــــــث

والوجه مثـــــل الهـــلال

والطرف منها غضيـــــــض

والثغر رطب اللآ لـــــى

والخد منها أسيـــــــــل

والجيد جيد غـــــــزال

الترصيـــــــع :

ومنه قول ابن رازجة :

أديب أريب لين الجنب هيـــــن

ولكن متى عادى فأى مشـــــدد

ومنه أيضا قوله :

ورشـــــدك ما أبداه فانكشف العمى

ووجهك ما أبهى وقلبك ما أصفى

ونخلص أخيرا من رصد هام سمات شعر النشأة بمختلف أطوارها ، علـــى نحو ماتبدت من النصوص القليلة الباقية ، الى النتائج التالية:

١) ان هذه الخصائص تكشف فىوضوح عن الخط البيانى للتطور العام الذى سلكه الشعر أثناء رحلته وتتناسب مع فتراته الأساسية .

٢) ان حلقات هذا التطور ، على اختلاف مددها الزمنية ، متدرجة متراتبة بعضها على بعض ، حظها من التفاوت مقبول عقلا ، حاصل تاريخيا ولانملك على غيره تدليلا .

٣) ان اطراد التقدم من طور الى آخر تم باستمرار تحت مظلة التقليد العام لأطر الشعر العربى القديم وأنساقه ، الأمر الذى ان عد سلبا فى مكان أو زمان آخر يعد ايجابيا ابان مراحل النشوء فى البيئة الشنقيطية التى ظل مبلغ الابداع فيها أن يجيد الشعراء المحاكاة وأن يقتربوا أكثر فأكثر من النموذج المحاكى .(١)

٤) ان الفوارق فى الصياغة من جيل لآخر تأثرت أيما تأثر بالفوارق بين النماذج التى اقتدى بها الشعراء أو المصادر التى صدروا عنها .

٥) ان تجربة شعراء النشأة رفدتها جداول تتوالى تبعا لدرجة حضورها على النحو التالى : رافد اسلامى لاتنقض سيطرته ، يليه آخر مغربى أندلسى، فعباسى وجاهلى .وستبقى هذه العناصر ، ويختلف ترتيبها فى عصر النهضة اختلافا بينا .

***

---

١) يقول ابن رازجة :

قفوت بها الشامى فى الفاء موقنا
بأنى وان دون ادراكه ضعفا

والشامى هو أبو الحسن على بن أحمد الشامى المغربى (ت ١٠٣٠هـ) .

الخاتمة

خاتمـــــــــــة

حاولنا فى هذا البحث أن نؤسس ، من منظور تاريخى ، لدراســـــة الشعر العربى الفصيح فى بلاد شنقيط ، بالكشف عن نشأته الأولى ، وبيـــان ماغمض من حلقات تطوره ، وطواه من ذكره الزمن ، لاحبا فى ركوب الغرر أو الخوض فيما غم ، بل رغبة فى سد فجوة فى تاريخ الدراسات الأدبيـــــة الشنقيطية تتسع مع الزمن ، ويحلو للدارسين غض الطرف عنها ، وتجاوزها فى غير اطمئنان ، اما اشفاقا على النفس من غموضها وعناء البحث فيها ، واما اتقاء لما قد تسبب للباحث عنها من حرج ، ان هو حاول أن يزعـــزع أو يشكك فيما قر فى الأذهان بشأنها .

وقد وجدنا منذ البداية ألاسبيل الى البحث فى أمر نشوء الشعر مالـــم نقدم لذلك بدراسة شاملة فى التاريخ ، والتاريخ الثقافى للبلاد ، تربـــط - وهو ماصدرنا عنه ضمنا - الـــظاهرة الأدبية بمختلف أنساقهـــا بأصولها الثقافية على نحو ماتبدت كنتاج تاريخى لفعل الانسان فى محيطه بمختلف جوانبه ، وهو البعد المفتقد فى النظرات الجزئية المنجزة حتـــى الآن على صعيد الدراسات الوطنية .

وقد قادتنا محاولات تأسيس وتأصيل هذه الثقافة الى تصنيفها مراحـــل أربع ، رتبناها وربطنا بينها تاريخيا وبين التحولات الجوهرية ، التى شهدتها البلاد على المستوى الاقتصادى والاجتماعى والسياسى منذ دخول الاسلام وحتـــى دخول الاستعمار حديثا فى القرن العشرين . وقد دفعت بنا - من جهـــة - طبيعة موضوعنا الأدبية وحدوده الى تركيز واقتضاب جانبه التاريخى أيمـــا اقتضاب ، والى الوقوف - من جهة ثانية - حيال المصادر الكتابيـــــة والشفاهية للشعر الشنقيطى معرفين بها ، ومبينين قيمتها العلميـــــة والتاريخية ، الأمر الذى حدا بنا الى محاولة فرعية لتحديد مكانة الشعـــر بين علوم القوم وآثار ذلك كله - صحة واعتلالا - على ما بأيدينا مـــــن

شعر ومانحن بصدد البحث عنه . فلما استقام لنا بعض ما أردنا عرضنا لاشكالية النشأة ونصب أعيننا أن نعرف ، تحديدا أو تقريبا ، متى بدأ نظم الشعر فى هذا الاقليم ؟ وبم وأين وعلى يد من بدأ ؟ .

ولم يكن لنا بد من أن نبصر القارىء ، وطنيا كان أم غريبا على البيئة ، بما أحاط بمبحث أولوية الشعر فى هذه البلاد من مزالق وذلك قبل أن نحدد مقتضيات النشأة عقليا ومفهوما لها يخرج بها عن دائرة البحث المجرد ، ويربطها موضوعيا بمرحلة محددة من مراحل التطور الثقافى للبلاد. فلما ضاقت الدائرة ، وانحصر البحث فى مرحلتى الاستيعاب ، والكمون الايجابى فى الثقافة الشنقيطية حسم استقراء النصوص الباقية ، وتتبع المتاح من الاشارات التاريخية الى الشعر مسألة تحديد الحقبة الزمنية .

وكما صنفنا الاشارات الى أنواع ثلاثة ،قلنا ان منها ما أفاد فحسب العناية بتعلم قواعد النظم ، ومنها ما أفاد ممارسته ، ومنها ماقصد فيه رواته الى الشعر بمفهومهم السائد فى زمنهم ، خلصنا كذلك الى أن أطوار النشأة ثلاثة : أول واكب مرحلة الاستيعاب وقام على أكتاف المعلمين الأول والوافدين الى المنطقة الشمالية ، وثان صاحب النصف الأول من مرحلة الكمون وقام على أكتاف الفقهاء فى المنطقة الشرقية من البلاد ، ثم ثالث واكب الفترة الثانية من مرحلة الكمون وقام به فى منطقة القبلة علماء نالت اللغة الحظ الأوفى من عنايتهم وهم الذين شاع عنهم أو أشيع السبق الى قرض الشعر ، الأمر الذى قبلناه ولكن لاعلى أن ابن رازجة ورعيل أترابه هم أول من اعتنى ، أوتعلم ، أومارس النظم، أوقصد القصائد، وانماعلى أنهم أول من اهتم به لذاته واشتهر به ، وتوسع فيه ، وابتدع فى اطار تقليد القصيدة العربية ، وظلت آثاره حية باقية لأسباب موضوعية فصلناها بما فيه الكفاية وفيه غناء عن الرجوع اليها من جديد .

وقد أكدت دراسة أغراض ومعانى شعر النشأة ماسلف من تصـــــــورات فأفضى بنا استقراء النصوص الى تبين معالم تيارين فنيين : تيـــــــــار التلقائية ذى الاتجاه الدينى - التعليمى ، وهو بمثابة قنطرة عبر عليها الشعر من مرحلة المهاد ، أو ماقبل الاحتراف ، الى مرحلة النشأة الفنيـة التى اضطلع بها تيار الصنعة ذى الاتجاه الاجتماعى المتحرر نسبيا ، والذى اعتبرناه بمثابة أولى حلقات التحول النوعى فى مسار الشعر الشنقيطـــى القائمة على اتقان الصناعة واجادة التحبير الفنى ، على نحو مارأينـــا من تتبعنا لخصائص شعر النشأة ، تلك الخصائص التى تتراءى لنا مـــن الآن انعكاساتها بارزة فى شعر شنقيط ابان عصره الذهبى - القرن الثالث عشر الهجرى - المواكب لمرحلة النضج والنهوض فى الثقافة الموريتانية.

***

المـــلحق

ملحـــق

نقدم فيما يلى أصناف الاشارات التاريخية الى الشعر فى تداخل لايميز احداها عن الاخرى ولايحكمه سوى التتابع الزمنى ، مكتفين بماسبق من تمييز بين انواعها ، وسنورد كلما لم يتأب ذلك بيانات الاشارة الواحدة على النحو التالى : شهرة الشاعر واسمه يليه الهام من بياناته كتاريخ وفاته ونسبه وموطنه وما استحق التنويه به من خبره ونردف بعد ذلك بالخبر عن شعره او شاعريته .

- ١ -

الامام الحضرمى ابوبكر محمد بن الحسن المتوفى عام ٤٨٩ هـ المرادى نسبا الأزوجى (نسبة الى مدينه أزكى بالشمال المورتيانى) مهجرا ومستقرا ،عرضنا له تفصيلا فى القسم الخاص بتاريخ الثقافة من هذا البحث[١] ضمن المعلمين الأول الذين وفدوا الى البلاد فأفادت من ثقافتهم وتعاليمهم ومقامهم بها ، قال عنه ابن بشكوال نقلا عن ابى الحسن المقرىء وابى العباس الكنانى " كان ذا حظ واقر من البلاغة والفصاحة (...) له نهوض فى علم الاعتقادات والاصول ومشاركة فى الأدب وقرض الشعر "[٢] وأورد له القاضى عياض فى كتابه (الغنية) قطعة فى القدر برواية تلميذه ابى الحجاج الضرير[٣]

- ٢ -

ابراهيم الذكوانى بن محمد كان حيا عام ٦٠٩ هـ ولاندرى عنه سوى ماورد بالموسوعة المغربية للاعلام التى قالت انه شاعر صنهاجى الاصل من سكان الصحراء المتاخمين لبلاد السودان ، استوطن مراكش ودرس بها[٤] والأرجح انه من اهل

---

١) ص -
٢) ابن بشكوال : كتاب الصلة ط ١٩٥٥ ج ٢ ص ٥٧٢
٣) رضوان السيد: فى تحقيقه لكتاب المرادى الاشارة الى ادب الامارة ص ١٧
٤) عبد العزيز بن عبدالله الموسوعة المغربية معلمة الصحراء ص ٢٠

ودان الذين اتصلوا مبكرا ببلاد المغرب الاقصى .

- ٣ -

محمد قللى أو قلو بن ابراهيم بن محمد بن بيجو من اهل القرن السابع الهجرى باعتبار تأسيسه لمدينة شنقيط ، عرضنا له فى القسم الخاص بتاريخ الثقافة من هذا البحث[١] وباسهاب يغنينا عن الاعادة والتكرار . تذكر له الرواية الشفاهية المتواترة فى محيط قبيلته وبعض القبائل ذات الصلة بها أو تلك التى لاتنافسها السيادة المحلية أو تنازعها ، قصيدة دالية فى التوسل[٢] .

- ٤ -

محمد بن مسلم الديسفى ، من اهل القرن التاسع الهجرى، استقر به المقام كغيره من بنى صنهاجه الجنوب بعيد أفول الدولة المرابطية وبروز ممالك الزنج جنوب الصحراء ، فى مدينة تمبكتو المحاذية لبيرو ولاته . ونحن نميل الى اعتبار وصف " الديسفى " الوارد فى آخر اسمه نسبة الى كلمة " اديسف "[٣] فخذ من قبيلة تجكانت الشهيرة . ويقوى عندنا هذا الاعتبار أن الرجل حميرى فى نسبة المصادر له ، وكذلك القبيلة فى نسبتها الثابتة عند نسابتها حميرية ، ويضاف الى ذلك رواية شفاهية تقول ان نزلاء المرتفع الغربى من شرفاء "تشيت" وبنى مسلم استنجدوا بالجكنيين على آخر القرن الثامن الهجرى ، لما فتكت بهم قبيلة ماسنا الزنجية ، فأغاثوهم وسيروا لهم الجيوش من تنيجى وودان . وأيا ماصح مماذهبنا اليه فان رواة المحاجيب - اهل التحقيق منهم - يقولون ان محمدا بن مسلم الديسفى نظم رائية فى مدح بنى الفقيه عثمان بن محمد الغيث وبنى القاضى محمد بن على بن عبد الله وبنى الامام اندغ محمد الكبير .[٤]

---

١) ص

٢) اعتمدنا نصها الذى بحوزة المؤرخ الاديب والشاعر المختاربن حامد ، اثناء مقابلة معه بالمدينة المنورة بتاريخ ١٩٨٣/٩/٧ .

٣) يقال انها تحريف لبنى يوسف .

٤) اعتمدنا نص العلامة المحجوبى اب ولدان نقلا عن احدى نسخ منح الرب المغفور فى ذكر ما اهمله فتح الشكور للطالب ابى بكر المحجوبى .

- ٥ -

الحاج احمد بن عمر بن محمد المتوفى عام ٩٤٣ هـ احد اعلام العائلة الصنهاجية المسوفية الودانية موطنا التى اتخذت من تمبكتو مهجرا ولعبت دورا بارزا فى ربط مراكز الثقافة الاسلامية فى السودان والصحراء الغربية باقطار المغرب العربى والمشرق الاسلامى ، التقى فى رحلته عام ٨٩٠ هـ الى الحج بالامام السيوطى قال ابن بنان " انه فقيه نحوى لغوى عروضى محصل "(١)

- ٦ -

سيدى أعمر الشيخ بن الشيخ سيدى احمد البكاى المتوفى عام ٩٦٠ هـ عالم داعية عمدة من رجالات قبيلة كنتة الشهيرة ، كان نقلة لم يرس له قرار ، جاب بلاد التكرور والصحراء والمغرب ومصر والشام والحجاز تسيارا ، لقى اثناء محمدا عبد الكريم المغيلى الجزائرى التلمسانى (ت ٩٤٠ هـ) وأفاد منه ايما افادة فأخذ عنه الطريقة القادرية ضمن ما اخذ عنه ، سافرا سويا والتقيا فى طريقهما الى الحجاز بالامام السيوطى (٢) فلما وصل الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم انشأ ميمية فى مديحه شهيرة .(٣)

- ٧ -

محمد بابا بن محمد الأمين (ت ١٠١٤ هـ) نزيل تمبكتو ، ترجم له البرتلى فذكر مشايخه ومناهج دراسته وآثاره الكتابية ثم قال عن شعره " وله قصائد جياد ملاح فى الامداح وله قبل وفاته لخمس سنين أوأزيد فى كل مولد قصيده

---

١) ابن بنان البرتلى : فتح الشكور ص ٢٧

٢) Marty, P: Les Kounta de L'est, R.M.M. 1918, 1919 Volume XXXVII pp.20 et Svtes.
Ismael Hamet: Litterature Arabe Saharienne, R.M.M. T.XII 1910 pp. 210-213.

٣) يقال انها مذكورة فى كتاب هداية الطلاب للشيخ سيدى المختار الكنتى ولم نقف عليه لتعذر ذلك وانما اعتمدنا ما اورد منها المختار بن حامد .

فصيحة التزمها نفعه الله تعالى بها ونفعنا به آمين"[١] ولم يذكر البرتلى نموذجا واحدا من شعره وان افصح بمالايدع مجالا لشك ان مديح المصطفى صلى الله عليه وسلم هو الغرض الغالب عليه .

- ٨ -

احمد بابا التنبكتى او احمدو بابا بن احمد بن احمد بن عمر بن أقيت المتوفى عام ١٠٣٦ هـ ، امره اشهر من ان نقف عنده فذكره ملأ كتب التراجم والسير وخبره يشنف الاسماع وانما الذى سنقف حياله هو لم اوردناه ههنا وهو الشهير بالتمبكتى ضمن من لهم صلة تاريخية بالشعر من اهل المنطقة التى نبحث فيها ؟ ونجيب توا ان الرجل صنهاجى جنوبى مسوفى النسب[٢] ينتمى لبطن ايقيتن بنى عم " نقيبل " و " تامجونا " سكان ودان الموريتانى الذين هاجروا من المنطقة الشمالية واستقر بهم المقام فى تشيت وتمبكتو من بعدها[٣] ، ساكنت أسرته اهل ولاته قدر مساكنتها لاهل تمبكتو الا قليلا فقد كانت تتحول من احدى المدينتين الى الاخرى تبعا لازدهارها واستتباب الأمن بها ، وتبادلت التاثير والتاثر مع علماء ودان وشنقيط كما يبدو ذلك جليا من اجازة الامام الزمورى للمختار بن القاضى اندغ محمد[٤] واجازة العلامة سيدى محمد بن المختار بن الاعمش الشنقيطى لمحمد بن الحاج عثمان الجمانى[٥].

لم يشتهر الرجل بالشعر غير ان له قطعة يندب فيها رفقته فى منفاه ويحن الى موطنه[٦].

---

١) البرتلى : فتح الشكور ص ١١٢

٢) A. Zouber, MAHMOUD: Ahmed Baba de Timbouctou (1556- 1627) Sa Vie et Son Oeuvre p. 14.

٣) H.T. Norris " Sanhajah Scholars of Timbouctoo" in B.S.D.A.S. XXX/3 1967 p. 636.

وللمزيد راجع كذلك :
J.O.Hunwick: A new source of the biography of Ahmed Baba al Timbukti in B.S.O.A.S. XXVII/3 1904 pp.568-93.

٤ ،٥) البرتلى : فتح الشكور ص ١١٧ - ١١٨

٦) الافرانى(محمد الصغير) : نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى ، طبعة وترجمة هوداس باريس ١٨٨٨ ص ٩٨ من النص الاصلى و ص ١٧١ من الترجمة .

- ٩ -

احد عبد الله بن سيدى احمد (ت ١٠٣٧ هـ) المحجوبى نسبا الولاتى موطنا احد اعلام قرية ولاته فى القرنين الحادى عشر والثانى عشرالهجريين ، سليل نسق من العلماء اقام للدين وللعربية شرقى البلاد صرحا وفى غربى السودان معقلا ، له من آثاره الباقية انظام مختلفة وشروح على الآجرومية وله قصيدة فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم (١).

- ١٠ -

الشريف الشاب محمد بن فاضل الذى كان حيا عام ١٠٤٥ هـ ، احد اخوين قدما الى البلاد من المغرب الاقصى واستقر بهم المقام فى نهاية رحلتهم بمدينة ولاته وبين ظهرانى علماء المحاجيب وفى اكنافهم ، وقد اشتهر اكبرهما - محمد - بالشريف الشاب بينما عرف الثانى بالشريف احمد بن فاضل ويبدو انهما كانا اهل دراية ومعرفة راسخة فقد ذكر البرتلى ان محمدا اكبرهما متفنن فى العلوم متضلع فى علم الظاهر والباطن جامع بين الحقيقة والشريعة وان له نظما فى نحو مائة بيت يعظ الناس فيه.(٢)

- ١١ -

محمد بن يوسف الولاتى (ت ١٠٥٠ هـ) أديب وشاعر وفلكى بارع اسندت اليه مهام التدريس وتحديد الوقت بجامع الحرة ، له تواليف فى الحساب والهندسة قال محمد حجى انه " عد امام اهل التعديل والميقات فى وقته وكانت له اليد الطولى فى الأزياج والحدثان "(٣) خلفه فى نفس المهمة ابنه محمد وقد ترجم له الافرانى فى الصفوة والمراكشى فى الاعلام .

---

١) البرتلى : فتح الشكور ص ١٥٩

٢) نفس المرجع السابق ص ٢١٣

٣) محمد حجى : الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ، دار المغرب للتاليف والنشر عام ١٩٧٦ ، ج ٢ ص ٣٩٥ .

- ١٢ -

عمر الولى بن الشيخ محمد عبد الله (ت ١٠٧٠ هـ) المحجوبى نسبا ، تاج ولاته موطنه ، شيخ العلامة سيدى محمد بن المختار بن الاعمش " فتح له الدعاء نثرا ونظما وله قصيدة فى علم الكلام وقصيدة مفيدة فى شرح الاسماء الحسنى وقصيدة طويلة فى نحو مائتين وثمانية واربعين بيتا يستسقى بها اذا امسك المطر "(١) وله رائية فى التوسل والانابة عرضنا لها ضمن فصل الاغراض .

- ١٣ -

الحاج محمد بن ابى هريرة ، كان حيا عام ١٠٧٣ هـ ، غلاوى النسب ، شنقيطى الموطن ، عنه اخذ الدرفن حفيد محمد انظمت السوقى (٢) " نحوى له حظ من علم التصريف واللغة وعلم العروض "(٣)

- ١٤ -

محمد بن مسنة بن عمر (ت ١٠٧٨ هـ) الصنهاجى المسوفى نسبا البرناوى مهجرا " له نظم لطيف ليس فيه حرف منقوط "(٤) ضائع أو لم نعثر عليه على الاقل .

- ١٥ -

الكورى بن سيدى الفال المولود على رأس القرن الحادى عشر (نحو ١٠٠٥ هـ) بالقبلة والمتوفى عام ١٠٨٠ هـ او نحو ذلك ، تذكر له الرواية الشفاهية دعائية لكنا لم نقف عليها ولم نعثر على مطلعها .

- ١٦ -

حبيب بن بلا اليعقوبى القبلى الموطن من اهل القرن الحادى عشر الهجرى باعتبار معاصرته لناصر الدين اوبك امام الزوايا وزعيمهم فى حرب شرببه

---

١) البرتلى : نفس المرجع السابق ص ١٨١

٢) نسبة الى مدينة السوق او تادمكه القديمة التى بناها الطوارق وتقع فى جمهورية مالى الحالية .

٣) البرتلى : فتح الشكور ص ١٣٠

٤) البرتلى : نفس المرجع السابق ص ١٣١ .

(١٠٥٥ هـ - ١٠٨٥ هـ) ولاندرى عن هذا الشاعر الا ماتذكر الرواية الشفاهية المتواترة عنه فى موطنه القبلة من ان ناصر الدين عزره لقوله بيتين من الغزل فى احدى بنات سعد الاوس .

- ١٧ -

الحمد بن حامدت او احمدو بن احمد المتوفى قرابة عام ١٠٩٠ هـ اذ يقال انه كان شيخا هرما عقيب " شربه " بسنوات محسوبة عدا ، وتذكر له الرواية الشفاهية دالية فى مديح المصطفى صلى الله عليه وسلم ذكرناها ضمن فصل الاغراض .

- ١٨ -

محمد بن ابى بكر بن الهاشمى (ت ١٠٩٨ هـ) الغلاوى نسبا الولاتى مقاما ومستقرا ترجم له البرتلى فاطراه وقال " ان له عقيدة منظومة فى التوحيد واجوبة مفيدة فى احكام مستغرقى الذمم "(١)

- ١٩ -

الطالب ابوبكر بن على بن الشيخ (ت ١١٠١ هـ) المحجوبى نسبا الولاتى موطنا احد اعلام ولاته " فقيه ، نحوى ولغوى ، له حظ فى الحديث والسير قيل انه كان يحفظ مقامات الحريرى وان له قصيدة دالية فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم على حروف المعجم "(٢)

- ٢٠ -

الطالب محمد بن المختار بن الأعمش (١٠٣٠ هـ - ١١٠٧ هـ) العلوى نسبا الشنقيطى موطنا ، احد اعلام القرن الحادى عشر الهجرى والمنطقة الشمالية المبرزين فى جل علوم العصر اخذ عن جمع من العلماء منهم من الودانيين سيدى احمد بن القاسم (ت ١٠٨٦ هـ) والحاج عبد الله بن محمد احمد ومن الولاتيين

---

١) البرتلى : فتح الشكور ص ١١٥
٢) البرتلى / نفس المرجع السابق ص ٧٣

الفقيه عمر الولى بن الشيخ محمد عبد الله والحاج عبد الله بن محمد بن عيسى الحسنى ، ومن ابرز تلامذة ابن الاعمش نفسه عبد الله بن ابى بكر بن على ومحمد بن الحاج عثمان بن السيد بن الطالب صديق الجمانى وابو عبد الله محمد بن ابى بكر بن الهاشمى الغلاوى وسيدى عبد الله بن رازجه الذى نظم نوازله كما نظمها من بعده عبد الله احمد بن الحاج حماه الله .

وقد عده احمد بن الامين الشنقيطى اول مؤلفى القطر - كما مر بنا - وذكر له عينية فى علم الحساب وصفها بالطول ولم يرو منها شيئا (١) ولم نوفق فى الحصول على بيت منها كما لم نحظ بالعشور لا على بائيته التى قيل انه يرد فيها على علماء مدينة اطار ولا على نظمه لمغنى اللبيب لابن هشام .

- ٢١ -

عبد الله بن محمد بن احمد بن عيسى البوحسنى ولاندرى تارخيا محددا لوفاته ولكنه معاصر لابن الاعمش السابق المتوفى عام ١١٠٧ هـ وسابق عليه فى الزمن وقد تراسلا وضمنا رسائلهما اشعارا خفيفة .(٢)

- ٢٢ -

ابوبكر الطفيل بن احمد بن محمد بن الشيخ احمد المتوفى عام ١١١٦ هـ وهو فى الأربعين من عمره المسلمى النسب نزيل تشيت كان رحمه الله تعالى " فقيها نحويا منطقيا متفننا جيد الشعر حسن النظم نجيبا حصل العلوم فى تسع سنين أو عشر من يوم اشتغاله بها ونظم قطر الندى لابن هشام نظما بديعا حسنا فى نحو اربعمائه بيت والله اعلم "(٣)

- ٢٣ -

سيدى محمد بن موسى بن ايجل (ت ١١١٧ هـ) الزيدى الداودى نسبا التشيتى وطنا صاحب نظم مسائل ابن جماعة فى البيوع وكشف النقاب فى قواعد الاعراب

---

١) احمد بن الامين : الوسيط ص ٥٧٨
٢) البرتلى : فتح الشكور ص ١٦٠
٣) البرتلى : فتح الشكور ص ٧٤

وكتاب رتق الحجر المعلق فى أصول وفصول المنطق ، تتلمذ عليه خلق كثير من اشهرهم سيدى محمد بن الطالب بن عمر البرتلى الذى اخذ عنه الفقه ، والطالب الامين بن الطالب الحبيب الخرشى الذى اخذ عنه الحديث والحاج ابوبكر بن الحاج عيسى الغلاوى الذى اخذ عنه المنطق كما اخذ عنه الطالب محمد بن الطالب عمر الخطاط المنطق والعروض ،" كان رحمه الله تعالى عالما فقيها نحويا لغويا أصوليا بيانيا عروضيا منطقيا شاعرا ناثرا متقنا متفننا حسن الخط بديعه "(١)

- ٢٤ -

المختار الشاعر بن محمد بن ميجة بن يعقوب عاش فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الهجرى وتوفى على آخر العقد الثانى من القرن الثانى عشر ، لاندرى لأى من قبائل القبلة - موطنه - ينتمى ، كما لانعرف أكلمة الشاعر من اسمه اصلا ام أنها وضعت للدلالة على شاعرية تميز بها فى محيطه وكل الذى نعرفه ان اهل الرواية والدراية فى المنطقة يعزون له اول مدحة بالفصحى قيلت فى احد امراء بنى حسان لاتعينه مصادرنا الروائية ومحصول الباقى من القصيدة نفسها لايمكننا من تحديده .

- ٢٥ -

عبد الله بن ابى بكر بن على بن الشيخ (ت ١١٢٢ هـ) المحجوبى نسبا قاضى ولاته - موطنه الاصلى - وامامها ، عالم جليل فى نسق من العلماء ممتد لقرن من الزمن ويزيد ، اخذ عن العالم سيدى محمد بن المختار بن الاعمش الفقه والحديث وأجازه فيهما ، له " فتاوى مفيدة وقصيدة لامية فى نحو ثلاثين بيتا فى معانى الحروف اى حروف الجر ، استوفى فيها ماتى به الاشمونى من معانيها (...) وله قصيدة نونية فى الدعاء فى بحر المتقارب وهى منفرجة عجيبة "(٢) ضائعة لم يبق الا مطلعها .

---

١) البرتلى : فتح الشكور ص ١٠٩ - ١١٠

٢) نفس المرجع السابق ص ١٦٢

- ٢٦ -

الحاج الحسن بن آغبد (ت ١١٢٣ هـ) الزيدى نسبا الولاتى وطنا عالم فقيه مشتهر بين اهل القطر والسودان الغربى كله اخذ عن الفقيه سيدى احمد الولى بن ابى بكر المحجوبى وعن الفقيه سيدى احمد ابى الأوتاد الحنشى وتتلمذ عليه خلق كثير من بينهم الاخوان الشريفان ابنا فاضل الشريف محمد واحمد والفقيه محمد بن بابا والطالب احمد بن محمد بن الحاج الخطيب الجمانى " ألف منظومة سماها تحفة الصبيان فى التوحيد ونظم ام البراهين ونظم نخبة الفكر فى مصطلح اهل الأثر لابن حجر سماه روضة الازهار (...) وله نظم مفيد فى ضبط المشتبه من رجال الصحيحين "(١).

- ٢٧ -

محمد بن احمد الصغير بن ابنوجة عاش فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الهجرى وتوفى فى العقد الثالث من الثانى عشر ، علوى النسب شنقيطى المولد ، مغمور لاندرى عنه سوى نظمه لأدوات المغنى .

- ٢٨ -

محمد بن اب توفى كسابقه فى العقد الثالث من القرن الثانى عشر ، غلاوى النسب شنقيطى الموطن ، نظم الآجرومية .

- ٢٩ -

سيدى محمد بن سيدى عثمان بن سيدى عمر الولى (ت ١١٣٢ هـ) المحجوبى نسبا الولاتى وطنا ، حفيد العلامة عمر الولى ، اخذ العلم عن أبيه وعن الطالب الأمين بن الطالب الحبيب الخرشى " كان نحويا لغويا أديبا شاعرا ناثرا بليغا حسن الشعر مجيدا مصيبا حسن الخط حسن الفهم ثاقب الذهن ، رحل الى

---

١) البرتلى : فتح الشكور ص ٨٨

سجلماسه بالمغرب ولقى بها سيدى احمد الحبيب السجلماسى واخذ عنه ، وقيل انه قرأ عليه الشعر ، ومن شعره قوله[1]" الا ان استشهاده ساقط من النسخة التى بين ايدينا من فتح الشكور .

- ٣٠ -

محمد بن الطالب ابى بكر بن على بن الشيخ (١١٠٧ هـ - ١١٣٧ هـ) توفى فى عز شبابه عن ثلاثين سنة ، محجوبى النسب ولاتى الموطن والمستقر " كان من العلماء النجباء الأذكياء الأدباء الأنقياء جامعا لأنواع العلوم (...) حصل العلوم كلها كلاما وحديثا وأصولا وفروعا ونحوا وأدبا (...) قل ان ترى كتابا فى ولاته الا رأيت أثره فيه الف عقيدة منظومة فى علم أصول الدين تزيد على ثلاثمائة بيت (...) وله شعر متوسط ، ومن نظمه فى الحكمة رحمه الله تعالى.[2]

من احتاج للمخلوق لانت قناته ** لديه واسقاه كؤوس مهانة
ولله سر فى احتياج عبيده ** اليه مصون فى اعز صيانة

- ٣١ -

الحاج احمد بن اند عبد الله بن على بن الشيخ (ت ١١٤٠ هـ) المحجوبى الولاتى احد وجوه الشرق المورتيانى البارزين " انتهت اليه رياسة الفتوى والقضاء والنوازل بولاته "[3] له نظم فى علم الكلام وآخر فى المناسك وثالث فى فرائض خليل ورابع فى اسماء النبى عليه الصلاة والسلام كما وردت فى دلائل الخيرات وله رائية .[4]

وله قصيدة اخرى لم يذكر منها البرتلى سوى البيتين الأول والخامس .[5]

---

١) البرتلى : فتح الشكور ص ١٢١
٢) نفس المرجع السابق ص ١١٩ - ١٢٠
٣) نفس المرجع السابق ص ٤٣
٤) نفس المرجع السابق ص ٤٣
٥) نفس المرجع السابق ص ٤٣

- ٣٢ -

مينحن بن الفقيه مودى مالك توفى عام ١١٤٠ هـ تقريبا ، بأرض القبلة مسقط رأسه وقد أقام بها " محضرة " علمية تخرج فيها علماء نبغوا من بعده كمسكه بن بارك الله وابن رازجه وغيرهما " كان نحويا لغويا اديبا شاعرا مجيدا"(١)

- ٣٣ -

ختم ابن بنان البرتلى ترجمته للحاج احمد بن اند عبد الله المحجوبى المتوفى عام ١١٤٠ هـ بقوله " وفيه يقول القائل " واورد ابياتا نرجح من فحوى خطابها انها قيلت عقيب وفاة الرجل رثاء له ، وهى ولو لم يعلم قائلها ، اضافة عددية الى حجم محاولات الشعر فى تلك الأزمنة .(٢)

- ٣٤ -

الذيب الكبير لقب اشتهر به - فى القبلة موطنه - الشاعر الحسنى احمدو ابن عبد الله المتوفى على الأرجح فى العقد الرابع من القرن الثانى عشر الهجرى تلصق به الرواية الشفاهية تهمة الهجاء وسلاطة اللسان لكنها لم تستبق لنا من شعره مايفيد ثبوت التهمة عليه،فجله ضائع .

- ٣٥ -

محمد الكريم بن الفال عاش بالقبلة موطنه ابان النصف الثانى من القرن الحادى عشر الهجرى وتوفى على الارجح مع نهاية العقد الرابع من القرن الثانى عشر ، مدح ابن رازجه بمدحة ضائعة فأجابه بميميته التى مطلعها:(٣)

تخافقت البروق على الغميم *** شفاؤك يامقيلة ان تشيم

وفيها يثنى على شعره قائلا :

عدمنا قبل شعرك كون شعر *** قوافيه من الدر اليتيم

---

١) البرتلى : فتح الشكور ص ٦٣
٢) المرجع السابق ص ٤٤
٣) احمد بن الأمين : الوسيط ص ١١

- ٣٦ -

ابوفمين[١] لقب اشتهر به الشاعر المجلسى " فاغنى عن معرفة اسمه واسم أبيه " وهو من اشهر اتراب الشاعرين الذيب الكبير وابن رازجه ، كان من واقع ماتبقى من شعره هجاء كما كان علامة بارزة بين شعراء الطور الثانى كما مر بنا من نماذج شعره القليلة الباقية .

- ٣٧ -

سيدى عبد الله بن محمد بن القاضى عبد الله العلوى الشنجيطى المتوفى عام ١١٤٤ هـ[٢] ، الشهير بابن رازجه ترجم له ابن بنان البرتلى ترجمة وافية واورد احمد بن الامين الشهير من خبره وشعره[٣] واوفاه الدكتور محمد المختار اباه حقه من الثناء[٤] وجمع محمد سعيد بن محمد محمود ديوانه جمعا اوليا تحت اشراف محمود المسفار وذكره عبد الله كنون فى كتابه النبوغ المغربى فى الأدب العربى[٥] وقد عرضنا له طيلة هذا البحث ووقفنا طويلا مع شعره اذ يكاد من بعد اليدالى يكون الوحيد من جيله الذى بقيت آثاره الشعرية محفوظة لم ينلها مانال غيرها من البلى .

- ٣٨ -

عمر بن بابا بن عمر (١٠٧٧ - ١١٤٥ هـ) المحجوبى الولاتى ، أخذ عن العالم احمد الولى وعن الفقيه محمد بن ابى بكر بن هاشم كما اخذ عن الفقيه المحدث الحاج الحسن بن آغبد الزيدى ،ألح ابن بنان على شاعريته الحاحا

---

١) قيل انه لقب بهذا الاسم لاقذاعه فى الهجاء وغلوه فى المدح وقيل لاجادته الزجل الشعبى والشعر الفصيح فى آن واحد وقيل ان سبب اللقب انه لما ابتدأ فى قراءة الألفية وهو صبى قرأ قول ابن مالك " بالجر والتنوين والنداوال ... ومسندللاسم تمييز حصل " فقال - على الرغم من أنه لم يشتغل بالعلم من قبل - حصل الاعراب والتمييز ، راجع الوسيط ص ٣٤٨ .

٢) البرتلى : فتح الشكور ص ١٦٢ - ١٦٤

٣) احمد بن الامين : الوسيط ص ١ - ٢٤

٤) O.Bah Moctar : Introduction à la poesie , Mauritanienne pp. 37-38.

٥) عبد الله كنون : النبوغ المغربى فى الأدب العربى دار الكتاب اللبنانى ط ٢ ، ص ٢٣٥ - ٢٩٦

متواليا لا يتناسب مع القدر الذى استشهد به من شعره فقال " كان رحمه تعالى فقيها متفننا محدثا نحويا لغويا عروضيا شاعرا مفلقا ناثرا اماما فى العربية (...) حسن التعليم للعربية ، شاعرا مصيبا مجيدا كاتبا بليغا(...) مديد الباع فى الأدب (...) له شعر حسن وخط رائق مبرزا فى علوم اللسان نحوا ولغة وأدبا متقدما فى الكتابة والفصاحة والشعر"(١)

- ٣٩ -

سيدى احمد بن سيدى محمد بن موسى بن ايجل (ت ١١٤٥ هـ) الزيدى الولاتى اخذ عن والده الجليل العالم سيدى محمد بن ايجل وعن سيدى احمد بن آك السوقى وعن الفقيه سيدى الأمين بن ابد الامين الجكنى وعن ابى محمد سيدى عبد الله بن ابى بكر ، فقيه متفنن له نظم فى الجمل يسمى بنظم الأدوات ولم نقف له الا على مايتخلل فتح الشكور من نظم لتواريخ وفيات الاعيان(٢).

- ٤٠ -

عمر بن احمد بن بوه (ت ١١٥٢ هـ) الايديلبى نسبا الولاتى وطنا ، اخذ القراءات السبع عن شيخه سيدى عبد الله بن ابى بكر التنواجيوى وعنه اخذها البشير بن الحاج الهادى واخذ النحو وعلوم اللغة عن سيدى عمر بن بابا الولاتى " كان رحمه الله تعالى عارفا بعلم أصول الدين قارئا بالسبع محدثا نحويا لغويا شاعرا مفلقا "(٣)

- ٤١ -

الشريف احمد بن فاضل الشريف (ت ١١٥٣ هـ) ثانى الاخوين الذين قدما من بلاد المغرب الاقصى واستقر بهما المقام فى مدينة ولاته وبين ظهرانى علماء المحاجيب وفى كنفهم وقد مر بنا من قبل خبر اخيه الاكبر محمد بن فاضل

---

١) البرتلى : فتح الشكور ص ١٨٣
٢) نفس المرجع السابق ص ٧٥ : ٨٨ مثلا
٣) نفس المرجع السابق ص ١٨٤

ونكتفى هنا بالاشارة الى شاعريته اذ " كان رحمه الله تعالى فاضلا نجيبا رئيسا نبيلا نبيها وجيها كبير الشأن رفيع الدرجة عالى الهمة دينا حسن الخلق والخلق فقيها نحويا لغويا قارئا له حظ عظيم فى القراءة والحديث يقول الشعر ويجيده ".(١)

- ٤٢ -

سيدى حبيب الله بن المختار بن المتغمبر (ت ١١٥٥ هـ) الكنتى نسبا الودانى موطنا " كان رحمه الله فقيها نحويا شاعرا سخيا زاهدا له نوازل فى الفقه مجموعة مفيدة ".(٢)

- ٤٣ -

حمى الله بن محمد الأمين الحنشى (ت ١١٥٥ هـ) الغلاوى النسب التشيتى المقام والمستقر " له الفية مفيدة فى ضبط الأسماء والأفعال المشتبهة الشكل فى مختصر خليل (...) وله ألفية أخرى فى السير والغرائب من الأخبار ونحو ذلك ".(٣)

- ٤٤ -

الطالب سيدىمنير بن حبيب الله (ت ٣-١١٦٢هـ) الألفغى الشمشوى النسب الولاتى المهجر تتلمذ عليه فى النحو كل من عمر بن محمد بن أبى بكر والحاج أبوبكر بن الطالب محمد بن الطالب اعمر واحمد سيدى عثمان ابن مولود " كان رحمه الله تعالى (...) نحويا لغويا أديبا ، له حظ فى القراءة والفقه والأصول وغير ذلك (...) شاعرا ناثرا ، له شرح حسن

---

١) البرتلى : فتح الشكور ص ٤٧ .
٢) المرجع السابق ص ٨٩ .
٣) المرجع السابقص ٨٩ .

مفيد رتب فيه توضيح ابن هشام على الخلاصة سماه الدلاصة على الخلاصة "[١] وله قصيدة فى التوسل مشتهرة بين رواة ولا .

- ٤٥ -

محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الذى كان حيا عام ١١٦٤ هـ المحجوبى الولاتى ، شيخ ابن بنان البرتلى فى علم العروض وقد قال عنه انه " كان نحويا لغويا متبحرا فائقا فى هذين الفنين شاعرا أديبا نجيبا عاقلا ، له حظ فى علم المنطق والعروض " .[٢]

- ٤٦ -

الطالب محمد بن الطالب عمر الخطاط (١٠٩١- ١١٦٥) البرتلى النسب الولاتى الموطن " كان رحمه الله تعالى فقيها متفننا ماهرا فى علم أصول الدين والمنطق والعروض والقوافى وله اليد الطولى فى العربية والحساب (...) له قصيدة فى نقل الهمز ووصله ونظم فى الحيض وشرحه وله قصائد كثيرة وقطع واشعار وحكم لاتحصى " [٣] .

- ٤٧ -

ألما ن المصطفى العربى المتوفى فى العقد السادس - مطلعه على الأرجح- ديمانى النسب قبلى الموطن ، معاصر لابن عمه محمد سعيد اليدالى ، لم نعثر له على شعر يستدل منه على درجة شاعريته وان كانت الرواية تذكر أنه شاعر متميز كما أثنى الدكتور محمد المختار بن اباه على شعره [٤] وان لم يعرض له فيما أبدى للقراء من بحثه حتى الساعة .[٥]

---

١) البرتلى : فتح الشكور ص ١٢٦ .
٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .
٣) المرجع السابق ص ١٢٨-١٢٩ .
٤) O.Bah, Moctar : Introduction P. 46.
٥) تقدم ببحثه الى الجامعة الفرنسية لنيل درجة الماجستير بتاريخ ٢٨ مايو ١٩٦٩ ونشر مقدمته بمجلة Arabica عام ١٩٧١ ولم ير ماجمع وذكر من أشعار النور حتى اليوم واعجزتنا الحيلة فى الاطلاع عليه رغم المسعى .

- ٤٨ -

محمد بن المختار بن سعيد اليدالى (ت ١١٦٦ هـ) العالم الجليل ذو الآثار الباقية[١] الديمانى نسبا القبلى مقاما ومستقرا ، ترجم له البرتلى ترجمة شبه وافية[٢] وزاد احمد بن الأمين الشنقيطى على الترجمة بأن عرض لشعره فأورد منه نماذج كافية ، كما عرض له باقتضاب ولد اباه[٣] والف فيه النابغة الغلاوى كتابه الموسوم بالسند العالى فى مناقب اليدالى[٤] ومدحه ابن رازجة أو امتدح كل منهما الآخر بقصيدة لامية [٥]، وعرض لويس ماسينيون بالتحليل لميميته الشهيرة [٦] .

- ٤٩ -

الطالب الأمين بن الطالب الحبيب الخرشى (ت ١١٦٦ هـ) التاقاطى الولاتى مهجرا ، عالم جليل وفقيه متمثل " لم يقل من الشعر الا نحو قصيدتين اتباعا للسنة ولما قال ابن أبى زيد فى الرسالة : ولا ينبغى أن يكثر منه ولا من الشغل به " .[٧]

- ٥٠ -

محمد بن على الولاتى المعاصر للشريف حمى الله بن الشريف أحمد بن الامام المتوفى عام ١١٦٩ هـ ، لاندرى عنه سوى أن له قطعة قالها فى حياة

---

١) من أهم مؤلفاته الذهب الابريز فى تفسير كتاب الله العزيز ، الحلة السيرا فى انساب العرب وسيرة خير الورى ، وشيم الزوايا، ومناقب ومغازى ناصر الدين،وفرائد الفوائد،وديوان شعر .

٢) البرتلى : فتح الشكور ص ٣-١٢٢ .

٣) O.Bah,Moctar:Introduction p. 39.

٤) مخطوط نشر Rene Basset عام ١٩١١ فى باريس الهام منه ضمن كتابه mission au senegal .

٥) أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط ص ٢٢٣-٢٢٦ .

٦) Massignon, Louis: Un poete saharien: la quassida-de yedaly in R.M.M. VIII, 1909, p. 203.

٧) البرتلى ص ٦٥ .

الشريف حمى الله مقرظا تواليفه ومادحا له مطلعها :[١]

أبديت ما اخفى الجهابذة الأول

بعبارة أعيت تلامذة الجـــــدل

- ٥١ -

على بن الطالب عمر (ت ١١٧٩هـ) البرتلى نسبا الولاتى موطنا " له حظ من العروض والمنطق ، ماهر فى الحكمة وعلم السر ، جيد الشعر (...) لـــــه قصائد حسان فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم"[٢] وقد خمس قصيدة ســـــيدى منير التى مطلعها :

بـبـابكم حاجوى يـا احمد القرشـــــى

تخميسا سار فيه على هذا النحو :

وسيلتى يـاعلـــــى هذا الرسول الرضـــــى

نـاديته يـاصفـــــى بـبـابكم حاجـــــوى

يـا احمد القرشـــــى

- ٥٢ -

سيدى أحمد بن سيدى عثمان بن مولود (ت ١١٧٩ هـ) الفلاوى النسب التشيتى الموطن ، كثير النظم للمسائل الفقهية ومن نظمه مزدوجة مطلعها :[٣]

يـاطالبـا بـالوصل نيل الأجـــــر

لـيس بوصل العبيد غيـــــر الوزر

الى هنا وقف بنا رصد الاشارات التاريخية أو وقفنا به عند نهاية العقـــــد الثامن من القرن الثانى عشر الهجرى لا اعتباطا وانما لسببين :

---

١) البرتلى : فتح الشكور ص ٩٠ .

٢) البرتلى : نفس المرجع السابق ص ٢٠٠ .

٣) المرجع السابق ص ٥٢ .

أولهما : أن النصف الثانى من هذا القرن لم يشهد فى حدود المعلوم لنا حتى الساعة ميلاد " شاعرية " تضفى على شاعر غير من ذكرنا هم ضمن الرصد الآنف الذكر .

وأما ثانيهما : فلأن التتبع لحيوات الأفراد - لا الشاعرية - ابتداء من تاريخ توقفنا يقودنا حتما الى الوقوف حيال اناس هم فى نهاية المطاف عماد نهضة الشعر فى البلاد فى القرن الثالث عشر الهجرى وهو مايخرج زمنيا عن حدود موضوعنا .

***

المصادر والمراجع

كتـــب مخطوطـــة

- بابا ولد الشيخ سيديا : تأليف فى أخبار البيـاضين تحت رقم ٢٧٦٥/ تاريخ المعهد الموريتانى للبحث العلمى .
- سيدى عبدالله بن الحاج ابراهيم : رسالة بعنوان : الروض فى أنســـاب أهل الحوض .
- محمد سعيد اليدالى - كتاب الجيم .
- الشيخ محمد المامى بن البخارى : كتاب البادية .
- المختار حامد :
  - حياة موريتانيا .
  - كناش أشعار مختلفة .

***

كتـــــب مطبوعـة

- د. ابراهيم أنيس : موسيقى الشعر - مكتبة الانجلو - القاهرة - ١٩٨١م.
- د. ابراهيم على طرخان : امبراطورية غانة الاسلامية - الهيئة المصريـــة العامة للتـأليف والنشر ١٩٧٠ .
- ابن أبى زرع (أبو الحسن على) الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبـــار ملوك المغرب ومدينة فاس - الربـــــــاط - ١٩٣٦ .
- ابن الأثير : (على بن أحمد بن أبى المكرم) الكامل فى التاريـــــــخ ، بولاق ١٢٩٠ هـ .
- ابن بنان البرتلى : فتح الشكور فى معرفة أعيان علماء التكرور - تحقيق محمد ابراهيم الكتانى - ط بيروت - ١٩٨١م .
- ابن بشكوال : الصلة - ط ١٩٥٥م .
- ابن بطوطة : الرحلة المسماة " تحفت النظار فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار " المكتبة التجارية الكبرى بمصـــــر ١٩٦٤ م.
- ابن حوقل النصيبى : صورة الأرض - ط الثانية - ليدن بمطبعـــــة بريل ١٩٣٨ م .
- ابن خلدون : العبر - ط بولاق - القاهرة ١٢٨٤هـ ، وط دار الكتاب اللبنانى و طبعة بيروت ١٩٥٦ .
- ابن رازجة : الديوان - تحقيق محمد سعيد تحت اشراف محمود المسفـــــار انواكشوط ١٩٨٠م .
- ابن رشيق القيروانى (أبوعلى الحسن) : العمدة فى محاسن الشعر وآدابـــه ونقده تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد - بيروت ١٩٧٢ م .

- ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) : فتوح افريقية والاندلس تحقيق عبد الله أنيس الطباع - بيروت ١٩٦٤ - دار الكتاب اللبنانى .

- ابن عذارى (أبو العباس أحمد) : البيان المغرب فى أخبار المغرب - تحقيق ليفى بروفنسال وكولان - ليدن ١٩٤٨ .

- أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط - القاهرة ١٩١١ م .

- أحمد بابا التنبكتى : نيل الابتهاج بتطريز الديباج - المطبعة الفاسية - عام ١٣٢٠ هـ .

- د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية - ط ٤ - ١٩٨٣ - النهضة المصرية .

- الافرانى (محمد الصغير) : نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى طبعة وترجمة هوادس - باريس ١٨٨٨م .

- البكرى : " المغرب فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب - ط ١٩١٣ م - وط . الجزائر ١٩١١ م - تحقيق دوسلان .

- البلاذرى (أبو العباس أحمد بن يحيى) : فتوح البلدان - ليدن ١٨٦٦ م .

- التادلى : التشوف الى رجال التصوف - ط الرباط - ١٩٥٨ م .

- د. جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية - القاهرة ١٩٧٥ م - معهد البحوث والدراسات العربية .

- جلال الدين السيوطى : الحاوى للفتاوى - ط الثانية ١٩٧٥ م - دار الكتب العلمية - بيروت .

- د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ط . الثانية النهضة المصرية - ١٩٨٢ .

- د.حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧.

- الحضرمى (الامام أبوبكر محمدبن الحسن) : الاشارة الى أدب الامارة - تحقيق د. رضوان السيد - بيروت ١٩٨١ .

- حمادى بن المرتجى : الشعر فى ولاته فى القرن الرابع عشر الهجرى - المدرسة العليا لتكوين الاساتذة انواكشوط - ١٩٨٠ .

- سيلرى، أنتونى : الجغرافية الاجتماعية لافريقيا " ترجمة د. ابراهيم أحمد رزقانة ومحمد جمال الدين رزقانة القاهرة ١٩٦٧ .

- د. شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى - العصر العباسى الأول - دار المعارف القاهرة ١٩٨٤ م .

- عبدالعزيز بن عبدالله : الموسوعة المغربية (الاعلام البشرية والحضارية) - معلمة الصحراء - ملحق مطبوعات وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية فى المملكة المغربية - عام ١٩٧٦ م .

- عبدالله كنون : النبوغ المغربى فى الأدب العربى - دار الكتاب اللبنانى ط ٢ . (د.ت).

- د.عبدالمحسن طه بدر : حركات التجديد فى الأدب العربى - القاهرة - ١٩٧٦-٧٥ م .

- على سالم عمار : أبو الحسن الشاذلى - عصره - تاريخه - علومه وتصوفه ط الأولى ١٩٦٢م .

- عمر رضا كحاله : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة - المطبعة الهاشمية - دمشق ١٩٤٩ م .

- القلقشندى : صبح الاعشى ، المطبعة الأميرية - القاهرة - عام ١٣٢١هـ.

- ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس : ترجمة د. محمود عبد العزيز سالم وآخرين - النهضة المصرية ١٩٥٦ م .

- ماء العينين بن محمد فاضل بن مامين : تبيين الغموض على نعت العروض - المطبعة الفاسية - عام ١٣٢٠هـ .

- محمد الامام بن الشيخ ماء العينين : الجأش الربيط فى النضال عن مغربية شنقيط وعربية المغاربة من مركب وبسيط - مطبوعات دار العلم - الدار البيضاء - ١٩٥٧م .

- محمد حجى : الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين - المغرب - ١٩٧٦ .

- محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية - القاهرة - ١٣٤٩ هـ .

- محمد المختار بن اباه : دراسات فى تاريخ التشريع الاسلامى فى موريتانيا - تونس ١٩٨١ .

- محمد المختار بن السعد : نظرة تاريخية الى شربه - انو اكشوط ١٩٨٠ م .

- محمد سعيد اليدالى : الديوان : جمع وتحقيق الأمير بن اكاه - مدرسة المعلمين العليا - انواكشوط ١٩٨٠ .

- محمد الغربى : الساقية الحمراء ، ووادى الذهب - دار الكتاب بالدار البيضاء - د.ت .

- المراكشي : الاعلام بمن حل بأغمات ومراكش من الاعلام - ط فاس ١٩٣٦ م .

* المعجب في تلخيص أخبار المغرب : تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد الغربي العلمي القاهرة ١٩٤٩ م .

- المقري : أزهار الرياض في أخبار عياض - القاهرة ١٩٤٢ م .

- محمود كعت ، القاضي الفغ : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش واكابر الناس - ط السيد هوداس والسيد / دلافوس ، باريس ١٩٨١ م .

- الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد) : الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى - تحقيق وتعليق ولدي المؤلف : جعفر ومحمد - ط دار الكتاب - الدار البيضاء ، ١٩٥٤م .

- ياقوت الحموي : معجم البلدان - ليبزج ١٨٦٦ م .

- يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين - ترجمة محمد عبدالله عنان - ط مصر ١٩٤٠م .

***

1- A. Zouber, Mahmoud: Ahmed Baba de Timbouctou(1556/1627) Sa vie et son oeuvre

2- Alfred, G. Gerteiny: MAURITANIA, Pall Mall Press, London, 1967.

3- Basset, René : Mission au Senegal, Paris 1911 .

4- Bovill, E.W.: The golden trade of the moors, London, 1958.

5- Francis, De Chassey: l'etrier, la houe et le livre, ed. Anthropos , Paris, 1977.

6- H.T. Norris "Sanhajah Scholars of Timbouctoo" in B.S.O.A.S. XXX12, 1967.

7- Ismael, Hamet:-La Civilisation Arabe en Afrique Centrale in Revue du Monde Musulman
T. XIV, 1911.

" - Villes Sahariennes in Revue de monde musulman, Vol. XIX année 1912.

8- J.O. Hunwick: A new source of the biography of Ahmed Baba al timbukti, in B.S.O.A.S. XXVII/3 1964.

9- Marçais, George : La berberie musulmane et l'orient au moyen âge, Paris, 1946.

10- Marty,P.: Les Kounta de l'est in R.M.M. Vol.XXXVII 1918-1919.

11- Massignon ,Louis:"Un poete Saharien : La quasida del-yedaly" in R.M.M. Tome VIII, 1909.

12- Miske, A.B.: Wassit,tableau descriptif de la Mauritanie au 19e Siecle Imprimerie, Nouvelles Press , Parisiennes,1970.

13- O.Bah, Mohamed Moctar: -"La litterature Juridique et l'evolution du Malekisme en Mauritanie", Publications de L'université de Tunis F.L. et Sciences humaines Sixieme Serie Philo-litterature, Vol.XIX, 1981.

- Introduction à la poeise mauritanienne (1650-1900) Arabic T.XVIII, fas. 1/1971.

14- Introduction à la Mauritanie, ouvrage collectif, ed. CNRS , Paris , 1979.

15- O. Cheikh, A.W. et Bernard Saison: Vie (S) et mort(S) del Imam Al Hadrami, autour de la Posterité Saharienne (11^{e} - 17^{e}) IMRS Nouakchott , 1983.

الفهرست

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	١-٥
الفصل الأول : الأصول التاريخية للثقافة العربية الاسلامية فى شنقيط	٧-٦٤
صنهاجة قبل الاسلام	٧-١١
دخول الاسلام وانتشاره	١١-٣٥
التعرب والتعريب	٣٦-٥٠
مراحل الثقافة	٥٠-٦٤
الفصل الثانى : مصادر الشعر الشنقيطى وقيمتها التاريخية	٦٥-٩٥
حفظ التراث	٦٦-٧٠
تاريخ الكتابة والورق.....	٧٠-٧٧
مكانة الشعر بين معارف القوم	٧٧-٨٣
تقييد وتدوين الشعر	٨٣-٨٥
مصادر ومراجع شعر النشأة	٨٥-٨٨
الرواية الشفاهية	٨٨-٩١
الوضع والنحل فى الشعر الشنقيطى	٩١-٩٥
الفصل الثالث : نشأة الشعر الشنقيطى تاريخيا	٩٦-١١٥
مزالق مبحث النشأة	٩٦-١٠٢
مفهوم النشأة ومقتضياتها	١٠٣-١٠٥
التمثل النهائى لخط سير النشأة	١٠٦-١١٥
الفصل الرابع : أغراض ومعانى شعر النشأة	١١٦-١٧٨
تحديد دوائر شعر النشأة	١١٦-١١٨
دائرة الشعر الدينى	١١٨-١٣٣

الموضوع	الصفحة
دائرة الشعر التعليمى	١٣٤-١٣٩
دائرة الشعر ذى الأغراض الاجتماعية	١٤٠-١٧٨
الفصل الخامس: الخصائص الفنية لشعر النشأة	١٧٩-٢٠٨
خصائص تيار التلقائية	١٨٠-١٨٧
خصائص تيار الصنعة واحتراف الشعر	١٨٨-٢٠٨
الخاتمة	٢٠٩-٢١٢
الملحق	٢١٣-٢٣٢
المصادر والمراجع	٢٣٣-٢٤٢
الفهرست	٢٤٣-٢٤٥

* * *